

الهيئـــة العامة
لقصور الثقافة

آفاق عربية

القصة السعودية المعاصرة

د. طـــه وادي





الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية (57)

(شهرية)

سبتمبر / 2002

القصة السعودية المعاصرة

د. طه وادي

تصحيح لغوى :

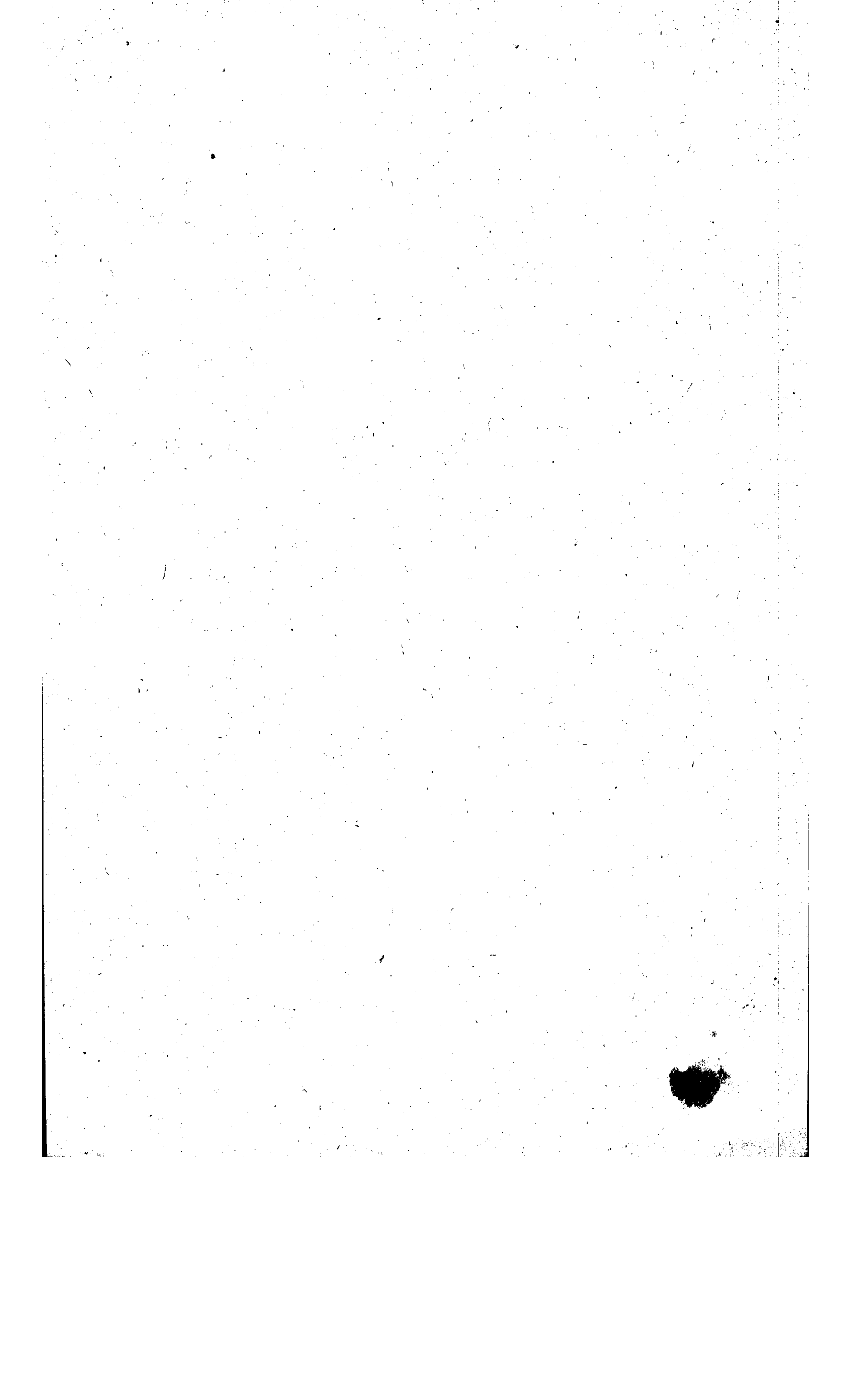
أسامة عبد الهادى

المراسلات باسم مدير التحرير :

على العنوان التالى :

١٦ (أ) ش أمين سامى - القصر العينى

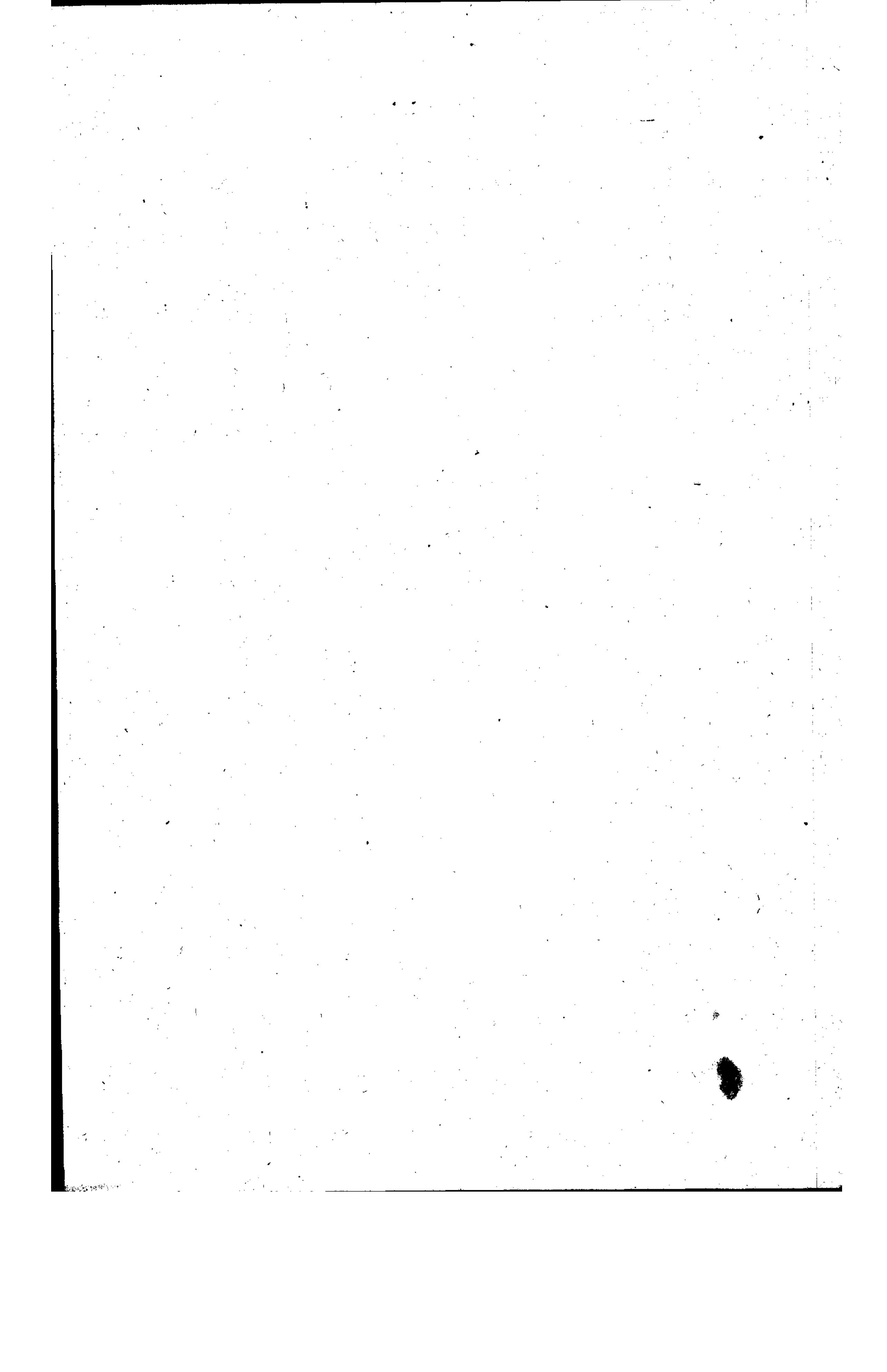
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١



الإهـــداء

إلى الطفل العربي
صانع الحلم القومي
حلم العلم... التقدم
الحرية... الوحدة
الذى أتمنى أن يولد
وسط دهاليز عصر العولمة

طـــه وادى



مقدمة الكتاب

يعد الأدب العربي... أطول الآداب الإنسانية عمرا، حيث تبلغ مسيرته - في الوقت الحالي - زهاء ستة عشر قرنا. وقد انتشر - في ظل الفتوحات الإسلامية - في مناطق بعيدة وبلاد جديدة وقد استمرت مسيرته إلى اليوم في أقطار العالم العربي، وامتدت تأثيراته الفنية إلى كثير من الآداب المجاورة في القديم والحديث.

والأدب - كما هو معروف عند كل الشعوب واللغات - يخضع لعمليات مد... وجزر ثقافي، ويشهد حركات تطور وتجديد... ومراحل ضعف وجمود .. فالأدب نشاط اجتماعي / ثقافي، يسير بحسب حركة المجتمع المنتج له : إبداعا ونقدا.

وقد شهد الأدب العربي الحديث - في البلاد العربية كلها - حركة تجديد شاملة - منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى المرحلة

الآتية. وحركة التجديد الأدبى هذه، مواكبة لمسيرة النهضة الاجتماعية والتطور الفكرى والتحرر السياسى . وتقف فنون القص فى طليعة الأجناس الأدبية الجديدة، التى عُنى بها الأدب العربى.

وفن القص الحديث ـ فى الآداب العالمية... مثلما هو فى أدبنا العربى ـ يعتمد على محورى الأصالة والمعاصرة . فالقصة الحديثة ـ رغم جذورها التراثية ـ قد اتخذت شكلا أدبيا جديدا، يختلف عن جذوره وأنواعه القديمة. وبعض مؤرخى الأدب يعد القصة الحديثة: طويلة أو قصيرة ـ نوعا أدبيا جديدا... لا يلتقى مع التراث القصصى القديم إلا فى عنصر الحكى وأسلوب السرد.

وفنون القص الحديثة بهذا المنظور النقدى تعد جديدة فى كل الآداب العالمية.. وليس فى إطار الأدب العربى وحده. فرواد هذا الجنس الأدبى ـ فى معظم البلاد العربية ـ كانوا ثوارا فى الفكر والثقافة. أو على الأقل دعاة نهضة أدبية وتطوير ثقافى . فهم يمثلون تيار التنوير الفكرى والتجديد الأدبى.

معنى هذا... أن نهضة المجتمع... ونشأة القصة يسيران فى خطين متوازيين فى تاريخ النهضة العربية الحديثة، من هنا

صارت القصة - وليس الشعر - ديوان العرب فى العصرالحديث. فالنتاج القصصى يعكس شوق الإنسان العربى إلى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الرجل والمرأة... وكسر بعض عناصر التابو الموروثة - التى تحد من حركة المجتمع وحياة البشر. إن النتاج السردى الذى قدم خلال قرن من الزمان يعكس رغبة المجتمع فى التحرر من ناحية... وربما كان أكثر صدقا من بعض الكتب التى أرخت للحياة العربية المعاصرة... «القصة - إذن - تقدم موازاة رمزية صادقة للواقع الحقيقى للبشر. وهى حين تفعل هذا.. فإنما تستجيب لطبيعتها النوعية فى الحكى (Narration)، حيث إنها مؤهلة لتصوير الإنسان فى كافة جوانبه الحياتية. كما إنها قادرة على الغوص فى أعماق الشخصية.. معبرة عما يدور فى إطار الوعى واللاوعى وهى تمزج بين تصوير الواقع الاجتماعى (الخارجى)، والعالم النفسى (الداخلى فى آن واحد)[١] .

وقد امتدت نهضة السرديات - اليوم - إلى الأدب العربى فى مختلف الأقطار، التى تضمها جامعة الدول العربية. يؤكد هذه النهضة الأدبية على المستوى العالمى حصول كاتبنا العربى القدير نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الرواية سنة ١٩٨٨.

(٢)

من هذا المنطلق الفكرى الرحب... شغلت بفنّ القصة إبداعا ونقدا. كما تجاوزت ـ من خلال دورى الأكاديمى ـ إطار إقليمية الأدب وشغلت بالأدب العربى الحديث فى معظم البلاد العربية... ولاسيما فنون القص وقد انعكست هذه النظرة الشمولية للأدب العربى فى كتابين لى..هما:

١ـ الرواية السياسية (١٩٩٦)

٢ـ القصة ديوان العرب (٢٠٠٠)

وأخيرا... يأتى هذا الكتاب «القصة السعودية المعاصرة ـ دراسة ومختارات» ليؤرخ لفن القصة القصيرة فى الأدب السعودى المعاصر. ويوضح أهم مراحل تطوره، والكتاب الذين يبدعون خلال الدراسة النقدية والمختارات القصصية.

والدراسة النقدية: التى يشتمل عليها الجزء الأول، تبحث فى أهم قضايا القصة القصيرة من حيث المفهوم النظرى من خلال آراء بعض النقاد والوظيفة الفنية/ الأخلاقية... والأداة .. أو اللغة السردية .. على مستوى السرد، والحوار مع الآخر، والحوار مع الذات.

كما حرصت فى هذا الجزء على أن يقدم بعض الشهادات الأدبية لبعض كتاب القصة السعودية؛ لأنها تكشف عن مدى تصورهم النظرى للفن الذى يبدعون فيه.

أما القسم الثانى من الكتاب: الخاص بالمختارات القصصية: فهو يضم (خمسة وعشرين) نموذجا.. تمثل أهم الأجيال والتيارات. وكنت أود أن يزيد حجم المختارات ـ خاصة وأن بعضهم أصدقاء وزملاء ـ لكن النتاج غير متاح لى، حتى خلال الفترة التى أقمتها فى مكة المكرمة(١٩٩٥ ـ ١٩٩٩).

والغاية .من هذا الكتاب ليست أدبية فحسب، وإنما هذا الكتاب يعكس حفاوة الحياة الثقافية فى مصر بنتاج الأدب فى الأقطار العربية كافة... والأدب السعودى بصفة خاصة.

وبعد.. فإنى أرجو أن يحقق الكتاب أمله... فى إقامة جسر من التواصل الثقافى بين الأدباء العرب؛ لأنه لا مستقبل لنا ـ نحن العرب جميعا ـ إلا فى إطار وحدة فكرية .وأدبية .. وثقافية.. وسياسية .. فى عصر التكتلات الكبرى، التى تفرضها استراتيجية عصر العولمة.

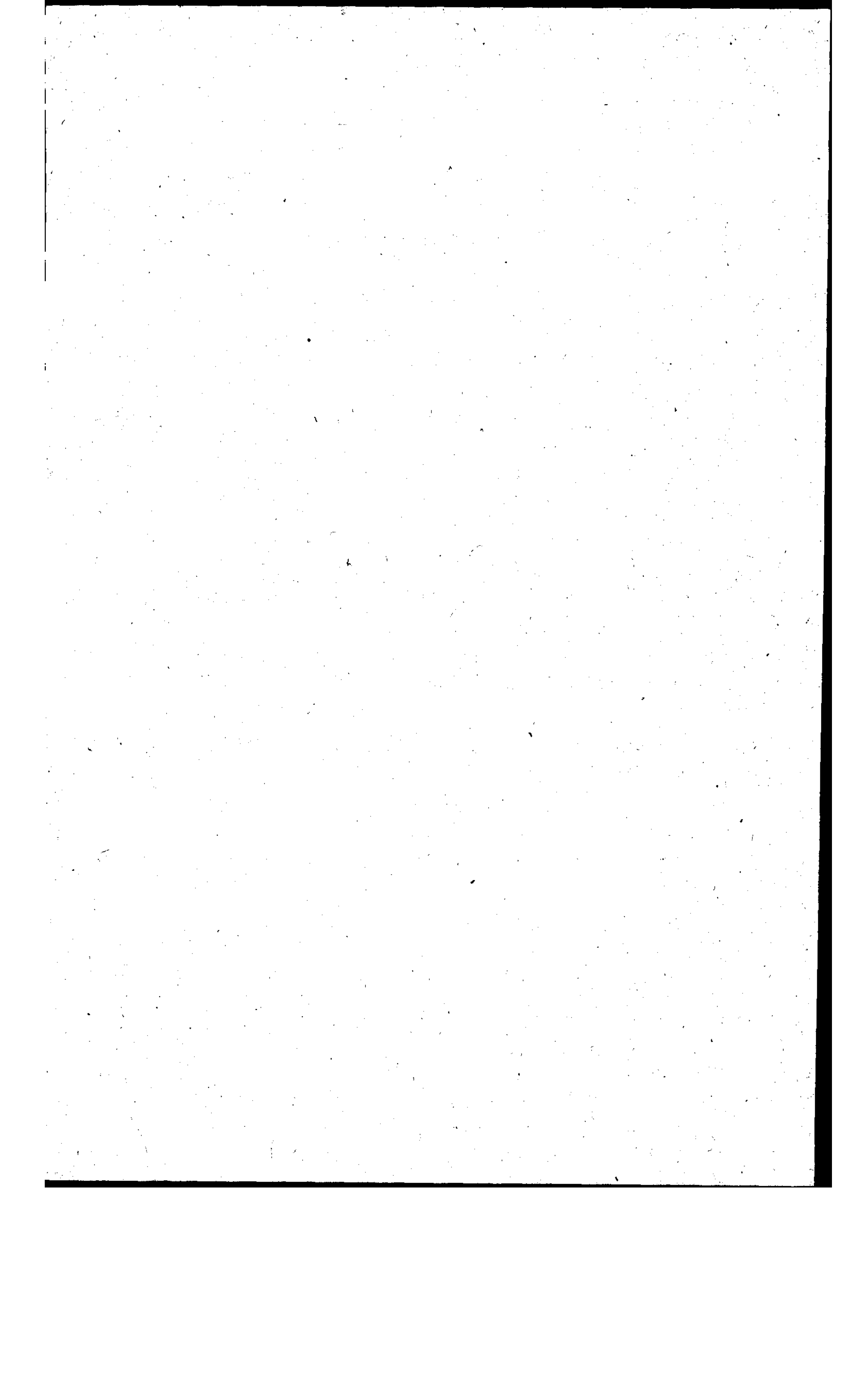
أدعو الله - جل وعلا - أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه الخير والصواب، إنه نعم المولى ... ونعم النصير.

---

(١) د. طه وادى : القصة ديوان العرب - ط الشركة المصرية العالمية للنشر، (لونجمان) - القاهرة - ٢٠٠٠ - ص ٨.

القسم الأول
دراسة نقدية

- الفصل الأول: قضايا سردية
- الفصل الثاني: تطور القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية
- الفصل الثالث: شهادات أدبية



الفصل الأول
قضايا سردية

المتخيل السردى... ونظرية الأجناس الأدبية:

القصة فى شكلها البدائى البسيط - بغض النظر عن المصطلحات المختلفة التى كانت تطلق عليها : خبر - حكاية - حكاية شعبية - حكاية خرافية - مسامرة - أمثولة - طرفة - أسطورة - نادرة - قديمة قدم ثقافة الإنسان.

لكن قدم القصة لا يجعلنا نذهب إلى أن القصة الحديثة - التى لم تظهر إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى - تطور تدريجى لما كان معروفا فى القديم من أنماط التخيل السردى ، فبين النتاجين فروق شاسعة بعيدة بدرجة يمكن معها القول بأن القصة الحديثة (نوع أدبى جديد).. لا علاقة له بالماضى[١].. ونقصد بالماضى - هنا - كل ما كان شائعا من أنماط قصصية فى العالم الغربى قبل القرن التاسع عشر، وفي العالم العربى قبل بدايات القرن العشرين.

والقصة ـ باعتبارها تخيلا سرديا ـ يمكن أن نحدد ماهيتها على ضـوء من نظرية الأجناس الأدبيـة (Theory of Genres). وهنا ينبـغى أن نشـير إلى أن القـصـة (القـصـيـرة) والرواية (الطويلة) ينتـمـيـان إلى جنس أدبى واحـد، أى أن الكلام عن أحدهما يعنى ـ بالضرورة ـ الحديث عن الآخر.

الجنس أو النوع الأدبى ـ .«ليس مـجـرد اسم ، لأن العـرف الجمالى الذى يشارك فيه العمل (الأدبى)يصوغ شخصية هذا العمل ، فالأنواع الأدبية قد تعتبر أوامر دستورية تلزم الكاتب، وهى بدورها تلتزم به فى وقت واحد... النوع الأدبى مؤسسة، كما أن الكنيسة أو الجامعة أو الدولة مؤسسة ، ونظرية الأنواع مبدأ تنظيمى: فهى لا تصنف الأدب وتاريخه بحسب الزمان والمكان، وإنما بحسب أنماط أدبية نوعية للبنية والتنظيم»[٢].

معنى ذلك أن كل عمل أدبى ينتـمى بالضـرورة إلى جنس محدد، له خصائص تكوينية(فارقة)، تميز بينه وبين غيره من الأجناس الأخـرى، بمعنى آخـر: إن لكل جنس(جـمـاليـاته) الخاصة، وهنا يطرح سؤال ملح: ما طبيعة العلاقة التى تربط بين علم جمال جنس وتاريخه؟

الإجابة البدهية عن ذلك... «إن علم جمال الجنس ـ بما أنه يضبط فى حد معيار الجنس ـ ينبغى أن يسبق تاريخ الجنس، وأن يمكنه من المتصور »(٣).

وقد شغلت قضية الأجناس الأدبية النقاد منذ أمد بعيد.. فقد تكلم فيها أفلاطون، وأرسطو فى كتابه «فن الشعر» وهناك محاولات لربط القضية بالمواقف التعبيرية والصيغ اللغوية فى آن واحد، حيث يوجد:

١ـ الموقف الغنائى: يعبر فيه الشاعر عن نفسه... مستخدما ضمير المتكلم (أنا) والزمن المستقبل... وهذا يؤدى إلى تعبير غنائى/ ذاتى بـ (الشعر) Poetry.

٢ـ الموقف الدرامي: يعبر فيه الأديب مخاطبا مشاهدا له، ويستخدم فى ذلك ضمير المخاطب الحاضر (أنت)... والزمن المضارع، وهذا يؤدى إلى تشكيل حدث يقدم عن طريق (التمثيل) Drama .

٣ـ الموقف الملحمي: يقدم فيه الأديب حكاية يرويها لغيره... يستخدم فيها ضمير الغائب (هو)... والزمن الماضى، وهذا يؤدى إلى التعبير بجنس (القص) ـ Narrative(٤).

وهذه المواقف التعبيرية لاتزال ـ رغم بعض التحفظات النقدية المعاصرة ـ صالحة للتفريق بين الأجناس الأدبية فى شكلها المثالى العام، بحيث يكون لكل جنس بنيته الخاصة، وهذا يعنى بالضرورة أن لكل جنس أدبى(جمالياته) النوعية، التى تميز بينه وبين غيره من خلال معايير معروفة سلفا للأديب والناقد على حد سواء، من هنا تصبح فكرة(نقاء الجنس) الأدبى قضية أساسية فى تأسيس علم جمال لكل نوع. «إن العمل الفنى ـ حتى باعتباره مجرد تعبير عن الفردى ـ يبقى مع ذلك مكتفياً بالغيرية، أي بالعلاقة مع الآخر بوصفه ذاتا مدركة. وحتى فى الحالة التى يكون فيها إبداعا لغويا صرفا ينفى الانتظار أو يتجاوزه، فهو يفترض معلومات مسبقة أو توجيها للأنظار، بها تقاس الجدة والطرافة أفق الانتظار الذى يتكون لدى القارئ بواسطة تراث أو سلسلة من الأعمال المعروفة قبلا»[٥].

هناك إذن عناصر بنائية مهيمنة فى كل جنس أدبى تعد بمثابة (النموذج).وهذا التضور المثالى لجماليات النوع المتفردة، لا يقلل من شأنه ما ذهب إليه الناقد الإيطالى بند تو كروتشه من زيف المبادئ التى تقوم عليها نظرية الأنواع الأدبية، لأن بعض الأدباء الكبار يتجاوزون حدود النوع، وهذا يؤدى إلى أن تكون بنية النوع الواحد غير ثابتة أو مستقرة[٦]، بيد أن التجاوز

أو الانزياح لا يعنى إلغاء الخصائص الجامعة المانعة بين الشعر والقصة أو بين القصة والمسرحية. «وإذا جاز للكاتب ادعاء الإعراض عن القواعد والقوالب الراسخة للأنواع الأدبية فلا يجوز ذلك للناقد، لأن القارئ عندما يقرأ نصا ما فإنما يعيد صياغته مستندا على مواضعات نصوص أخرى قديمة على شاكلته، وهذه المواضعات تتمثل فى هيئة صيغ مجردة، تكون بمثابة المعيار الذى يقيس عليه اطراد هذه النصوص أو شذوذها، كما أن وجود هذه الصيغ المجردة ضرورى لكل من الكاتب والقارئ؛ لأن الصيغة المعتمدة للنوع هى بمثابة الشفرة التى يعرفها كل من الكاتب والقارئ، وهى العامل المشترك الذى يضبط عملية التعبير والإيقاع، هى صيغة التفاهم التى يحتاج إليها الكاتب فى التعبير، ويحتاج إليها القارئ فى التفسير»(٧).

هكذا ننتهى إلى أن مفهوم النوع الأدبى قد يتطور وأن وظيفته قد تتغير.. لكن ذلك لا ينفى أن نظرية الأجناس الأدبية تظل إطارا معرفيا، له قواعده التى لا يمكن تجاهلها من المبدع أو المتلقى، انطلاقا من هذه الحقيقة المؤكدة نحاول أن نتعرف على ماهية القصة ووظيفتها الجمالية من خلال عرض آراء بعض النقاد الغربيين والعرب.

مقاربات نقدية حول مفهوم القصة القصيرة

أو لا: آراء بعض النقاد الغربيين:

١- الكاتب الفرنسى جى دى موباسان:

حين ظهر موباسان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان يعتقد أن الحياة تختلف عما ترسمه القصص المتداولة فى عصره، فليس أهم ما فيها هو الفراق أو الزواج... ولكن بين طياتها من الأمور العادية التى تحدث كل يوم ما قد تعكس زوايا وأضواء ومعانى جديرة بالاعتبار... ويمكن أن يصور الكاتب أفرادا عاديين في مواقف عادية كى يفسر الحياة تفسيرا سليما، ويبرز ما فيها من معان خفية. فالواقعية الطبيعية التى كان ينتمى إليها موباسان كانت ترى أن بالحياة لحظات عابرة، قد تبدو فى نظر الإنسان العادى لا قيمة لها، ولكنها تحوى من المعانى قدرا كبيرا، وكان كل هم موباسان أن يصور هذه اللحظات وأن يستشف ماتعنيه، وقد اهتدى إلي أن هذه اللحظات العابرة المفصلة لا يمكن أن تعبر عنها إلا القصة القصيرة.. وكان هذا اكتشافا خطيرا، بل هو من أهم

الاكتشافات الأدبية فى العصر الحديث، لأن القصة القصيرة كانت تلائم مزاج موباسان وعبقريته الفريدة، بل لأن القصة القصيرة تلائم روح العصر كله، فهى الوسيلة الطبيعية للتعبير عن الواقعية الجديدة التى لا تهتم بشىء أكثر من اهتمامها باستكشاف الحقائق من الأمور الصغيرة العادية المألوفة، ولعل هذا هو السبب فى انتشار القصة القصيرة منذ عصره إلى يومنا هذا.

ومن الواضح أن واقعية موباسان كانت ترى أن الحياة تتكون من لحظات منفصلة ، لذلك فإن مفهوم القصة عنده ينسجم مع هذه الرؤية، فهى: تصور حدثا معينا ـ لا يهتم الكاتب بما قبله أو ما بعده(٨).

٢- الناقد الإنجليزى.. آيان زايد:

إن ظهور القصة القصيرة... يصادف ظهور تلك الظاهرة الحضارية المتغيرة المسماة بالحركة الرومانتيكية، فيبدو أن هناك سببا قويا يؤيد الملاحظة الشائعة التى تقول إن القصة القصيرة شكل أدبى رومانتيكى. وهى تعتبر الشكل النثرى الرومانتيكى الأصيل، ولأنها عادة ذات نطاق محدود واتجاه شخصى فهى تعادل القصيدة الغنائية فى الشعر، كما تعادل الرواية الملحمة الشعرية.

كما يرى أن شعبية القصة القصيرة جعلتها تميل إلى التركيز،وهذا ما دفع بها إلى التنوع من غير تحديد، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الرغبة التى يشعر بها المؤلف فى سرد قصته ليس من الممكن كبتها ولا تحديدها فى نمط سردى واحد. إن القصة القصيرة لابد وأن تقص قصة - مثل الرواية - إن كانت تريد أن تبرر اسمها ، ولو كان ذلك على نطاق أصغر(٩).

٣- الناقد الأيرلندى.. فرانك أوكونور:

القصة القصيرة ليس لها قالب جوهرى يبنى عليه كيانها الفنى كما هو الشأن بالنسبة للرواية، ومن ثم فإن افتقادها لهذا القالب جعلها أكثر مرونة وحرية، وجعلها مجالا خصبا لكل ابتكار جديد أو إضافة جديدة... ثم يضيف : إن كاتب القصة القصيرة ليس لديه قالب جوهرى يرجع إليه، لأن إطاره الذى يرجع إليه لا يمكن إلا أن يكون الحياة الإنسانية برُمَّتها، وهو لابد أن يختار دائما الزاوية التى يتناولها منها، وكل اختيار يقوم به يحتوى على إمكانية قالب جديد(١٠).

٤- الناقدة الإنجليزية جوديت لايبوفيتس:

إن اختيار الرواية لمادتها تختلف عن اختيار القصة القصيرة لمادتها، لأن الهدف القصصى للرواية هو التوسع، بينما هدف

القصة القصيرة هو الإيجاز... وينبغى أن ينظر إليها على أنها انطباع جمالى شامل أكثر من كونها صورة بلاغية[11].

٥- الناقدة الإنجليزية مارى لويز برات:

القصة القصيرة تقوم على الاعتقاد بأن الحياة ليست تيارا ممتدا متصلا ، بل هى جزئيات صغيرة متتالية ، تشبه جزئيات الصورالسينمائية، وإن الحياة إنما يتم سبر أغوارها وتحليل عناصرها عن طريق الإمعان فى جزئية واحدة منها، ووضعها تحت المجهر وإظهار خطوطها المتقاطعة، كما يظهر النسيج الحى الذى توضع شريحة منه تحت المجهر، ومن ثم كان الراوى محصورا فى هذا الإطار[12].

٦- الناقد الأمريكى ولسن ثورنلى:

القصة القصيرة المحكمة سلسلة من المشاهد الموصوفة التى تنشأ خلالها حالة مسببة، تتطلب شخصية حاسمة ذات صفة مسيطرة ، تحاول أن تحل نوعا من المشكلة من خلال بعض الأحداث التى ترى أنها الأفضل لتحقيق الغرض[13].

٧- الناقد الأمريكى وين بوث:

ذكر فى فصل عنوانه «يجب أن تكون الروايات الصادقة روايات واقعية»، ومعظم ما ذكره لا فى هذا الفصل، بل فى

الكتاب كله، يمكن أن يكون داخلا فى إطار نقد القصة القصيرة، من ذلك قوله: «كانت مشكلة صوت المؤلف فى النقد القصصى معقدة جدا بالنسبة إلى الكتاب الأوائل الذى هاجموا أسلوب البلاغة المعتمد القديم»، إن مقدمات هنرى جيمس والتى هى بمثابة استكشافات ثاقبة وضرورية لحرفة المؤلف - لا تقلص ألم التنازلات السهلة فى التقنية إلى مجرد السرد والعرض، ولا تفصح عن رفض واضح لكل شىء ماعدا طريقته الخاصة. إن العدوين الأولين بالنسبة لجيمس هما : الخمول الفكرى والفنى، وليس غياب طريقة متميزة فى سرد وعرض القصة... والأكثر من ذلك أنه كان يركز على حقيقة أن الفن القصصى لا يملك «نافذة واحدة بل مليون» فى الواقع هناك «خمسة ملايين» طريقة لسرد قص ما، ولكل واحدة من هذه الطرق ما يبررها، إذا كانت تزود القارئ «بجوهر» هذه القصة، ولم تكن شمولية جيمس محددة بالتقنية، فقد رفض علنا فى العمل القصصى أى جهد يتحدث عن «أى قالب تتشكل فيه الرواية» وقد كان المطلب الوحيد بالنسبة له هو « أن تكون الرواية ممتعة»(١٤).

٨- بعض الكتاب الألمان:

يذهب د. سمير سرحان فى تقديمه لكتاب القصة القصيرة إلى أن الكتاب الألمان عنوا بالتفرقة بين الرواية القصيرة والقصة القصيرة، وقالوا: إن القصة القصيرة تختلف اختلافا تاما عن غيرها من أنواع القصص، والمسألة هنا ليست مسألة طول أو قصر، إنما هى مسألة روح القصة القصيرة نفسها، فهى عمل أدبى مستقل متميز، ولا يمكن أن تسمى إلا قصة قصيرة[١٥].

ثانيا: آراء بعض النقاد العرب:

١- د. شكرى عياد:

الرواية (والقصة) الحديثة نبت بورجوازى.. لكن الطبقة البورجوازية وكتابها لم يخترعوا الفن القصصى، فالفن القصصى قديم قدم الإنسان متغلغل فى كل الطبقات وخصوصا الطبقات الشعبية، وإنما الذى فعلته البورجوازية وكتابها هو أنهم أعطوا للفن القصصى شكلا جديدا، حتى إنه بدا شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الأسطورة والملحمة والحكاية الشعبية.

كما يرى أن القصة القصيرة تشترك مع الرواية فى كثير من الخصائص، وهذا هو ما جعل النقاد الإنجليز يطلقون عليهما اسما جامعا واحدا (Fiction).

ولا نستطيع أن نضع حدا فاصلا بين الرواية والقصة القصيرة إلا أن يكون حدا تحكميا ، وإن ذلك لا ينفى أن الاقتصاد(فى الوصف) هو الصفة المميزة للقصة القصيرة دائما، فهو شرط لابد منه لأداء وحدة الانطباع.

إن القصة القصيرة الفنية هى التى تملى الطول المناسب لها؛ كما تملى شكلها الخاص، حتى أننا يمكن أن نقول إن كل قصة قصيرة فنية هى تجربة جديدة فى التكنيك(١٦).

٢- د. الطاهر مكى:

القصة القصيرة.. حكاية أدبية، تدرك لتقص، قصيرة نسبيا، ذات خطة بسيطة، وحدث محدد، حول جانب من الحياة، لا فى واقعها العادى والمنطقى، وإنما طبقا لنظرة مثالية ورمزية، لاتنمى أحداثا وبيئات وشخوصا ، وإنما توجز فى لحظة واحدة حدثا ذا معنى كبير(١٧).

٣- د. طه وادى:

القصة القصيرة: تجربة أدبية تعبر - بالنثر - عن (لحظة) فى حياة إنسان، فهى إذن فن يقوم على التركيز والتكثيف فى وصف لحظة... لحظة واحدة. وهذه اللحظة قد تمتد زمنيا لساعات أو أيام أو أسبوع.. أو ربما شهر أو أكثر . غير أن

القاص لا يهتم فيها بالتفاصيل التي يهتم بها الروائي... لكنه يمضى قدما نحو تعميق اللحظة التى يصورها، لكى تعطى إيحاء مركزا حول ما تدل عليه. والقصة يجب أن تعوض بقوة التركيز وحرارة الوصف ما قد تفقده بقصر الحجم.من هذا التحدى تأتى صعوبة القصة القصيرة التى توصف بأنها «قصيدة النثر»لأنها ـ مثل الشعر ـ ينبغى أن تكون ذات إيقاع فكرى وجو نفسى واحد، وأن تستخدم اللغة فيها بدقة، لأن تركيبها قد يختل بزيادة كلمة أو جملة، والقصة – مثل القصيدة أيضا – تؤدى فى النهاية إلى وحدة فى الانطباع الجمالى الذى تتركه فى ذاكرة المتذوق[١٨].

٤- إدوار الخراط:

النص القصصى وحدة بنائية وعضوية، وله علاقاته الداخلية، وأنه بالتالى كائن له استقلاله وتفرده وخصوصيته، ومن الممكن ـ إذا لم يكن ضروريا ـ أن تفض أسراره من داخله، ومع ذلك فهو ليس عالما مغلقا على ذاته مصمتا ومسدودا فى إطاره النصى، بل هو عالم مفتوح، له علاقاته المرجعية الهامة التى من وظيفتها أن تفتح منافذ من الضوء على النص، وهى علاقات تتراوح من موقعه فى فلك النصوص الأخرى للكاتب، وتشكله من خلال

تطور العمل القصصى كله لهذا الكاتب إلى موقعه من الوعى الاجتماعى بما يحمل من عوامل معقدة ومتشابكة ومتحركة[19].

٥- الناقد المغربى د. أحمد المدنى:

القصة القصيرة تتناول قطاعا عرضيا من الحياة، تحاول إضاءة جوانبه، أوتعالج لحظة وموقفا تستشف أغوارهما تاركة أثرا واحدا وانطباعا محددا فى نفس القارئ. وهذا بنوع من التركيز والاقتصاد فى التعبير وغيرها من الوسائل الفنية التى تعتمدها القصة القصيرة فى بنائها العام، والتى تعد فيها الوحدة الفنية شرطا لا محيد عنه، كما أن الأقصوصة تبلغ درجة من القدرة على الإيحاء والتغلغل فى وجدان القارىء كلما حومت بالقرب من الرؤية الشعرية[20].

٦- د. عبد الرحيم الكردى:

إن مفهوم القصة القصيرة إنما يتعرف عليه من خلال التعرف على بنيتها، وإن حدود هذه البنية تكمن فى الكشف عن التخوم التى تحيط بها من جهة الأنواع الأدبية القريبة منها، وتشترك معها فى بعض المادة المكونة لبنيتها، وهى الخبر والصورة والمقال القصصى والشعر. وهى تقوم على بنية خاصة تعتمد على عنصرين هما: مادة الصورة ومادة الخبر، وإن

امتزاجهما في بنية واحدة مستقلة يتطلب أشكالا خاصة من المعالجة الفنية(٢١).

٧- الكاتب العراقى... عبد المجيد لطفى:

لقد بذلنا نحن الرواد محاولات جمة ومرهقة لكتابة قصص عراقية حديثة، لا فى أسلوب الأداء الفنى فحسب، بل فى الموضوعات والمشكلات المعقدة التى ظهرت فى ظروف ممارستنا لهذا النوع من الأدب، أى لمحاولتنا المخلصة والمتصلة لكتابة القصة بأسلوب حديث وبتقنية معاصرة، مع شىء آخر جدير بمكانة الريادة وهو أننا حاولنا أن نجعل من القصة عملا اجتماعيا وواجبا فكريا فى نضال جيلنا من أجل حياة أفضل وعدالة أشمل(٢٢).

٨- الناقد السورى..د. منذر عياش:

يقول بارت: «لا يوجد شعب لا فى الماضى ولا فى الحاضر، ولا فى أى مكان من غير قصة».

وإذا كان للقصة هذا الحضور، فإلى أى شىء يمكن أن نعزوه؟! أإلى مجرد الرغبة فى القص، أم إلى مجرد لهو بالكلام، أم إلى مجرد إشباع ميل نفسى؟ هل يمكن أن نعزو هذا إلى أن الشعوب تفعل ذلك لتسجيل أخبارها ووقائعها ، وتبرز مكامنها

ومايعتلج فى صدورها، ولتنقل إلى غيرها لونا من ألوان الكلام المعبرة عن روحها؟ربما يكون الأمر كذلك، ولعل هناك أسبابا أخرى كثيرة، وأسبابا ثالثة غير معروفة، فالإنسان مايزال لغزا، وإن العلم ليقف أمام أبواب سره المغلق حائرا، لكن الشيء الأكيد هوأن القصة نظام لغوى، يعكس من خلفه نظام ثقافة الأمة التى أبدعتها وحضارتها(٢٣).

خلاصة القول... فى مفهوم القصة القصيرة:

من المفاهيم .. والآراء السابقة يمكن أن ننتهى إلى أهم المبادئ الجمالية الخاصة بالقصة القصيرة:

١ـ القصة الحديثة تختلف اختلافا كبيرا عن القصة القديمة فى كل الآداب الإنسانية... ومنها الأدب العربى، لذلك فإن عمرها لا يكاد يتجاوز قرنين من الزمان.والمصطلح الأكثر شيوعا وثباتا هو القصة القصيرة... وليس أقصوصة؛ لأنها كلمة ثقيلة فى النطق... ولم تكن مستخدمة فى العصور القديمة.

٢ـ معظم النقاد ـ وأنا ..منهم ـ يرون أن القصة القصيرة والرواية ينتميان إلى جنس أدبى واحد، والفروق الفنية بينهما لا تنفى التقارب النوعى، وإنما تثبته، يؤكد ذلك:

أ- الظروف الاجتماعية والثقافية التى أدت إلى نشأة كل منهما واحدة ومتشابهة إلى حد بعيد.

ب - المصطلحات التى تطلق عليهما واحدة: القصة الطويلة - القصة القصيرة... وحتى مصطلح أقصوصة مشتق من الجذر اللغوى نفسه فى العربية.

وفى الإنجليزية - مثلا - ينتميان إلى فنون القص (Fiction)- أو السرد (Narration)، بل قد يستخدم مصطلح واحد للدلالة على كل منهما مثل قصة (Story).. وقصة قصيرة (Short Story)... أو قصة قصيرة جدا (Very Short Story).

ج - معظم الأدباء الذين يكتبون القصة القصيرة يمارسون كتابة الرواية فى الوقت نفسه.

٣- الاختصار والتكثيف أهم مبدأ جمالى فى تشكيل البنية السردية للقصة القصيرة.. فهى تعبر عن لحظة قصيرة.. بأسلوب مختصر... وتترك تأثيرا مركزا، وتؤدى إلى وحدة الانطباع الجمالى، لأنها فن أحادى الصوت.

ومعظم النقاد والكتاب الأمريكيين يُؤثرون أن تكون النهاية مفاجئة وغير متوقعة... وهذه سمة من سمات الإثارة التى تتميز بها الشخصية الأمريكية بصفة عامة.

ومعظم القصة القصيرة أقرب إلى أن يكون شخصية (رقمية) أو مسطحة، فكثير من الأعمال القصصية القصيرة لا تعنى - كثيرا - بوصف الشخصية وسبر أغوارها وذكر تاريخها أو حتى ذكر اسمها، لأن بنيتها مهتمة أكثر بسرد القضية الإنسانية، التى تكون الشخصية جزءا منها.

٥- عناصر القصة - نوعا أدبيا Genre - أقرب إلى الثبات من حيث المفهوم النظرى الذى يمثل نقاء النوع، لكنها عند الممارسة تختلف من كاتب لآخر، بل قد تختلف عند الكاتب الواحد من نص لآخر، على هذا فإن خصائص البنية التكوينية فى الأعمال القصصية أقرب إلى التمرد والتحرر.

٦- القصة القصيرة: تجربة أدبية... تصور لحظة عابرة... فى حياة (متخيلة) لشخصية مأزومة - أو .. مجموعة شخصيات - تعانى من مشكلة إنسانية لا تقدر على حلها ... خلال فترة زمانية محددة، وفى بيئة مكانية معروفة... وتستخدم (النثر) أداة للتعبير السردى.

الوظيفة الفنية:

ثمة تساؤل قد يبدو على قدر كبير من الأهمية حين نتحدث ـ بشكل نظرى ـ عن وظيفة القصة(أو.. غيرها من فنون القول)، هو: هل الماهية تحدد الوظيفة.. أم أن الوظيفة هى التى تحدد الماهية؟ الإجابة (واحدة) رغم تعارض السؤالين ظاهريا، لأن كلا من الماهية... والوظيفة بينهما تأثير وتأثر جدلى وتفاعل عضوى.

وظيفة القصة فى العصرالحديث: هى تحقيق قدر من المتعة الفنية عن طريق اكتشاف المجهول فى حياة الآخر... الذى هو فى الوقت نفسه أنا / القارئ / المتذوق، الذى يشتاق دوما إلى التعرف على لحظات القلق ومواقف التحدى، التى يتعرض لها بعض البشر، وكيف يتصرفون عندما يصادفون أزمة إنسانية لا يستطيعون التصدى لها.. ومواجهة قوى الشر/ الضد التى تحركها، وليس شرطا أن تصمد الشخصية المأزومة عند التحدى، يكفيها شرف المحاولة.

فلسفة القصة القصيرة تقوم على أن فى الحياة مواقف عارضة.ولحظات متجاورة، والإنسان داخل إطار عالم القصة المتخيل معرض فى أية لحظة زمانية أو بيئة مكانية ـ بالضرورة ـ لمواجهة مثل هذه المواقف وتلك اللحظات..وكم تكون اللذة الفنية

عميقة وعريضة لقارئ يتوق إلى اكتشاف الذات من خلال التعرف على الآخر، لأن «العالم الذى يؤثره كاتب القصة القصيرة يتألف من أشخاص مأزومين مثله، أو على حد تعبير القاص الناقد الأيرلندى فرانك أوكونور: جماعات من الشعب المغمور، أيا كانت هذه الجماعات فى وقت ما: صعاليك أو فنانين أو مثاليين، مستوحشين أو حالمين، أو قساوسة فاسدين، وقد يبدو هذا القول غريبا، وقد يبدو راجعا إلى القصة الروسية بالذات، حيث يسيطر جو الكآبة على فلاحى تورجنيف أو مثقفى تشيكوف. ولكن موباسان - علم القصة الفرنسية - لم يكن أقل كآبة،وإن غلف كآبته بأسلوب صارم فى موضوعيته، فقد كان له أيضا «شعبه المغمور» من الفلاحين النورمانديين وصغار البورجوازيين والعواهر،وهؤلاء لا يعطون صورة مشرقة للحياة...»[٢٤].

إن العرض القصصى أو الموضوع الأثير لدى كتاب القصة القصيرة - على وجه التحديد - هو تصوير لحظات القلق... ومواقف الأزمة - سواء فى حياتهم الخاصة أو فى حياة الشخصيات المتخيلة فى غرفات العالم القصصى وأكواخه. كل شىء حقيقى فى القصة.. إلا القصة نفسها، فالأزمة المصورة

حقيقية، لأنها تعكس هموم المجتمع، أما الشخصيات .والحدث.. والسرد والحوار... فهذا كله من تأليف الكاتب، الأديب.. فرد/إنسان عادى، لكنه عندما يستجيب لهاجس الإبداع، فإنه يصبح أمة فى عباءة فرد، لأنه يستوحى قضايا مجتمعه وأزمات واقعه، كأنما ينطبق عليه قول الشاعر العربى القديم:(٢٥)

وهل أنا إلا من غَزْيَة : إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد؟

معنى هذا أن القصة تشبع رغبة البشر فى (اكتشاف المجهول) سواء أكان ذلك المجهول فى عجائب الكون وغرائب الطبيعة أم فى اكتشاف العالم الداخلى لإنسان آخر، ذلكم السر ـ فيما أرى ـ هوالذى يدفع قارئا لقراءة عمل قصصى ضخم يتكون من مئات الصفحات، ويشتمل على أكثر من محور قصصى، وتتولد فيه حكاية تلو أخرى ـ مثل : «ألف ليلة وليلة» أو «الكوميديا الإنسانية » التى تتكون من عشرة أجزاء للكاتب الفرنسى إميل زولا، أو «الجريمة والعقاب» للكاتب الروسى دستويوفسكى..أو «الأديسة الجديدة» (عوليس) للكاتب الإنجليزى جيمس جويس..أو ثلاثية نجيب محفوظ.. أوغيرها من

الأعمال القصصية الخالدة - ذات الحجم الضخم..!!

من هذا المنطلق نفهم سر إقبال القراء على قراءة روايات وقصص الخيال العلمى (Science Fiction) إن الرغبة فى اكتشاف المجهول تشكل المثير أو الدافع النفسى - أولنقل باستخدام مصطلحات القصة - تشكل عنصر (التشويق) الذى يدفع القراء للدخول برفق وتوق إلى متابعة نص قصصى: بحثا عن الإمتاع النفسى والاستطلاع المعرفى فى آن واحد.

وإذا كانت الرغبة فى اكتشاف المجهول بالنسبة لغرائب الطبيعة وآفاق الخيال العلمى تمثل زاوية مهمة فى جذب القراء نحو فنون القص، فأهم من اكتشاف عناصر العالم الخارجى... هوالرغبة فى اكتشاف ملامح العالم الداخلى للإنسان. إن اكتشاف حقائق الكون وعجائب المخلوقات شىء عظيم... لكن ما هو أكثر عظمة وأكبر سعادة هو أن نكتشف كيف يفكر الآخر... وكيف يحرك مشاعره ويوجه سلوكه إزاء قضية إنسانية، لأننا نبحث عن أنفسنا فى الآخر... ونرى مصائب الناس حتى تهون علينا مصائبنا، يؤكد هذا أن المجال القصصى موجود بصور مكثفة فى الكتب السماوية كلها: فى القرآن الكريم: وفى العهد القديم. وفى العهد الجديد، فالله

سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون} (الأعراف ـ ١٧٦)

من هنا تحمل قراءة القصة الدينية دعوة(ضمنية) غير مباشرة للتأمل والتفكير.. فى الخالق العظيم..وفى الخلق العجيب، وقد وظفت الأديان السماوية كلها القصة.. باعتبارها وسيلة للعظة والاعتبار والهداية والإرشاد. وهذا إن دل على أمر فإنما يدل على أن الله ـ سبحانه ـ أعلم بطبيعة البشر، وأنه قص عليهم القصص ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، يقول عز من قائل: {يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (الأعراف ـ ٣٥)

ومن الطريف أن هذه الحقيقة ـ حقيقة تأثير القصص ـ وظيفيا ـ فى نفوس البشر قد فطن إليها بعض المشركين الذين كفروا وعصوا الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكتب السيرة النبوية تحدثنا أن النضر بن الحارث ـ وهو رجل مكى حكيم ومثقف ورحالة، وكان كثير السفر إلى بلاد فارس والحيرة ـ كان يعادى الرسول ويعارض دعوته، فكان الرسول فى بداية الدعوة إلى الإسلام يقف فى مكان ويدعو الناس إلى عبادة

الله... فإذا مضى الرسول جاء النضر من بعده، وقال للناس: «أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه، فهلموا إلى، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، وقصة رستم وإسفنديار، وكان على النضر أن يدفع ثمن ذلك يوم موقعة بدر بعد انتصار المسلمين، فكان أحد اثنين أمر النبى عليه السلام بقتلهما، ولم يعف عنهما ولم يقبل فيهما فداء»(٢٦).

القصة .. والقيم الأخلاقية:

ومادمنا قد تطرقنا إلى الأهمية الكبرى لوظيفة القص على المستوى الاجتماعى.. والدينى، فإن ذلك يدفعنا إلى الحديث عن علاقة القصة بالجانب الأخلاقى.. وإلى أى حد ينبغى على كاتب القصة أن يراعى (القيم الأخلاقية) والأعراف الموقرة لدى الجماعة التى يكتب عنها .. ولها ، إذ لا ريب أن ألفن كله يتضمن جانبا أخلاقيا، وليس هناك عمل أدبى جيد فى أية مرحلة دون أن يتحقق فيه بعد أخلاقى.

وهنا نشير إلى الفصل القيم الذى عقده «وين بوث» عن «أخلاقية السرد اللاشخصى».. ويذهب فيه إلى أن «السرد الموضوعى قد أثار مشكلات أخلاقية باستمرار إلى درجة أننى لا أستطيع أن أقول بأن الأسئلة الأخلاقية لاعلاقة لها بالتقنية. لقد

وجدنا أن الرؤيا الداخلية تستطيع أن تنشئ تعاطفا مع أكثر الشخوص شرا، عندما نستخدم هذه الرؤيا بشكل سليم فإن هذا التأثير يمكن أن يكون ذا قيمة لا تقدر فى إرغامنا على رؤية القيمة الإنسانية لشخصية كنا سنزدرى أفعالها لو اعتبرناها بموضوعية»(٢٧)... وينتهى إلى أن «معظم كتاب الرواية اليوم يشعرون باتصال وثيق بين الفن والأخلاق - بغض النظر عن القول الشائب فى الأخلاق»(٢٨).

كاتب القصة حين يبدع عمله بشكل فنى جيد، فإنه سيحقق - بالضرورة - قيمة أخلاقية، فالقاص - أحيانا - يصور شخصيات ضالة أو منحرفة أو انتهازية، لكن صدق تصوير النموذج البشرى لا يعنى أن الكاتب يقدمه لكى يكون قدوة لقرائه... وإنما من أجل أن يقدم لهم نموذجا مرفوضا.. وسلوكا غير أخلاقى، ينبغى أن نتعرف على الظروف التى وجهته هذه الوجهة، ونعمل على تحاشيها وتلافيها، من هنا تصبح القصة ذات وظيفة أخلاقية، حتى وهى تصور الشخصيات الساقطة أو المنحرفة، نقول هذا حتى لا يساء فهم أخلاقية الكتابة الجيدة... حتى وهى تصور الشر أو الانحراف، حيث إن الرؤية الواقعية الصادقة والكتابة الموضوعية والتقنية الفنية، تؤدى بالضرورة

إلى تقديم قصة جيدة فنيا.. وأخلاقية اجتماعيا فى آن واحد، لأن المضمون الأخلاقى لا يتعارض مع الشكل النموذجى للنوع الأدبى.

إننا حين نحرص على القول بأن كاتب القصة مهتم - بالضرورة - بالبعد الأخلاقى والجانبى القيمى، فإن هذا لا يعنى أن يلجأ إلى أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة المباشرة... وإنما نهدف إلى أمر أبعد من ذلك بكثير، وهو أن البعد الأخلاقى يمكن أن يشكل زاوية هامة فى بلاغة الفن القصصى.

وفى معرض الحديث عن علاقة الأدب بصفة عامة، والقصة - بصفة خاصة - بالجانب الأخلاقى.. نود أن نشير إلى أن (الاتجاه الأخلاقى) كان يمثل تيارا مهما فى النقد العربى القديم. «وإذا كان النقاد العقلانيون والفلاسفة أقرب من غيرهم فى ربط الشعر بغايات أخلاقية، ولم يغفلوا أهمية الصورة حتى لو جعلوها أحيانا فى خدمة تلك الغايات، فإن هناك فئة من النقاد والمهتمين بالشعر قد طغت على نقدهم النزعة التربوية، فغلب الاتجاه الأخلاقى التربوى على اتجاهاتهم النقدية»[٢٩].

ويلاحظ المتتبع لتاريخ النقد العربى القديم أن الدعوة إلى الاتجاه الأخلاقى فى الأدب لم تحجب الاتجاه الفنى وضرورة

العناية بالجانب البلاغي. «وقد تعارف النقاد منذ ابن سلام على أن الشعر صناعة، وأن جودته تكمن فى إتقان صنعته ومدى ما تحدثه من تأثير فى النفوس دون إغفال لقيمته المعرفية، إذ هى لحمته التى تقوم عليها صناعته»[٣٠].

من هنا فإنه ليس ثمة تعارض بين جماليات النص وحرصه على الجانب القيمي، يؤكد هذا إجماع معظم النقاد العرب على أهمية المعانى وتنبيههم كثيرا على خطأ المعانى وصوابها، وفسادها واستقامتها ، وغموضها ووضوحها، ووقوعهم تحت تأثير المعايير المثالية للشعر، إذ «كانت العرب ـ فيما يرى عبد العزيز الجرجانى ـ تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته..»[٣١].

ننتهى إلى أن القصة بطبيعتها التكوينية تعكس صورة صادقة للمجتمع الذى تعبر عنه.. وهى تعنى فى المقام الأول بأن تكون الصورة المنعكسة (واقعية) أى تصور الناس بماهم عليه ـ لا بما ينبغى أن يكونوا عليه بشكل مثالى، من أجل هذا كانت القصة ـ ولا تزال ـ أكثر فنون الإبداع الأدبى قربا من حياة

معظم الشرائح الاجتماعية: رجالا ونساء، شبابا وأطفالا، متعلمين وأميين ، مجددين ومحافظين، إن الفلسفة التى تحكم بناء القصة تجعل مضمونها يرفض التضخيم والانكماش ، ولا يميل إلى التهويم أو المبالغة... وإنما تصور الناس بصورة قريبة جدا إلى ما هم عليه فى الواقع، من هنا يرى كثير من القراء فى القصة نماذج بشرية ، تدعو إلى التعاطف معها: قبولا أو رفضا، وقد تنشأ بين القارئ وشخصيات بعض القصص ألفة حميمة، فكأنما أصبحوا جزءا من عالم القارئ نفسه، وذكر الأمثلة الدالة على أن بعض الشخصيات القصصية قد صارت جزءا من معارف القراء، ويستشهدون بأسمائهم فى بعض مواقفهم الاجتماعية - يصعب حصر نماذجها من الحكايات والقصص والروايات ، مثل : شهرزاد... وشهريار فى حكايات «ألف ليلة وليلة».. وشخصية أحمد المنيكلى باشا فى «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى.. وزينب فى رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل، وسنية فى رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم... وعبد الهادى فى رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوى... وعزيزة فى رواية «الحرام» ليوسف إدريس.. وأحمد عبد الجواد وأمينة فى «ثلاثية نجيب محفوظ».. وحسن الشاعر فى رواية «عصر

الليمون» لطه وادي... وعتريس وفؤادة في رواية «شيء من الخوف» لثروت أباظة.. إلخ.

كل ماسبق أن ذكرناه يؤكد أهمية وظيفة فنون القص قديما وحديثا ويوضح أن القصة (غذاء ثقافي) هام لمعظم فئات الشعب في كل المجتمعات الإنسانية، إذ «لا يوجد شعب لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا في أي مكان من غير قصة» ـ كما يقول رولان بارت»[٣٢].

القصة إذن ذات وظيفة أساسية اجتماعية وفنية لدى كل الشعوب في الماضي وفي الحاضر.. بل في المستقبل أيضا ، لأن القصة... هي «واجهة الشعوب ومرآتها، وهي المكتوب الذي يصور أدق سماتها وخصائصها، وهي أيضا تلك اللوحة الناطقة التي يرى فيها الإنسان رسم انعتاق الذات من أحاديتها، وتحررها من فرديتها، وانعتاقها من سجن رؤيتها الضيقة، ودخولها إلى رحاب تعدديتها ومطلقها، وإذا كان الإنسان يرى في القصة هذا، فلأنها مثال حي على انفتاح «الأنا» فنا، ودخولها إبداعا في حوار مع «الأنت» الذي يتمثل في الآخر.. الآخر البعيد... القريب... الحاضر.. الغائب... المتزامن تاريخيا... الآني حضورا.. والآتي مستقبلا ، وبكل اللغات، وفي

كل الأوطان»[٣٣].

القصة - إذن - ذات وظيفة معرفية وجمالية لدى الإنسان طوال عصور التاريخ، فالقصة .. «أقدم مظهر من مظاهر التاريخ» وأول صورة للإنسانية فى طفولتها ، فهى صدى للخوف والاضطراب. القصة مرآة الطفولة وصورة الحياة، هكذا كانت، وهكذا هى، وستكون القصة هى هذا الضرب من الأدب الذى يعنى بالنفس البشرية ويعرضها لنا كما هى على سجيتها، وكما عرفتها الحياة، لذلك لم يخل أدب من آداب العالم منها... لذلك فهى فصل ممتع من سفرتاريخ البشرية، كما أنها مظهر من مظاهر الخيال الذى لابد من توافره فى الشعر والنثر»[٣٤]. فالقصة لها وظيفة أساسية فى كل العصور والآداب.. بل إن هذه الوظيفة أكثر أهمية من الوظيفة التى يقوم بها الشعر فى القديم والحديث.

القصة بين المثال النظرى.. والنموذج التطبيقى

نقدم فى هذا الجزء من الدراسة بعض القضايا النقدية التى تتصل بعملية السرد القصصى على المستويين: النظرى والتطبيقى، ونود فى هذا السياق أن نشير إلى أننا قد أفدنا فى تقديم هذه الرؤية النقدة من جهود البنيوية الشكلية، وإسهامات

نقـادها المتـمـيـزة فى مـجـال علم السـرد... أو السـرديات (Narratology)، وبخـاصــة الناقـدين الفـرنسـيين (رولان بارت، وجيرار جينيت)، ومن جهود الناقد الأمريكى (وين بوث)، وكذلك من بعض اجتهادات النقد الاجتماعى والجمالى، الذى يدخل فى إطار ما يسمى بالنقد التقليدى.. أو الفنى لجماليات القص. بل إن الأمر لم يقتصر على هذا.. وذاك فحسب، وإنما حاولت فى بعض النقاط أن أقدم اجتهادى الخاص : ناقدا ومبدعا للقصة، وعلى هذا فإن الرؤية النقدية هنا أقرب إلى (شمولية) المنهج وتوفيقية الآراء، أملا فى أن تصل الفكرة إلى أكبر عدد من الدارسين والقراء.

ذكرنا فى معرض الحديث عن الماهية أن فنون القص تنتمى إلى جنس أدبي واحـد، وأن هذا الجنس الذى تولد عن الموقف الملحمى قد يتداخل - أحيانا - مع الموقف الدرامى الخاص بالمسرح، والموقف الغنائى الخاص بالشعر، لكن رغم وجود قدر من التشابه بين الأنواع الأدبية - باعتبارها نتاجا معرفيا ثقافيا.. ينتمى إلى (فنون القول)، وتستخدم (اللغة) وسيلة للتفكير وأداة للتعبير ونهج التفسير - رغم ذلك فإن بسماته المتميزة.. وخصائصه الفارقة، التى تضع حدودا فاصلة للمبدع

والمتذوق والناقد بين كل منها على حدة، بحيث لا نقدر على وصف عمل بأنه قصة، وهو فى جوهره مسرحية، وكذلك لا نطلق على نص أنه قصيدة.. وهو غيرذلك، من هنا وجدت ضرورة معرفية لدى النقاد وفلاسفة علم الجمال الأدبى إلى تحديد ما يمكن أن يسمى العناصر الجامعة المانعة لكل نوع أدبى.. فى شكله المثالى المجرد. «وإذا كانت قصص العالم كثيرة ـ كما يرى بارت ـ فلنا أن نتساءل معه: كيف يمكن أن نؤسس حقنا فى تمييزها وفى معرفتها؟»[٣٥].

وهنا يفرق بارت بين (البنية السردية) فى شكلها المثالى المجرد، وبين (النموذج المتحقق) عند هذا الكاتب أو ذاك، إذ «إنه لا يستطيع أحد أن يدرس قصة من غير أن يرجع إلى النسق الداخلى للوحدات والقواعد التى أنتجتها وعملت على بنائها ، وهنا تأتى أهمية البحث عن البنية بالنسبة إلى الباحث والدارس.. وفى رأى بارت أيضا أنه لا يمكن للباحث أن يصف القصص اللامتناهية أو يصنفها ما لم يقبض على نظرية.. ويلتزم منذ البداية بنمط يمنحها مصطلحاتها الأولى وأولى مبادئها»[٣٦].

ويرى بارت كذلك أن المنهج الاستقرائى يعجز عن تحديد

خصائص النوع، لأن ذلك يقتضى متابعة كل ما كتب من قصص فى العالم... وهذه عملية عصية التحقيق، من هنا لجأ إلى المنهج الاستنباطى، الذى ينتقل من العام إلى الأكثر خصوصية، ومن النوع إلى مكوناته، فالباحث أمام الكثرة الكثيرة من القصص مضطر إلى أن يبتكر (نموذجا افتراضيا) للوصف، يسميه اللسانيون الأمريكيون «نظرية»(٣٧).

دارس القصة – إذن – مطالب بأن يتعرف على خصائص النوع.. أو المثال المفترض (نظريا)، الذى ينبغى أن يضم الخصائص الجامعة(لكل القصص) والمانعة (لغير ما هو قصص) ، حتى يتعرف الدارس على النوع فى شكله المثالى المطلق.

هذا أمر .. وهناك أمر آخر مختلف ـ إلى حد ما ـ وهو (التطبيق) الفعلى للمثال المفترض على النموذج المتحقق، لأن كل نص أدبى يعد (نموذجا) له خصوصيته الفردية، «فالقصة القصيرة هى التى تملى الطول المناسب لها، كما تملى شكلها الخاص، حتى أننا يمكن أن نقول إن كل قصة قصيرة فنية هى تجربة جديدة فى التكنيك»(٣٨).

انطلاقا من هذا الفهم سوف نحاول أن نتحدث عن عناصر

تشكيل القصة القصيرة : بنية ونموذجا ، نظرا وتطبيقا، إننا نعني - في المقـــام - برسم الإطار النظرى للبنيـــة، وعلى من يتصدى للدرس التطبيقى أن يلحظ (الفروق الفردية) لكل كاتب عند استخدامه لأى من عناصر تشكيل البنية السردية، فالكتاب يختلفون بحسب موضوع الإحساس الذى يعبرون عنه... وبحسب الثقافة الأدبية... وحجم الموهبة التى وهبها الله لكل منهم.

وعلى هذا فإن الفروق الفنية بين الكتاب لا حصر لها، بل إن كل مجموعة .. أو نص عند الكاتب الواحد، قد تختلف اختلافا واضحا عما سبقها أو تلاها من إبداع القاص نفسه.

لغة القصة [٣٩]:

الحديث عن لغة القصة - فى جوهره - حديث عن كل شىء فى القصـــة، لأنها الرحم الذى تولد فى داخله الوظائف الســردية والدلالات الفنية التى توحى بها بنية القص، وتقف اللسانيات - كما يرى بارت - « عند حدود الجملة، فهى تعتبر أن الجملة الوحدة الأخيرة، وأن الانشغال بها حق من حقوقها ، فالجملة نظام وليست سلسلة من الكلمات، ومادامت هكذا فإنها تمثل وحدة أصيلة. وأما العبارة فهى سلسلة من الجمل التى تكونها،

ولذا فإن الخطاب لا يتضمن شيئا إلا ويوجد فى الجملة، وهذا لا يغنى أن اللسانيات لا تستطيع أن تعطى لنفسها موضوعا يعلو على الجملة، لأنها لا ترى فيما وراء الجملة سوى جمل أخرى... ومع ذلك فإن الخطاب (مجموعة من الجمل) منظم، وهذا بديهى، وإنه ليبدو بهذا التنظيم رسالة للغة، تعلو على لغة اللسانين (علماء اللغة).

وليست اللغة العامة للقصة سوى لهجات مقدمة للسانيات الخطاب، وهى «تخضع بالتالى لفرضيات التجانس، فالقصة تشارك بنيويا فى الجملة، ولكنها لا تستطيع مطلقا أن تختزل نفسها إلى مجموعة من الجمل: القصة (جملة كبيرة) شأنها شأن أى جملة إثباتية. وإن هذه لتعتبر خطاطة لقصة بشكل ما، وقد نجد أن الفئات الرئيسة فى القصة تكبر وتتحول بما يناسب القصة، هذا على الرغم من أنها تمتلك فيها دوالا أصلية (معقدة غالبا) : الأزمنة، المظاهر،الصيغ، الأشخاص، ونضيف إلى ذلك أن الفواعل (الشخصيات) نفسها فى تعارضها مع الإسنادات الفعلية، لا تترك مجالا للخضوع إلى نموذج من نماذج الجملة. وإن نظام نمذجة الفواعل الذى اقترحه غريماس ليجد فى تعددية شخصيات القصة الوظائف الأولية للتحليل القاعدى، ولهذا فإن

التجانس الذى نقترحه هنا - ليس له قيمة كشفية فقط : إنه يتطلب وحدة الهوية بين اللغة والأدب.. لأنه لم يعد من الممكن تصور الأدب فنا يهمل العلاقات باللغة من كل جهة، وخاصة بعد أن يكون قد استخدمها استخدام الأدوات في التعبير عن الفكرة، والانفعال أو الجمال. فاللغة لا تكف عن مصاحبة الخطاب، وهى تعرض عليه مرآة بنيتها الخاصة، ألا يصنع الأدب ـ وخاصة اليوم ـ لغة من شروط اللغة نفسها؟»[٤٠].

القصة إذن ـ كما يرى بارت وباختين وجنيت وغيرهم من نقاد البنيوية الشكلية ـ خطاب لغوى. ويمكن أن نعد القصة كلها (جملة) تتكون من :

فعل(حدث) + فاعل (الشخصية) + مفعول فيه (ظرفا زمان .. ومكان) + مفعول به (المروى له... سواء داخل النص أو خارجه)

ويسمى هذا التفسير : نحو القصة، فالقصة ـ أية قصة ـ تقوم على بنية تتكرر فى كل نص، ومعنى هذا أن بنية الجملة مماثلة لحبكة القصة، وهذا يفضى إلى ضرورة البحث عن مجموعة من المبادئ - مشاكلة لقواعد النحو - يتكون منها نموذج القصة. و«نحو القصة» - الذى يدعو إليه نقاد البنيوية لا

يقتصر على لغة معينة، وإنما هو (نحو عالمى)، تستند إليه كل اللغات البشرية.هكذا يحاول البنيويون الشكليون الربط بين حبكة القصة وقواعد النحو.. وهذه مقولة علمية ونظرية حاسمة فى تفسير بنية النموذج السردى، وتلك محاولة موضوعية لتجاوز صعوبة تكوين الخطاب القصصى، لأنه ـ فى تقديرى ـ خطاب (معقد) على مستوى الأسلوب... أوالتركيب، فالقصة/ الجملة... لا تتكون من نمط أسلوبى متناغم مثل الشعر أو المسرح، فالقصيدة تتشكل لغويا من أبيات موزونة أو عبارات ذات إيقاع موسيقى متكرر، وتصدر عن مستوى واحد أو صوت واحد، هو صوت الشاعر المتكلم، كذلك الحال بالنسبة لأسلوب المسرحية فإنها تتكون – من أول كلمة إلى آخر كلمة ـ من لغة حوارية، تعتمد على الخطاب مع الآخر.. أو مع النفس أحيانا، لكن الأسلوب كله حوار موجه إلى مرسل إليه مستمع ومتلق – بالفعل أو بالقوة، بيد أن الأسلوب القصصى ليس بمثل هذا التناغم، إنه يتكون من عدة مستويات.. أو طرائق لغوية، من هنا فإن الخطاب السردى ينبثق عنه ثلاثة مستويات لغوية مختلفة:

الأول: الوصف الإنشائى: الذى يقدم من منظور الراوى.. أو المؤلف الضمنى، وهو يصور – داخل المتن – مسيرة الحدث،

وملامح الشخصيات ، وهيئة الفضاء المكانى، ومدى التوافق بين مسيرة الحدث وصيرورة الزمان، على أساس أن القصة فن(زمانى) أى يتشكل فى إطار تعاقب مسيرة عناصر الحدث حالة كونه مواكبا لزمان القص.

وهذا المستوى من عناصر الخطاب الروائى يصاغ دائما فى صياغة فصيحة، بل ربما حاول بعض الكتاب إضفاء قدر من الشاعرية عليه، لأن القاص – أولا وأخيرا – أديب... مطالب بأن يثبت قدرة فنية على صياغة الأسلوب ، ومهارة إبداعية فى توظيف عناصر البلاغة.

الثانى: الحوار مع الآخر – (Dialogue): وهذا العنصر يقدم (صيغا) لغوية مختلفة، تبعا لتباين شخصيات العالم القصصى المتخيل، وهنا ينبغى أن تتسق الصيغ اللغوية – مبنى ومعنى – مع قدرات الشخصية المتحاورة، فكلام الرجل يختلف عن كلام المرأة أو الطفل، بل إن حديث الرجل الخير يختلف عن حديث الرجل الشرير، والجمل التى يمكن أن تنطق بها الفتاة العذراء غيرالجمل التى يمكن أن ترددها المرأة البرزة التى خبرت الحياة، وتعاملت مع الأحياء.

هذا المستوى من الأسلوب اللغوى: النقاد والأدباء على قدر

من الخلاف الجوهرى فيه، فالبعض يرى أنه ينبغى أن يكون بـ (العامية) ، حتى يوهم بالواقع ويلغى المسافة بين النمط البشرى والنموذج الفنى، فالفلاح والعامل كيف يتحدثان - فى إطار المتن القصصى - بالفصحى... وهما فى واقع الحياة أميان لايعرفان القراءة والكتابة. وهذا - فى تقديرى - ادعاء ساذج للإيهام بالواقعية، لأننى حين أقرأ القصة أطالع تجربة أدبية (متخيلة).. ولست أتجول فى حارة شعبية أو فى حقل ريفى. كما أن المهم فى اللغة ليس كونها فصحى أو عامية، وإنما المهم هو الإطار الدلالى الذى توحى به، أنا لست ضد استخدام العامية - خاصة المستوى الذى نسميه (عامية المثقفين) - فى الحوار القصصى، لكنى غير متعاطف مع هذا الاتجاه، وأرى أن الحوار ينبغى أن يكون بـ (الفصحى الميسرة)، لأن المسافة واسعة بين العاميات العربية، وقد عانيت أنا شخصيا من قراءة بعض النماذج من كتابات بعض أدباء المغرب والسودان واليمن - على سبيل المثال، الفصحى... هى الإطار المرجعى لكل ما نود طرحه من معان وقيم. وإذا كان الفنان التشكيلى ينحت فى صخر صلب غير متناسق، حتى يخرج تمثالا فنيا بديع الصنع، فهل يعجز الكاتب الحق عن أى يقدم صياغة لغوية جميلة، لأى عنصر من

عناصر خطابه القصصى..؟!

الثالث: الحوار مع الذات (Monologue): وهو نوع من الكلام (الصامت) تحدث به الشخصية نفسها، وتناجى ذاتها فى موقف من المواقف المعقدة فى حياتها القصصية. وهذا مبدأ أساسى فى الحياة... وفى عالم السرد ، فنحن لا نستطيع أن نفكر - فرادى أو مجتمعين - إلا بـ (اللغة) ، فاللغة أداة التعبير عن الفكر، والنطق يدل على منطق المتكلم وفلسفته، وقديما قال أفلاطون: حدثنى حتى أراك، وقال شاعر قديم مؤكدا علاقة اللغة بالفكر أو العقل:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل الكلام على الفؤاد دليلا

وهذا العنصر الثالث من عناصر الخطاب القصصى يتم فى التجارب القصصية العربية كلها - تقريبا - بالفصحى.

تلك هى المستويات الأسلوبية الثلاثة، التي يتكون منها الخطاب القصصى، والتى تختلف - بحكم الضرورة الإبداعية والوظيفة التعبيرية - طبيعة كل منها عن الآخر، وربما كان هذا التباين من أهم أسباب (صعوبة تحليل الخطاب القصصى) تحليلا لغويا على مستوى (التركيب) ، نظرا لأن أسلوب القصة يتشكل من عدة مستويات تعبيرية مختلفة[٤١].

إن اللغة هى التى تصنع القصة - أو أى نوع أدبى آخر، لذلك يحذر الناقد الأمريكي ألبرت كوك من التهاون فى أمر لغة الفن القصصى: «ولعل عدم امتلاك ناصية اللغة يوقع الروائى فى خطر، وسحر الكلمات له تأثيره فى الرواية..إن الراية مرآة تواكب واقع الحياة الصعب وتوصله إلينا، ففى كل نقطة من الرواية وفى كل جملة، نجد وضوحا يشبه وضوح المرآة يرجع فى جزء منه إلى استخدام الحديث العادى الذى يقيم كل روائى عليه أسلوبه تقريبا، ولكن حتى إذا قلنا إن جين أوستن وبروست يفعلان باللغة أكثر من مجرد السمو بحديث الأذكياء من البشر، فإن أسلوبيهما أقل تكلفا من أسلوب أفلاطون وميلتون ، وهذا ما ينبغى أن تكون عليه اللغة القصصية من وضوح ، يقوم - فى الغالب - على وصف الواقع المتحرك الذى يسمح بتصويره قدر الإمكان »[٤٢].

إننى أؤمن إيمانا راسخا بأن أسلوب القصة لابد أن يشتمل على ومضات بلاغية، تتجاوز اللفظ إلى المعنى، وتتعدى الشكل إلى المضمون ، وكاتب القصة يدفع ثمنا باهظا إذا لم يكن يدرك كيفية توظيف الكلمات، حتى تشكل (جملة قصصية) كبرى، هى لحمة النص وسداه، فأسلوب القصة أسلوب (معقد)، يتركب من

مستويات عدة، وكل مستوى منها، ينبغى أن يكون مشبعا بالدلالة، معطرا بأريج الفصحى فى العبارة، حتى تستطيع أن تنتقل من مستويات التركيب إلى مستويات المعنى ووظائف الدلالة. «والوظائف لا معنى لها إلا إذا أخذت مكانا فى الفعل العام للفاعل. ويتلقى الفعل نفسه معناه الأخير من كونه حدثا مسرودا، أسند إلى خطاب له قانونه الخاص»(٤٣).

التناص - Inter texuality :

فى سياق الحديث عن منهج البنيوية الشكلية ومنهج الأسلوبية ترد فكرة الإلحاح على (لغوية) النص الأدبى، وقد سبقتهما فى ذلك الاتجاه جهود الشكلانيين الروس، وهذه الجهود كلها تعنى بالتركيز على لغة النص والحد من الاهتمام بالمؤلف.. ورددوا مقولتهم الشهيرة: «مات المؤلف... يحيا النص». ومن أهم النقاد المعاصرين الذين عنوا بهذه القضية: ميخائيل باختين فى كتابه «الخطاب الروائى» والناقدة الفرنسية جوليا كريستيفا فى كتابها «علم النص» والناقد الفرنسى رولان بارت. «والمبدأ المشترك بين هؤلاء النقاد جميعا هو أن بعض النصوص الحديثة تشير إلى نصوص أخرى، مثلما أن العلامات تشير إلى علامات أخرى، وليس إلى الأشياء نفسها على نحو

مباشر، والفنان يكتب أو يرسم من الطبيعة، ولكن من طرائق من سبقوه فى تحويل الطبيعة إلى نص، أو جعل الطبيعة نصا»[٤٤].

مفهوم التناص إذن يشير إلى أن هناك صلات قوية تربط النص الجديد ببعض النصوص القديمة أوالمعاصرة، إن النص خطاب لغوى، لكنه قد يحيل بالضرورة إلى نصوص أخرى، من هنا يصبح النص انعكاسا عن (ثقافة جماعة) .. وليس تعبيرا عن إبداع فرد، وتحاور النص الجديد مع النصوص القديمة - سواء أكانت تنتمى إلى النوع مباشرة... أم إلى معارف إنسانية أخرى - يعنى أن تراث الجماعة لايزال حيا ومؤثرا... وقادرا على إخصاب أعمال إبداعية جديدة، العمل الأدبى إذن لا يمكن فهمه (منعزلا) عن السياق الثقافى الذى يولد فى رحمه، وينصهر فى بوتقته، ونود التأكيد على أن النقاد المعاصرين يرون أن إحالة نص إلى نصوص أخرى، لابد أن تتم عبر القرائن اللغوية والظواهر الأسلوبية.

وإذا كان التناص يعكس مدى اتساع وعمق ثقافة الأديب، فإنه يفرض على الناقد أن يكون على معرفة قوية بقضايا تاريخ الأدب الذى يمارس دوره التفسيرى من خلاله، بل إنه يفرض عليه أن يكون شمولى الثقافة والمعرفة، حتى يستطيع أن يقبض

على القرائن اللغوية، التى تربط التناص الجديد بالمتناص السابق، لأن الوعى الثقافى هوالذى يساعد على فهم العلاقة التبادلية بين النصوص.

وهذه النظرة النقدية الجديدة فى دراسة النص الأدبى من منظور لغوى، تعد خطوة إيجابية فى مجال دراسة النص دراسة لغوية/ موضوعية، حيث إن التناص يهتم بالبحث عن (الشفرة) التى تربط بين النص والنصوص الأخرى التى تستدعيها الذاكرة عند القراءة.

وفى نهاية حديثنا المختصر - عن التناص - نود أن نشير إلى ملاحظتين:

الأولى: إن فكرة التناص ليست مبدأ نقديا جديدا، فقد سبق أن عالجها التراث النقدى العربى تحت مسميات مختلفة مثل: الموازنة بين الشعراء... والسرقات الأدبية، وكانت تحمل مصطلح .«اقتباس» أو.. «تضمين». وهذا يشى بفكرة محزنة... وهو الانقطاع المعرفى بين الماضى والحاضر، إذ لم يحاول أحد من النقاد العرب فى العصر الحديث أن يطور قضية «السرقات الأدبية» بمثل ما فعل النقاد الغربيون ولاسيما المعاصرين منهم، خاصة وأن بعض النقاد القدماء الذين تناولوا هذه القضية

فصلوا فيها بشكل واسع ومدقق، فابن رشيق القيروانى(٣٩٠ - ٤٥٦هـ) - على سبيل المثال - يفرد لها بابا واسعا تحت عنوان «باب السرقات وما شاكلها».. يقول فيه: «وهذا باب متسع جدا، لايقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل، وقد أتى الحاتمى فى «حلية المحاضرة» بألقاب محدثة، تدبرتها ، ليس لها محصول إذا حققت ... وقال الجرجاني: ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علما برتبه ومنازله، فتفصل بين السرق والغصب، وبين الإعارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه، والمبتذل الذى ليس واحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فملكه واجتباه السابق فاقتطعه.

قال عبد الكريم: قالوا: السرق فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد فى أخذه ، على أن من الناس من بعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرئ القيس وطرفة حين لم يختلفا إلا فى القافية... ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ والمعنى، ويكون الغامض

عندهم بمنزلة الظاهر وهم قليل».

وبعد أن يتحدث عن طبيعة السرقة وأنواعها ، والمصطلحات المختلفة التى تطلق عليها ... يورد أمثلة شعرية على كل منها، ثم يختم الكلام بقوله:« غير أن المتتبع (اللاحق) إذا تناول معنى فأجاده: بأن يختصره إن كان طويلا، أو يبسطه إن كان كزا، أو يبينه إن كان غامضا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا، أو رشيق الوزن إن كان جافيا - فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك إن قلبه وصرفه عن وجه إلى وجه آخر..»(٤٥).

ومعظم النقاد العرب الذين وقفوا موقفا حادا من «السرقات الأدبية» كانوا ينطلقون من منظور أخلاقى فى النقد.

هكذا أدرك النقاد القدماء ظاهرة التعالق النصى، لكن نقادنا المحدثين لم يطوروها. ويجب أن ندرك أن تغير المصطلح من الاقتباس... والتضمين إلى «التناص» ليس مجرد وضع كلمة مكان أخرى... وإنما التناص يقتضى دراسة لغوية/ تشريحية لبيان الروابط المشتركة بين النصوص .. بقرائن لغوية سواء عن طريق التشابه والائتلاف أو عن طريق التعارض والاختلاف، لأن معارضة نص قديم - على مستوى التركيب أو الدلالة - تدخل أيضا فى موضوع التناص.

الملاحظة الأخرى: تتعلق بحفاوة كثير من النصوص القصصية المعاصرة بظاهرة (التناص) : إن كثيرا من كتاب القصة المعاصرين يطمحون إلى تقديم نموذج قصصى جديد، يجمع بين أواصر الأنواع التراثية القديمة فى مجال القص الفصيح والشعبى، ومظاهر الشكل الأوروبى الوافد ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وقد فتحت هذه النماذج القصصية الباب واسعا أمام قضية التناص. وهذا الانفتاح على التراث نجده عند كثير من كتاب القصة فى معظم الأقطار العربية، حيث أصبحت كثير من النصوص القصصية محملة بكثير من عناصر التراث: فهناك تناص التراث الدينى (القرآن الكريم والحديث النبوى) ومن الحكايات الشعبية.. ومن التاريخ العربى... ومن الشعر الفصيح... ومن الأمثال والحكم...، ومن المواويل والأغانى... وبعض العبارات الاصطلاحية ، التى تعود إلى روافد ثقافية متنوعة فى التراث العربى، بل إن هناك من يستلهم بعض النصوص الفرعونية أو الأسطورية القديمة، وبعض إشارات ورموز من العهدين: القديم والجديد.

وهنا نستطيع القول بأن التناص فى النصوص القصصية القصيرة المعاصرة ينقسم قسمين كبيرين:

القسم الأول: تناص جزئىّ على مستوى العبارة: حيث يضمن الكاتب النص الجديد بآية قرآنية... أو حديث نبوى.. أو ببعض عبارات مأثورة من التوراة أو الأناجيل المسيحية... أو بعض أبيات من الشعر... أو بعض الحكم والأمثال.. أو بعض المواويل والأغانى .. إلخ، والذى لاريب فيه أن التناص يغذى العمل الإبداعى، ويخصبه بدلالات جديدة، بالإضافة إلى أنه مظهر قوى من مظاهر حيوية تراث الأمة، وأن ثقافة الخلف مرتبطة بجذور السلف برباط فكرى متين، يجعل تاريخ الأمة الثقافى نهرا فياضا متواصل الموجات ومترابط الحلقات.

القسم الثانى: تناص كلى على مستوى البنية: حيث يستعير الكاتب ... شكل الحدوتة الشعبية... أو طريقة الخبر التاريخى.. أو شكل المخطوط المحقق... أو إطار قصة دينية أو تاريخية... أو إطار المقامة... أو يستلهم سيرة شخصية تاريخية أو دينية... أو مضمون أسطورة فرعونية أو عربية قديمة.

وهذا التناص على مستوييه: الجزئى والكلى - يعد (ظاهرة) فنية بارزة.. ويعد علامة من علامات تميز النموذج القصصى العربى المعاصر، وهو الذى يمنح النتاج القصصى بصمته القومية وهويته العربية.

الهوامش

(١) القصة القديمة فى مجملها كانت مرتبطة - إلى حد ما - بالتاريخ الحقيقى أو المتخيل ، يؤكد هذا أن كلمة قصة العربية تعنى قص الأثر وتتبعه، وفى الإنجليزية نجد علاقة لغوية بين كلمتى (History) بمعنى تاريخ، وكلمة .(Story)بمعنى قصة.

(٢) رينيه ويلك - أوستن وارين: نظرية الأدب، ت/ محيى الدين صبحى، ط/ المؤسسة العربية، بيروت، الثانية، ١٩٨١ ، ص ٢٢٨.

(٣) كارل فيتور... وآخرون : نظرية الأجناس الأدبية، ت/ عبد العزيز شبيل، نادى جدة الثقافى ، جدة ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م، ص ٣١.

(٤) راجع: نظرية الأدب، ص ٢٣٩.

- طه وادى: دراسات فى نقد الرواية، ص ١٠.

(٥)نظرية الأجناس الأدبية ، ص ٥٥.

(٦) انظر: رينيه ويلك: مفاهيم نقدية، ت/د. محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧، ص ٢٧٦.

(٧)عبد الرحيم الكردى: البنية السردية للقصة القصيرة، ط/دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٤.

(٨)رشاد رشدى: فن القصة القصيرة، ص ٨ - ١٠.

(٩) القصة القصيرة ، ت/د. منى مؤنس، ص ٩ـ١٥ ـ١٧.

(١٠) فرانك أوكونور: الصوت المنفرد، ترجمة د. محمود الربيعى ، ط/ البيئة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩. ص ١٦.

(١١) أيان رايد: القصة القصيرة، ص ٨٩.

(١٢) البنية السردية للقصة القصيرة، ص ١١٠.

(١٣) ولسن ثورنلى: كتابة القصة القصيرة، ت/د.مانع الجهنى، نادى جدة، الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م، ص ٢٠.

(١٤) وين بوث: بلاغة الفن القصصى، د/د. أحمد عردات، د. على الغامدى، ط/ مركز بحوث جامعة الملك سعود، الرياض، ص ٢٦.

(١٥) أيان رايد: القصة القصيرة ، ترجمة د. منى مؤنس، ط/ الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٥.

(١٦) شكرى عياد: القصة القصيرة فى مصر ، ط/دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٩، ص٤ـ٣١ـ٤٧.

(١٧) الطاهر مكي: القصة القصيرة، ط/دارالمعارف، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٩٨.

(١٨) دراسات فى نقد الراية، ط/ دار المعارف، القاهرة ، الثالثة، ١٩٩٤، ص٢٠.

(١٩) إدوار الخراط: مختارات من القصة القصيرة فى السبعينيات، ط/القاهرة، القاهرة ، ١٩٨٢، ص٤.

(٢٠) أحمد المينى: فن القصة القصيرة فى المغرب، ط/دار العودة ، بيروت، ص٣٤.

(٢١) عبد الرحيم الكردى: البنية السردية للقصة القصيرة، ط/دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٠٥.

(٢٢) دائرة الشؤون الثقافية: ملتقى القصة الأول ، ط//دار الرشيد ، ١٩٧٨، ص٢٧.

(٢٣) رولان بارت: مدخل إلى التحليل البنيوى للقصص، ت/د.منذر عياش، ط/ نادى جيزان الأدبى، السعودية، ١٤١٤، ص٥.

(٢٤) شكرى عياد: القصة القصيرة فى مصر، ص ٤٩.

(٢٥) هذا البيت للشاعر الجاهلى المعروف... دريد بن الصمة، غزية: قبيلة الشاعر.

(٢٦) الطاهر مكى: القصية القصيرة، ص ٢٥.

(٢٧) بلاغة لفن القصصى، ص ٤٣٧.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٤٤٤.

(٢٩) د. محمد الحارثى: الاتجاه الأخلاقى فى النقد العربى، ط/ نادى مكة الثقافى، مكة ١٤٠٩هـ =١٩٨٩م، ص ٩١.

(٣٠) السابق، ص ١١٠.

(٣١) السابق، ص ١٣٠.

(٣٢) مدخل إلى التحليل البنيوى، ص ٥.

(٣٣) السابق، ص ٦.

(٣٤) فؤاد حسنين على: قصصنا الشعبى، ط قصور الثقافة، القاهرة الثانية، ١٩٩٨، ص ١١

(٣٥) مدخل إلى التحليل البنيوى، ص ٧.

(٣٦) السابق، ص ١٢، ١٩.

(٣٧) أنظر السابق ، ص ١٨.

(٣٨) القصة لقصيرة في مصر ، ص ٤٧.

(٣٩) لمزيد من التفصيل يراجع :

- رولان بارت : مدخل إلى التحليل البنيوى للقصص.

- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائى، ط/ المركز الثقافى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٩.

- حسن بحراوى: بنية الشكل الروائى، ط/ المركز الثقافى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٠.

- وين بوث: بلاغة الفن القصصى.

- تودروف، تزفيتان: الشعرية، ت/ شكرى المبخوت ورجاء سلامة ، ط/ توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٧.

- جيرار جينيت وآخرون: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ت، د/ مصطفى ناجى، ط/الحوار الأكاديمى ، الدار البيضاء، ١٩٧٩.

- رينيه ويلك، أوستن وارين: نظرية الأدب، ط/ المؤسسة العربية، بيروت، الثانية، ١٩٨١.

- سان سوميخ: لغة القصة فى أدب يوسف إدريس، ط/ جامعة تل أبيب، ١٩٨٤.

- طه وادى: دراسات فى نقد الرواية . الرواية السياسية.

(٤٠) انظر... مدخل إلى التحليل البنيوى، ص ٣٨.

(٤١)انظر.. دراسات في نقد الرواية، ص ٤٤ ـ ٤٨.

(٤٢) السابق، ص ٢٣٨... فى مقال مترجم بعنوان : لغة الفن القصصى.

(٤٣)مدخل إلى التحليل البنيوى للقصص، ص ٤٢.

(٤٤) انظر... أحمد عوض : التناص فى القصة القصيرة المعاصرة، رسالة ماجستير مخطوطة،آداب بنى سويف، ١٩٩٧، إشراف د. طه وادى، ص ١٣.

(٤٥) ابن رشيق: العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، جـ ٢/ص ٢٨٠ ـ ٢٩٤.

الفصل الثانى

تطور القصة القصيرة
فى المملكة العربية السعودية

تقديم :

هذا الفصل يقدم دراسة مختصرة... لتطور فن القصة لقصيرة ـ فى المملكة العربية السعودية... منذ النشأة حتى المرحلة المعاصرة. وهذه الدراسة أفادت من الدراسات السابقة فى هذا المجال... ومكملة لها.. فى محاولة لبيان (الخط التاريخى) لتطور هذا الفن الجديد/ المراوغ، لأن هذا الفن رغم قصره... يظل دوما فى حاجة ماسة إلى ما يعوض به هذا القصر... من عمق الرؤية... وجماليات النوع فالقصة القصيرة (أقرب إلى فن الشعر) من حيث التكثيف الكمى... وتعميق الرؤية... والبحث عن موقف إنسانى مشع، يترك انطباعا موحدا عند المتذوق: قارئا أو ناقدا، لذلك تسمى أحيانا ـ قصيدة النثر.

إن كاتب القصة القصيرة .. يختال بزورق صغير.. فى بحر الحياة المتلاطم ومطلوب منه أن يصل إلى شاطئ الأمان السردى - رغم كل ما يعانيه من عقبات فنية .. تحكمه ، وتتحكم فيه .

بعبارة أخرى: إن كاتب القصة القصيرة مطالب بأن يجعل من الحبة الصغيرة... قبة كبيرة... عميقة الرؤية/ جيدة التشكيل/ خصبة الدلالة/ عميقة الانطباع.

وهذا الفصل (التأريخى) يرصد الانتقالات الأساسية فى مسيرة هذا الفن... وأهم كتاب كل مرحلة.. والسمات العامة التى تميز القصة القصيرة السعودية المعاصرة. والتطورالفنى اللافت الذى حققته خلال نصف قرن تقريبا.

تطور القصة القصيرة فى المملكة العربية السعودية [١]

جيل الرواد:

جيل الريادة بالنسبة لمسيرة القصة القصيرة فى المملكة العربية السعودية يقوم على مجموعة من الأدباء، يمثلون (تيار التجديد) فى الثقافة والأدب. وإذا كانت ريادة القصة مسلمة للكاتب الصحفى أحمد السباعى..ومجموعته «خالتى كدرجان»

فإن هناك كوكبة أخرى واكبت مسيرته،وأسهمت معه فى التبشير بمولد هذا الفن القصصى القصير، ومن أهم كتاب مرحلة البداية بالإضافة إلى أحمد السباعى: عزيز ضياء ـ عبد القدوس الأنصارى ـ حسين سرحان ـ محمد سعيد العامودى ـ غالب حمزة أبوالفرج ـ عبد الله عبد الجبار ـ أحمد عبد الغفور عطار ـ محمد حسن عواد ـ حامد الدمنهورى ـ عصام خوقير ـ إبراهيم الناصر الحميدان ـ حسين عرب ـ محمد على مغربى ـ عبد الله الجفرى ـ عبد الوهاب آشى ـ حسن عبد الله القرشى ـ محمد عبد الله مليبارى.

من خلال تتبع الإطار الثقافى العام لهؤلاء الأدباء .. يمكن القول:

١ـ القصة القصيرة فى المملكة ـ لايزيد عمرها تاريخيا على (نصف قرن) تقريبا: ويبدو أن السر فى ذلك هو سيطرة الاتجاه المحافظ فى الأدب والنقد من ناحية، ثم السيطرة القوية لفن الشعر ـ التى كانت ولاتزال طاغية حتى اليوم ـ من ناحية أخرى، كذلك فإن معظم الكتاب لم يعطوا فن القصة، العناية الأدبية التي هو جدير بها ، كما هو الحال فى بقية البلاد العربية الأخرى.

٢ـ إن معظم هؤلاء الكتاب كانوا يتعاملون مع الصحافة بشكل دائم أو مؤقت: وهذا يؤكد (دور الصحافة) اليومية والدورية فى تأسيس هذا الفن الجديد والترويج له، وقد دعا كثير من هؤلاء الرواد إلى ضرورة العناية بالقصة، فالعامودى نشر مقالا(فى مجلة المنهل ـ عدد ربيع ثان ١٣٦٠=١٩٥٠ تقريبا)

يدعو فيه إلى ضرورة العناية بالقصة «وإدخالها فى الأدب السعودى، واعتبر خلوه منها يمثل ناحية من نواحى ضعف هذا الأدب، ويرى أن القصة يجب أن تكون منتزعة من صميم الواقع،وأن تكون صورة طبق الأصل لما يجرى فى المجتمع، لأنه يرى أن ذلك أدعى إلى العظة والتدبر»[٢].

٣ـ تأثير القصة العربية عامة ـ والمصرية خاصة ـ على نشأة القصة فى الأدب السعودى المعاصر: فمعظم هؤلاء الرواد (أبو الفرج ـ السباعى ـ عبد الجبار ـ خوقير ـ الدمنهورى ـ حسن عواد ـ عطار ـ القرشى)درسوا فى القاهرة، أو تأثروا تأثرا مباشرا ببعض أدباء القصة المصرية، مثل الدمنهورى الذى تأثر بمحمد حسين هيكل[٣]، وإذا كان معظم هؤلاء الرواد قد تأثروا بالقصة المصرية، فإن بعضهم يمكن أن يكون قد تأثر بالقصة العراقية مثل إبراهيم الناصر، الذى أكمل دراسته فى العراق.

٤ـ لم تلق القصة(طويلة أو قصيرة) فى مرحلة البداية (عناية كبرى) من الكتاب والنقاد وبالتالى من القراء : ومن هنا فإن مرحلة البداية لم تكن بالازدهار الفنى المطلوب، لكن الأمر اختلف فى المرحلة المعاصرة..ولقيت القصة القصيرة ـ أكثر من شقيقتها الكبرى.. الرواية ـ إقبالا لافتا للنظر... شارك فيها الكتاب والكاتبات فى (مواكبة) متواصلة، بل إن نصيب الكاتبات اليوم فى المملكة قد يبدو أكثر من نصيب الكاتبات فى بعض البلاد العربية الأخرى، حيث تبلغ النسبة تقريبا = ٧٠ كاتبا + ٣٠ كاتبة = ٧٠٪ ـ ٣٠٪.

وقد عنيت القصة فى مرحلة البداية: بكثير من القضايا المحلية مثل الصراع بين القرية والمدينة فى نفوس أبطال القصة، وقد كان هذا الصراع يعنى (الموازنة) بين نمطين من أنماط الحياة السائدة ، ويجد فى معناه الأعمق التحول الاجتماعى من مرحلة إلى أخرى.

كما عنيت القصة أيضا ـ ولا تزال ـ بتصوير وضع المرأة فى المجتمع من خلال الزواج غير المتكافئ بين عجوز مسن وفتاة صغيرة... ومحاولة الاحتجاج على بعض الممارسات الفوقية للرجل.

كذلك عنيت القصة بتصوير بعض القضايا القومية... وبعض القضايا الإنسانية التى تصور رغبة الكتاب فى إحداث قدر من التطور الاجتماعى ومواكبة مسيرة الأقطار العربية الأخرى.

من هنا «تبرز بعض الأعمال القصصية مسكونة بهاجس الحداثة، ولكنها تظل مشدودة إلى النهج التقليدى فى الأداء فى كثير من الأحيان، وقريبة من التعبيرية فى أحيان أخرى... وقد أدى هذا كله إلى قدر من التداخل فى الرؤى والأدوات»[٤].

ويلاحظ أن معظم كتاب هذه المرحلة الأولى كانوا (هواة) ، لذلك لا نلمس فى كثير من أعمالهم النضج الفنى الواضح لبنية القصة.. لكن يكفيهم شرف المحاولة، وأنهم استطاعوا أن يجذروا هذا الفن الجديد فى بيئة لم تكن تعرفه.

المرحلة المعاصرة:

شهدت المرحلة المعاصرة ازدهارا وانتشارا واسعا لفن القصة على مستوى الإبداع والنشر والنقد، والنوادى الأدبية فى المملكة وهى كثيرة ـ إلى حد ما ـ تتبارى فى العناية بالنشاط القصصى... وخاصة نوادى المنطقة الغربية ـ وعلى رأسها نادى جدة، الذى أصدر مؤخرا مجلة أدبية فصلية باسم «الراوى» وجعلها مخصصة للإبداع القصصى فى الجزيرة العربية. وقد

صدر العدد الأول منها فى ذى القعدة سنة ١٤١٨هـ = مارس ١٩٩٨م، ويرأس تحريرها الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين، ويشارك فى التحرير: د. عبد العزيز السبيل - د. حسن النعمى - أ. محمد على قدس - أ. عبده خال.

ومن أهم الكتاب: إبراهيم الناصر الحميدان - إبراهيم هاشم فلالى - أمين سالم رويحى - تركى السديرى - تركى العسيرى - جار الله الحميد - حسن الحازمى - حسن النعمى - حسين على حسين - خالد باطرفى - خالد الخضرى - خالد اليوسف - خليل الفزيع - سعد البواردى - سعد الدوسرى - سليمان الحماد - عاشق الهذال - عبد الحفيظ الشمرى - عبد الرحمن الشاعر - عبد السلام حافظ - عبد العزيز مشرى - عبد الكريم الخطيب - عبد الكريم النملة - عبد القادر بصراوى - عبد الله باخشوين - عبدالله بافازى - عبد الله بوقس - عبدالله جفرى - عبد الله جمعان - عبد الله سعيد الزهرانى - عبد الله السالمى - عبد الله السالومى - عبدالله العتيق - عبد الله محمد الناصر - عبده خال - عثمان سباعى - علوى طه الصافى - على حسون - محمد الجبرتى - عمرو العامرى - فاروق جمجوم - فايز أبا - فهد العتيق - لقمان يونس - محمد بن أحمد النفيسة - محمد حمد

الصويغ - محمد سعيد دفترا دار - محمد منصور الشقحاء - محمد عبد الله الحميد - محمد على الشيخ - محمد علوان - محمد على قدس - محمود المشهدى - ناصر العديلى - يوسف المحيميد.

أما أهم الكاتبات فهن: أمل شطا - أميمة خميس - بدرية البشير - بهية بوسبيت - حصة التويجرى - حصة العمار - خيرية السقاف - رجاء عالم - رقية الشبيب - زهرة سعيد المعينى - سحر الرملاوى - شريفة الشملان - عهود الشبل - فاطمة داود الحناوى - فاطمة مقبل العتيبى - فوزية البكر - فوزية الجار الله - قماشة العليان - قماشة السيفه - لطيفة السالم - مريم الغامدى - نجاة خياط - نجوى خالد مؤمنة - هند صالح غفار - وفاء الطيب.

أهم سمات القصة السعودية:

يمكن أن نرصد مجموعة من الحقائق الأدبية بالنسبة للجيل المعاصر من كتاب القصة فى المملكة العربية السعودية:

أولا: كثرة العدد مع قلة النتاج: يبلغ عدد الكتاب والكاتبات الذين يمارسون كتابة القصة فى المرحلة المعاصرة نحو (مائة) صوت... لكن هذا العدد الكبير، - رغم امتلاكه للأدوات

السردية، فإنه غير متفرغ ـ أو غير مهتم ... على الأقل ـ ولا يجعل الكتابة القصصية هاجسا ملحا لديه، لذلك نجد أن بعضهم يصدر مجموعة واحدة، ويتوقف عن الكتابة ـ رغم يسر منابر النشر فى الصحف والمجلات وكتب الأندية الثقافية وكثرة دور الطباعة والنشر ،وتلك ظاهرة أدبية لافتة للناقد والمؤرخ، وأتمنى من الكتاب السعوديين ـ وكثيرمنهم تربطنى بهم علاقة طيبة ـ أن تزداد حماستهم لرفد هذا الفن الجميل بمزيد من الأعمال الجيدة التى بدأوا بها ... وإذا كانت هذه الحقيقة المرة يمكن أن نلتمس لها تبريرا عند بعض الكاتبات .. فماذا نقول عن الكتاب..؟!

اللهم بلغت .. اللهم اشهد..!!

ثانيا: الحفاوة الشديدة بتصوير الواقع المحلى: بدرجة تصل معها القصة القصيرة ـ أحيانا ـ إلى أن تكون لوحة قصصية لشخصية محلية أو عادة شعبية. نجد هذا بوضوح فى كتابات: خوقير ومشرى وإبراهيم الناصر وعبده خال ومحمود المشهدى وحسن النعمى ومحمد علي قدس وفوزية الجار الله وقماشة عبد اللطيف ومريم الغامدى، وربما ساعد على إبراز هذه المحلية اتساع رقعة المملكة العربية السعودية وتباين البيئات الجغرافية

والاجتماعية فيها - إلى حد ما - و«المحلية» بالنسبة للقصة السعودية لا تتصل بالفضاء المكانى فحسب، وإنما تتعداه إلى الموضوعات والعادات المحلية/ الشعبية.. فى البادية... والقرية... والمدينة ، بدرجة قد تبدو فيها القصة ترجمة ذاتية لسيرة كاتبها ... أو على الأقل استلهاما لها.

يؤكد هذا ما يذكره محمد على الشيخ فى مقدمة مجموعته «العقل لا يكفى»: «أقدم نفسى أنا القادم من القرية على جمل هزيل.. لم لا؟ ماذا أقول؟ أنا بدوى يعشق التحضر»(٥)

ثالثا: شاعرية القص: الشعر - فصيحا وعاميا - هو الفن الأول على خارطة الإبداع الأدبى السعودى المعاصر، ولذلك فإن معظم كتاب القصة فى المملكة نلمس لديهم بوضوح (شاعرية مرهفة) فى التشكيل السردى للمبنى القصصى. ولاريب فى أن هذه العدوى الحميدة انتقلت من المنظوم إلى المنثور . وتستوى شاعرية الأسلوب هذه عند الكتاب والكاتبات فى آن واحد.

وهذا مقطع من قصة للكاتب حسن النعمى، يسرد فيه حكاية مدرس فصل وأبعد عن مدرسته وتلاميذه، لأنه «تجاوز فى التعبير عن رأيه» .. والمؤلف يصف حالة بطله بأسلوب شاعرى قائلا(٦):

« قبض على صفحة الخيبة في يده، حدق في عينيه من الداخل ، كان دم الضوء يجرى منتصبا كشاهد قبر قروى، انتهك حرمة الصمت التي ظل يلزم نفسه بها ، تذكر أن أباه كان يردد: الصمت عبادة، ومرة قال له: اصمت ، إن لم يكن من أجلك فمن أجل الآخرين، أقلقه صمت الطباشير أيما قلق، أوحت له المسألة بانطفاء الضوء بين أصابعه ، ثلاثون سنة رافق فيها الطباشير التي رسم بها شكل الحقيقة، وجه الضوء، رائحة الحب، بادلته هاجس الحيرة، ضبط من قبل متلبسا بحالة عشق بيضاء ، قيل فيما بعد: إنها كانت سنبلة الوصال التي أسكنها رحم التباشير ، في الصباحات كان يرتدى أعين الصبية، يملى عليهم لماذا أصبح للشمس عين واحدة، يذكر أنها عندما قال عبارته ذات المذاق الغريب: أيها الصبية هل تعرفون لماذا لكم أصابع؟

قالوا:« لا علم لنا إلا ما علمتنا». ولكن ربما نأكل بها حينا، وحينا نقضى بها حوائج أخرى.

قال:لم تبتعدوا ، ولم تصيبوا عين غايتي، أصابعكم خناجر

وصعد أحد الصبية، ورسم كفا بخناجر ، صفق بقية الصبية، وحياه الأستاذ ، وعاقبه مسئول الجزاءات».

فالشعرية تغلف لغة القصة... وتتبدى واضحة فى مجموعة من الصور البيانية التى حشدها الكاتب فى أسلوبه مثل:

صفحة الخيبة - دم الضوء يجرى منتصبا كشاهد قبر - انتهك حرمة الصمت - الصمت عبادة - صمت التبشاير - رافق التباشير التى كتب بها ضوء الحقيقة - وجه الضوء - رائحة الحب - ضبط متلبسا بحالة عشق بيضاء - سنبلة الوصال - رحم التباشير - يرتدى أعين الصبية - عبارته ذات المذاق الغريب - أصابعكم خناجر .. إلخ.

وشاعرية التعبير تتجاوز السرد إلى الحوار المركز .. الذى لا يخلو من تناص من الآية القرآنية الكريمة «لا علم لنا إلا ما علمتنا »(سورة البقرة .. آية ٣٢)

ومعلوم مدى التأثير الفنى القوى الذى يغذى به النص القديم أى تعبير أدبى حديث.

رابعا: الاستعانة بالرمز الفنى.. .والقناع التاريخى ... وبعض الإشارات الأسطورية، باعتبارها عناصر فنية تثرى بناء القصة: وموقف القاص السعودى من الأسطورة هو « مجرد توظيف فني، لا غرض له سوى استحضار جو الغموض والفجيعة والشعور بالعجز الذى تتركه قراءة الأساطير عادة فى

نفوسنا، كما أن كثيرا من الإشكاليات الحياتية التى لا سبيل للتعبير عنها إلا عن طريق الرمز»[٧].

ومن الكتاب الذين استعانوا بهذه العناصر الفنية لإثراء كتاباتهم القصصية: جار الله الحميد فى مجموعة «أحزان عشبة برية» وقد اتخذ الكاتب من «العشبة البرية» رمزا للمحبوبة والحرية والتطلعات التى لا سبيل إلى تحقيقها»، و«قد تمثلت الأسطورة هنا فى العشبة البرية التى تأتى فى الأساطير عادة رمزا للخلاص أو الشفاء، أو مفتاحا للغز أو السر، ولا سبيل للوصول إلى هذه العشبة إلا بمجابهة الأهوال والمكاره التى لا يقوى على مجابهتها عادة سوى إنسان خارق للعادة، لذا كانت عشبة جار الله الحميد حلما يراه فى المنام،ولا يرى مثيلا له فى الواقع، أو بالأصح لايستطيع أن يصل إليه، لأنه لا قبل له بتلك المهالك التى حذره منها الجميع، وهو لايزال يسأل كل من يراه: ماذا تقول فى رجل حلم بأنه يمسك بعشبة غريبة.. بيضاء وحمراء ووردية.. وزرقاء .. ويطير .. وكل مرة يحط فى مدينة يرى نفس المرأة التى هى حبيبته ، ولكن كل مرة يناديها باسم آخر... مع العلم بأنه هبط فى مائة مدينة... وربما أكثر..»[٨].

وثمة كتاب آخرون يدورون فى الفلك نفسه الذى يحاول إثراء

بنية القص بموتيفات فنية متنوعة مثل: محمد علوان وعبد العزيز مشرى وعبد الله السالمى وخيرية السقاف وعبده خال... وغيرهم.

هذا كله يصل بنا إلى نتيجة مؤداها أن معظم كتاب القصة السعودية (هواة) .. ومعظم نتاجهم يمكن أن يطلق عليه «بيضة الديك» ، لأنهم يكتبون بتؤدة وتأن شديد، لذلك يحاول الكثير منهم الدخول من بوابة (تحديث القص).. وتخصيب السرد... وتجميل اللغة، نجد(هاجس الحداثة السردية) هذا عند بعض الكتاب مثل: إبراهيم الناصر - محمد النفيسة - لقمان يونس - خالد اليوسف - محمد على قدس - عبده خال - حسين على حسين - عبد الله السالمى - رقية الشبيب

- عبد الله باخشوين - خليل الفزيع - مريم الغامدى - قماشة السيف - عبد الله العتيق - سليمان الحماد - خيرية السقاف - حسن النعمى - عبد الله باقازى - وحسن الحازمى - عثمان سباعى - خليل الفزيع -

وغيرهم».

ومن الأمثلة على ذلك هذا الجزء من قصة بعنوان « اللحظات الموحشة» للكاتبة قماشة عبد الله السيف، حيث يتداخل فى بنية

القص صوت الراوى مع صوت بطلة القصة، حيث إن الراوى هنا راو (مشارك) ومدى علمه يتوافق مع علم بطل القصة:

«مشيت .. كانت الرمضاء مؤذية.. أحاول أن أتذكر .. ما يفيد لا تحتفظ به الذاكرة الملعونة... هى غالبا ما تسترجع التفاهات المؤلمة والوجوه المستعارة... تتجمع خيوطها ، تصبح شبحا فى ظلمة متحكمة.. يقترب .. يبتعد .. فى إحدى يديه شىء ما.. قاتل الله الخوف بعنف يهز الجوانح... يعجزها عن المواجهة.. لحظات الترقب مشحونة ومريرة... وجوم مرير... أكاد أختنق.. لاشىء أرى.. «ما أقسى أن تموت معافى وفى حالة ضعف.. وفى الظلام النهايات الغامضة غالبا ما تعتبر بدايات لعذابات أخر..!!»

لو أصرخ مزقت الصمت، لو أومض النور مزقت الحجب، لو أفعل شيئا من هذا لانتهى كل شىء.. تغيب عنى الحكم التى تسكبها أمى فى أذنى.. ويغيب كل شىء إلا لحظتى هذه... الكل نائم دونهم الأبواب موصدة، دونهم الرتاجات، أقربهم الخادمة، تنام فى الردهة تنام فى سُبات عميق.. مهجعها الليل ومنتجعها..!

النوم... النوم سلطان ذو اقتحام، ما إن ينتصف الليل إلا

والكون كله فى هجعة واحدة حتى البهائم والطيور والنباتات إلا الذى لاتأخذه سنة ولا نوم..»[٩].

وننتهى إلى أن القصة القصيرة السعودية حديثة النشأة،لكنها استطاعت - فى فترة وجيزة - أن تكون لها بصمة أدبية خاصة فى إطار معزوفة القصة العربية المعاصرة.

الهوامش

(١) يراجع فى هذا الموضوع :

- حصة الحارثى : الاتجاه الواقعى فى القصة القصيرة السعودية، ماجستير مخطوطة، جامعة أم القرى، ١٤١٥=١٩٩٥.
- د. سحمى الهاجرى : القصة القصيرة فى المملكة العربية السعودية، ط/ نادى الرياض، السعودية، ١٤٠٨= ١٩٨٧.
- د. سعيد السريحى : تقليب الحطب على النار فى لغة السرد، ط/ نادى جدة، السعودية، ١٤١٥.
- د. طلعت صبح : القصة القصيرة فى المملكة بين الرومانسية والواقعية، ط/ نادى الطائف. السعودية، ١٤٠٨ = ١٩٨٨.
- د. محمد الشنطى : القصة القصيرة المعاصرة فى المملكة ـ دراسة نقدية. ط/ دار المريخ الرياض، ١٤٠٧=١٩٨٧.: آفاق الرؤية وجماليات التشكيل، ط/ نادى حائل، السعودية، ١٤١٨=١٩٩٧.
- د. مسعد العطوى : الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة فى المملكة، ط/ نادى القصيم، السعودية، ١٤١٥ د. ط وادى: القصة ديوان العرب ـ المصرية العالمية (لونجمان) ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠.
- د. منصور الحازمى : أدبنا فى آثار الدارسين، ط/ نادى جدة، السعودية، ١٤١٢= ١٩٩٢.
- د. نصر عباس : البناء الفنى فى القصة السعودية القصيرة، ط/ الرياض، ١٤٠٣.
- أحلام حادى : تيار الوعى فى القصة القصيرة السعودية رسالة ماجستير ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ـ ١٤٢٠

(٢) سحمى الهاجرى: القصة القصيرة فى المملكة، ص ١٠٧.

(٣) طلعت صبح: العناصر البيئية فى الفن القصصى فى المملكة، ط/ نادى القصيم ١٤١١ = ١٩٩١، ص ٩٣.

(٤) راجع: محمد الشنطى: القصة القصيرة المعاصرة فى المملكة ، ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٥) محمد الشيخ: العقل لا يكفى ، ط./ المطبعة العربية، جدة، ١٤٠٢.
(٦) حسن النعمي: رحيل الأستاذ بخيت، قصة منشورة بالعدد الثانى من مجلة «الراوى» نادى جدة جمادى الأولى ١٤١٩ = سبتمبر ١٩٩٨.
(٧) حصة الحارثي: الاتجاه الواقعى فى القصة السعودية، ص ١٦٩.
(٨) المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٩) من مجموعة « محادثة برية شمال شرق الوطن» ط/ نادى القصة السعودى، الرياض ١٤١٢ = ١٩٩٢. ص ٨٧.

الفصل الثالث

شهادات أدبية(*)

هذه مجموعة من الشهادات الأدبية ، كتبها مجموعة من كتاب القصة القصيرة السعودية، وهم:

- ابراهيم الناصر الحميدان
- شريفة الشملان
- بدرية البشر
- محمد على قدس
- محمد علوان

ويعبر كل منهم من خلال هذه الشهادة عن تجربته القصصية من حيث الماهية.. أو المفهوم - مفهوم القصة القصيرة.. أو الأسباب التى دفعته للكتابة، أو المراحل التى مر بها تطوره... أو المصاعب التى واجهته عند النشر... وخلاصة تجربته الإبداعية فى الكتابة بصفة عامة.

وهذه الشـهـادات تعـبـر عن رؤية ذاتيـة من بعض المبـدعين والمبـدعات. ونحس قـدرا كبـيرا من الصدق والتلقائيـة فى هذه الاعتـرافـات ... على أسـاس أنه لا يعـرف طبـيـعـة البـحـر إلا البحار... ولا قسوة النار إلاالفران. وقديما قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

من أجل هذا.. كان حرصنا على إعادة نشر هذه الشـهادات / الاعترافات، لتكون معينة على فهم الدراسة النقدية... وتصور القيم الجمالية للنصوص القصصية.

تجربتى القصصية

إبراهيم الناصر الحميدان

هذا السؤال[1] يطرح على المبدعين بين الحين والآخر وذلك من قبيل استشارة طلائع الجيل الذين يرون أن لديهم إمكانات للإضافة والتحديث فى دنيا الفكر لاسيما فى مجال اهتماماتهم، ونحن نقول لهم إنه لا غرابة فى هذا الإحساس فقد سبقناهم نحن إلى شعور مماثل. حقيقة إننا لم نقل ذلك صراحة إنما توخينا التجديد فى هذا السبيل واستدرجنا عصارة ما استقر فى فكرنا. والتجربة لابد وأن تنبثق من القراءة والمتابعة للإنتاج المطروح فى الساحة الأدبية.لو لم نقرأ كثيرا لما وجدنا هذا الدافع يحدونا إلى تكريس، تأثرنا وامتداد آفاقنا، وكانت مدرستنا آنذاك هى الرسالة والثقافة ثم المطبوعات الأخرى مثل المقتطف والكاتب المصرى التى كانت تصدر من مصر فى ذلك الوقت وربما حصل بعضنا على مطبوعات تصدر من دول عربية أخرى لاسيما فى بيروت أو بغداد إلى جانب المهجر...على أن

بيروت أخذت فيما بعد شعلة التوهج ساعدها فى ذلك نظام المطبوعات الذى أطلق الحرية الفكرية، فساهموا بإصداراتهم بإشعال الميدان الفكرى، كما ساهمت الترجمة فى إضفاء نوع من المنافسة بين العربى والأجنبى فى مجالات شتى نعنى بذلك القصة والرواية والسيرة الذاتية والاتجاهات الفكرية التى كانت محتدمة المعارك فى ذلك الحين.

جدى غفر الله له كان يملك مكتبة جيدة وقد فتحها أمامى بالكامل، مما جعلنى أنكب على قراءة أمهات الكتب رغم أننى فى حكم الطفولة آنذاك.

ومن هذه المكتبة انحفر فى ذهنى حب القراءة مبكرا ومن بين الذى استهوانى وشدنى كثيرا قصص أرسين لوبين، لما تحفل به من أحداث مثيرة ووقائع مدهشة كما شدتنى روايات زيدان التاريخية وروايات مكسيم غوركى وغيره من الكتاب السوفيت ذوى النزعة الإنسانية والمنطلق الواقعى. وكان الاتجاه الكلاسيكى هو السائد فى ذلك الحين لاسيما فى أوروبا وبالذات فى الأدب الفرنسى.

الترجمة فى بيروت كان لها تأثير وصدى كبير فى مختلف الأوساط خاصة حين أخذت تزودنا بمختارات من الأدب العالمى

- دار اليقظة العربية السورية المصدر - أسهمت كثيرا فى هذا المجال عن طريق ترجمة روائع الأدب العالمى وكذلك إبداعات الكتاب السوريين فى ذلك الوقت رواية وشعرا وقصة... فالحكومات العربية المتغيرة باستمرار التى تواجه ضغطا من الفئات المثقفة تساهلت فى دخول الكثير من الأعمال الفنية التى تصادر حاليا لأسباب سياسية أو اجتماعية. ومن هذه النوافذ أطلت على المتأدبين نفحات مختلفة من شوادر الفكر غرست لديهم محاولة الانطلاق بإنتاجهم نحو آفاق الدنيا، وبديهى أن الإنتاج المحلى كان يستوعب هذه النفحات ويضيفها إلى خزائن مصادره فاستجاب بعض المجددين إلى زخم العطاء وتلاقح الرؤى فى مجال الشعر بالذات.

أما فى دنيا الرواية فقد كانت رواية (ثمن التضحية) للمرحوم حامد دمنهورى أجرأ الأعمال الروائية فى ذلك الحين بينما مجال القصة يتربع عليه بعض الكتاب التقليديين أذكر منهم المرحوم أحمدالسباعى.

فى ذلك الخضم دفعت بإنتاجى القصصى الذى فوجئت بأنه لقى ترحيبا من الزملاء وأذكر أن الأستاذ خالد خليفة - غفر الله له - التقى بى صدفة وكان ينشر قصصا فى الصحف، هنأنى

على اقتحامى هذا الميدان وأبدى إعجابه باتجاهى القصصى... وكانت أول قصة نشرت لى فى صحيفة اليمامة الأسبوعية بعنوان «أمينة» بدا فيها تأثرى بالأدب الأجنبى المترجم.

تلك بإيجاز لمحة خاطفة عن الخطوات الأولى العالقة فى ذهنى من تلك المرحلة التى كان ينشر فيها أيضا بعض الزملاء الذين أذكر منهم عبد الرحمن الشاعر، وغالب أبو الفرج وغيرهما مما لا تحضرنى أسماؤهم الآن... والحمد لله أننا سرنا على درب التجديد خطوات متلاحقة تراها فى هذه الكوكبة الناجحة من شبابنا التى لايفوتها ماوصل إليه الأدب العالمى من إنجازات..

عن بعض التجربة

عبد العزيز مشرى

اختصارا لما سبقها.. فقد كانت بداية نشر قصص المرحلة التى تمثل وعيى الجديد بمفهوم ووظيفة الإبداع.. منذ عشرين عاما، وبالتحديد فى عام ١٩٧٤م بجريدة اليوم بمدينة الدمام، وهى المرحلة التى بدأت القصة الحديثة تضع خطواتها الأولى وسط النتاج القصصى الذى ترك لدى الكتاب ممن سبقونا، ولدى القارئ... "نمطا ذائقيا معلوما، وبالتالى... فقد كانت تلك الفترة بداية السبعينيات - هى فترة التأسيس للانطلاقة فى كتابة الإبداع القصصى المساير والمتواكب مع إيقاع الحياة التى تمثل صورة الإنسان المرتبط بهذا الزمان، برغم اختلاف المكان وخصوصية العالم الذى يعيش فى ذلك المكان حيث يهتم مفهوم الإبداع، بهم الإنسان وصراعه ضد القبح وطموحه نحو الجميل والأفضل، دون تجاوز الذات الإبداعية المثقفة - كعينة حية تعيش

غربة اجتماعية، وتنفر من التعايش معها ـ هذه المرحلة عبرت عنها بشكل واضح، مجموعة حية تعيش غربة اجتماعية، وتنفر من التعايش معها ـ هذه المرحلة عبرت عنها بشكل واضح، مجموعة « موت على الماء» والصادرة عن «نادى الرياض الأدبى ١٩٧٩م، وتحمل عينات من تجربتى ما بين عامى ١٩٧٤ و١٩٧٦م، وهى أول مجموعة قصصية تصدر لى.

هذا الإصدار ـ كما قلت ـ يمثل غربة الفنان المثقف ـ القائمة على عدم التلاؤم البتة مع التقليد الكتابى والفكرى، والحياتى أحيانا.

المرحلة الإقدامية الفائرة بشبابها وزمنها النفسى، وعدم النضج المدرك لمعنى الرفض التقليدى، أو ما أطلقنا عليه حينها بـ «الكلاسيكى» القديم وما تراكم عليه من تقليد.

وكان الشكل اللغوى يشكل وقتها أهم قواعد الواجهة الحديثة، تلك الفترة ـ مهما كان ظرفها ـ لم تأت من فراغ، ولم تأت بوصاية، ولا باتفاق فكرى مع الزملاء الذين سايروا ذات الطريق، وأخذوا فى نظم الخطوات الأولى فى الحاجة نحو كسر التقليد.. لقد كان هناك ضرورة ضمنية عامة... كنا فى جزر متباعدة داخل المملكة القارة، حتى إننا لا نكاد نعرف بعضنا

على الأغلب، لكننا كنا نبحث عن صياغة جديدة تلائم واقعنا الثقافي والغرائبي، أذكر القاص: عبد الله باخشوين، وجار الله الحميد، ومحمد علوان، وجبير السليمان ، وفهد الخليوى.

بقيت بعد «موت على الماء» سبع سنوات لم أصدر شيئا، وإنما أنفقتها في القراءة والتأمل، وأحيانا أطل بمشاركات نثرية أو تشكيلية، ثم أصدرت مجموعتى الثانية «أسفار السروى» وكانت محصلة لما تلقيته من ردة تأثير لدى القراء والنقاد تجاه الإصدار الأول، وكنت شديد الاهتمام بالقارئ الذى وجدته فى غربة لغة ومضمونا ـ بعد صدور المجموعة الأولى.. فساءنى ذلك، وخلق فى داخلى قلق على هيئة سؤال كبير لماذا تكتب ولمن، وكان الجواب فى «أسفار السروى» التى أعقبتها رواية «الوسمية» وكانت بلغة القرية الجنوبية.. لغة المعيشة اليومية، أى على النقيض من قصص موت على الماء.. التركيز ينصب على المضمون.. العالم الخاص بأشكال تعابيره فى الحياة وطقوس تراجيدياته وأنثروبولوجياته، ولم يكن مخططا مسبقا، ولكنه بدوافع حميمية صادقة دون الالتفات إلى الناقد أو الزميل فى الإبداع، وإنما بالتوجه نحو القارئ بنظرة عصرية تكشف عن سحنة وجه أولئك الناس الذين نموت مع فتافيت تفاصيلهم،

محاولا إبعاد ذاتى الثقافية تماما كموصية على طبيعة ذلك العالم.

ذلك كان فى دورة التسجيل التاريخى سنة ١٩٨٦م.

بالرغم من النجاح الذى نالته المجموعة القصصية الثانية محليا وعربيا، ووصول بعض قصصها إلى لغات أوروبية ـ لا ناقة لى فيها ولا جمل ـ إلا أن ذلك لم يكن ليعنى لى مقياسا كاملا إذا ما قورن بميزان الاهتمام بالقارئ من حيث خلق الوعى دون افتراضه فيه أولا، ثم الارتقاء به نحوخلقة ذائقة مغايرة لما ألف عليه من تقليد ـ وهذه التوازنية تطلبت من قلمى عذابا فى الموازنة بين لغتى الفنية المنحوتة فى مثل «موت على الماء» وبين ما يجب أن أوصله إلى القارئ (المتآلف مع لغة المباشرة والطرح السطحى، أو الاعتيادى فى نظرته الجاهزة لتعليل دوافع الأشياء ومسايرتها بإيقاع المجتمع العام) دون تمثل النظرة الخارجية القادمة من واقع خارجى مغاير لنا، مع الأخذ بمدلول التجربة الإنسانية فى غيرممايزة عنصرية.

توالت بعد ذلك على التوالى «بوح السنابل» و«الزهور تبحث عن آنية» و«أحوال الديار» قصص وروايات «الغيوم ومنابت الشجر» و «ريح الكادى» وغيرها، على ذات المسلك تقريبا فى

المنظور الواقعى إلى آخر إصدار سنة ١٩٩٣م، حيث وجدتنى أعود إلى مرجعية اختزنت منذ بداياتى الثقافية ولا تزال : الموروث والواقع، ولا أدرى كيف سأكتب غدا.

القصة نافذة على داخلى

شريفة الشملان

هذا العنوان سـأدخل به المحكمـة لأشـهـد... أدفع يدى ثم أمسك القلم وأدلى بشهادتى بلا قسـم... لكن أقسم فى داخلى أن أقـول الحـق... أى حق هذا الذى سـأكـتـبـه... ومـن ذا الذى أعطانى التفويض بقوله:

سـأدلى بشـهـادة عن الواقع والأفق... أفق لكل مـا فـيـه من سـعة كقبـة واسـعة تحتضن الكون من حولنا، ثم تنزل بلطف فتعانق الأرض ـ على الأقل عندما ننظر من علو ـ وواقع تتكسر رقابنا بحثا عنه... ونأخذه لنرفعه كى يصير حلما..

قـيل من رحم الواقع تنبـعث الكتـابة: أنا وكل كـاتب وكـاتبـة علينا أن نأخـذ هـذا الواقع لنصنعـه فـى مـصنع خـاص داخل أرواحنا، ثم نصنع له أجنحـة جـميلة مزركشة. قـبل أن ننشـره على الملأ قـصـة أو شـعرا أو مقـالة... والكلمـة تلك المهرة البـرية علينا أن نمسك لجامها جيدا عندما نقتنصها لنعودها شرب الماء

المعلب وأكل الحشيش المهجن المليء بالهرمونات النافخة ونقول أيتها الكلمة الرائعة... كلي وانتعشي ، وادخلي في أوراقنا.

وأنا مطالبة بشهادة عن تجربتي القصصية بين الواقع والأفق وكلماتي محصورة بينهما إما تحلق في الأفق وإما ترتطم بالواقع:

رأت ابنتي ذات يوم منظرا رائعا فقالت... ليت لنا بيتا هنا يا أمي، حتى تكتبي كما يحلو لك» وقالت لي زميلة عمل بعد يوم عاصف دعي عنك العمل واكتبي

وقالت قريبة لي ذات يوم لو كنت مكانك لكنت أكتب كل يوم قصة» أنا أقف مكسورة أمام كلماتهن... أي كتابة هذه التي ستنهمر في الأماكن الجميلة الرائعة... وأي كتابة تلك التي ابتعد عن العمل فتأتي كالغيث... وأي فعل كتابة هذا الذي كصنبور ماء كل يوم أفتحه فتكون هنالك قصة.

الكتابة فعل يحب الناس ولا يحبهم ، يريد الهدوء والضوضاء وجعجعة العمل وصوت الآلات ولعلعة الحوار كي ينبثق... ويريد مكان ولادة خاص منعزل حتى يضع الحمل..

تعلمت الحكاية قبل أن أعرف طريق المدرسة وقبل أن أميز بين «أ» و«ى».. تعلقت حزنا - بعزيز بن خالد - صنعت له تمثالا

للوفاء والنخوة، وضعته فى قلبى الصغير وانهمرت أدمعى عليه.. وسطرت له قصة أخرى غير القصة المتداولة - وحصان أخوى خضر - أعددت أحداث القصة مرات فى داخلى، حتى كدت أعبر الصحارى والبحار مع البنت الجميلة وعبرتها وأرتعب خوفا من الحصان العاشق... وكبرت وعرفت كيف يكون القص خارج المألوف، وكيف يمكن أن يكون اللامعقول بوابة لفكرة جديدة ولنص جميل..

وأنا مطالبة بالشهادة... شهادة عن الواقع والأفق... تلك الشهادة التى سأسطرها... وماذا سأقول بها؟! سأفتح طريقا فى عروقى وأدعو للولوج فى دمى... أعبر معكم تلافيف روحى... أضع رأسى على الطاولة وأفتحه لنرى ما فيه... ومامر عليه... لكن قلمى قد غرف منه منذ زمن طويل يقارب السبعة عشرعاما ، ونثر أغلب ما فيه... لكن حتما هنالك زاوية ما تختفى عن الأنظار تلك الزاوية لى، وبها أخص خصوصياتى... ولن تنالها الشهادة... (وأنا سأكتب شهادة ما بين الواقع والأفق وعلى أن أحضر فلسفة كلماتى، أجملهن ،أصنع (وأنا سأكتب شهادة ما بين الواقع والأفق وعلى أن أحضر فلسفة كلماتى،أجملهن ، أصنع منهن طائرات مزوقة يصعدن للأفق، يسبحن الخالق، لكن

الأقمار الصناعية ومراكز التجسس تلتقط صورهن، فيهوين أرضا للواقع..)

- والشهادة متاحة لى - وبعد نهايتها سأبتسم وأقول بلهجة تليفزيونية (شكرا لكم لإتاحة الفرصة لى بالشهادة)

أأشهد أن القصة نافذة لى على دواخل النفس؟!

أأشهد أن القصة ألتقطها مما هو حولى!!

أأشهد أنى أولد القصة كما القابلة!!

أنا حينئذ لا أقول الحق كله، ولا الكذب كله..

أنا بينهما ، فالقصة نافذة على داخلى، على مكنونات نفسى وجزئيات ضميرى... عندما تنهمر كمطر الوسمى.. أجمعها.. أهذب مجاريها، ياويلى عندما تغتاظ منى فتمضى هاربة، بعيدا حيث أصدها كى أنهى ما بيدى..

وألتقطها مما حولى، هى كذلك وهى ليست كذلك أيضا، المنظر الموحى ، والحركة والمكان وأحيانا الزمان. تكون كما اقتناص الشرارة الأولى... حينئذ يتم النسخ عليها ومنها، كى تتوالد فتكون قصة.

أما القابلة، فأحيانا أكونها، خاصة عندما تتخمر القصة فى ذهنى أياما وليالى.. ثم تبدأ تلح... تدق فى نافوخى فأبحث عن

أقرب مكان مناسب لأضع هذا الحمل، فأكون كما القابلة..

تجربة النشر كانت ومازالت مغامرة لذيذة.. كل قصة أبعثها ويدى على قلبى... وكل قصة أنشرها أشعر بأنها تنتمى لى... وعلى أن أحتفى بها... أفرح فرحا طفوليا بما يصلنى من تعليقات عليها، وأحيانا أضحك من كل قلبى عندما تربط قصة ما بى أنا شخصيا، خاصة تلك التى بضمير المتكلم.

توكلت على الله ونشرت القصة بعد انتهاء دراستى الجامعية، وكنت سعيدة جدا بأن تلك الحكايات التى أحكيها لنفسى لاقت استحسانا ... ثم بدأت أبحث عما هو أبعد من الحكاية... لازلت أؤكد على نفسى أن الفكرة هى سيدة الموقف وأن أى عمل مهما كان بلا فكرة لا يكون إلا هذرا.

هاتفنى الأستاذ محمد الشدى - رئيس جمعية الثقافة والفنون - مشكورا ، ليبلغنى فوز مجموعتى (مقاطع من حياة) بالجائزة الثانية فى مسابقة أبها الثقافية، انتشيت ، وكأننى أنجح لأول مرة فى حياتى... ولتلك المسابقة حكاية:

كلما سمعت عن مسابقة للقصة القصيرة خجلت أن أرشح نفسى وتمنيت أن يرشحنى الآخرون، لكن لا أحد.. كنت أقول بينى وبين نفسى بعد كل مسابقة لعل غيرى أحق منى... أخيرا

قررت أن أرشح نفسي، فكان وفزت، لا يهم الأولى أو الثانية أو الثالثة... المهم أن الفرحة زقزقت في صدري... وأحسست إن لم أحتف بنفسي لن يحس بي الآخرون..

بعض القصص لها وقع جميل في نفسي، أحبها، هي وحكاية التمر من مجموعتي منتهى الهدوء كلما قرأتها فرحت أنني كاتبتها.. وهي قصة فتاة صغيرة يتيمة تصارع من أجل العلم والبقاء وأتركها وقد فكرت بتغيير مجرى حياتها جديا، أيضا أحب قصة مقاطع من حياة قرأتها في أكثر من ندوة قصصية... وهي قصة فتاة تصاب بلوثة عقلية، لكنها تتأجج عاطفة نحو قريتها وأطفالها، وتكافح - رغم ضعفها - الظلم داخل مستشفى المجانين.

صدرت مجموعتان لي، والمجموعة الثالثة... وغدا يأتي... في طريقها للنشر.

لا أدري هل بقي شيء لدي..أم انتهت شهادتي.. أظنها تطول وتعرض كلما سمحت للقلم بالسير على الورق...

الكتابة تعبير عن موضوع ما

بدرية البشر

حين يقول فرويد : «ولكن ماذا بصدد الأحلام التى لم تحلم قط حقا، أى تلك التى يعزوها الروائيون إلى أبطالهم الخياليين» يقرر فى تفسيراته النفسية كيف يتحايل المبدع على رفضه للواقع ليعيد تشكيله بالرواية الجديدة أو العمل الإبداعى الذى يصوغ من خلاله حلما لم يحلم به.

وفى حين تكالبت النظريات العلمية (النفسية والاجتماعية وغيرها من النظريات) فى تفسير غموض الإبداع وماهيته. لم يجد علماء النفس أكثر من أن هذا الإبداع هو سلوك عصابى .. نتيجة القلق ورفض الواقع، وحين نرفض هذه الصورة المرضية؛ لأننا نريد أن نكون أبطالا نتمرد على الواقع ونعيد صياغته فإننا لن نقوى على رفض مقولة أن الإبداع جزء من ذلك القلق النافر الضاج بالأسئلة العابث بألوان الحبر ليرسم شيئا جديدا ومختلفا.

من هنا بدأت تجربتى الإبداعية فى الكتابة ... فعلى الرغم من أن الأسئلة كانت كثيرة... وثقيلة إلا أن واقعى المادى من حولى كان فقيرا بالغذاء الثقافى... ففى منتصف السبعينيات.. كنت فى مدرستى أبحث عن كتاب خارج عن مناهج الدراسة... ولم تتعد مكتبة المدرسة غير روايات قليلة وقصص قديمة، فى الابتدائية أتذكر سندريلا ورسوماتها المبهجة وقصص الأنبياء وألف ليلة وليلة، وفى الإعدادية أذكر المماليك والبؤساء وفى التوجيهية كان يوسف إدريس وحنا مينه... ونوال السعداوى وتشيكوف... وهمنغواى وأسماء لم أعد أذكرها الآن، لكنى أذكر أن الكتب كانت مهربة.. تتخفى فى زى الكتب المدرسية وتطويها العباءات السوداء فى جوفها ... مثل كل البدايات التى تدخل فى تهويمات البحث عن كل شيء جديد..

كتبت لأتعرف على نفسى الخاطرة والقصيدة، وجربت القصص، وفى عام ١٩٨٤م حين دخلت الجامعة... دعتنى إحدى الصديقات من مكتب جريدة الرياض للالتحاق بالجريدة.. ليتلقفنى نوع جديد من الكتابة... وهو الكتابة الصحفية.

عملت فى الصحافة لأنى أريد أن أكتب .وكتبت لمدة أربع سنوات... تعلمت خلالها أشياء كثيرة منها الكتابة المنظمة

والسيطرة على اللغة والتعبير عن الأشياء مباشرة وسطوة الرقيب وأشياء كثيرة تدربت عليها وكانت طريق القصة أكثر وضوحا... وحين أدركت أن العمل الصحفى لا يناسبنى تركته وأنا أعد نفسى للقصة بعد أن تأكدت أنها ثوبى الجديد الوحيد.

الفن للفن... الفن للحياة

منذ وعيت على كتابة القصة وأنا أعتقد بأن الكتابة تعبير عن موضوع ما أو قضية ما تعنى شيئا إنسانيا.. وقد اطلعت على كثير من النظريات التى تقول بالفن للفن، إلا أننى كنت أعرف أن تلك النظريات لا تناسب مجتمعات المجتمع الثالث الذى لايزال إنسانه يتخبط فى كثير من المآزق الإنسانية... وأن الفن للفن - رغم أنه يحمل قيمة فنية عالية تمنح الإنسان المتعة، إلا أن ذلك - ترف ليس من حق الفنان فى العالم الثالث أن يتمتع به.

وحين أقول الفن للحياة فأنا لا أعنى ذلك الالتزام الحرفى الكئيب الذى يقتل روح الحياة فى الأدب، بل أعنى أن يكون الفنان ملتزما بإنسان مجتمعه أو بإنسان العالم كله دون أن تطغى أيديولوجية سياسية على توجهه لأن الأيديولوجية فى اعتقادى تقتل الأدب أو الفن بشكل عام. حين كتبت مجموعتى

الأولى(نهاية اللعبة) التى صدرت عام ١٩٩٢م بالرياض تناولت فيها بشكل تلقائى قضايا تهم الإنسان العادى مثل حرية الرأى وحرية العقل والوعى والخروج من مآزق الجهل والفقر والكره... إلخ.

ولكن تلك التجربة قادتنى إلى هاجس أن المرأة هى أكثر من يعانى فى مجتمعات العالم الثالث وربما فى العالم كله، إنها إنسان، والتعبير عن مآزقها هوتعبير عن هموم الإنسان بشكل عام.

وتتميز المرأة فى الوطن العربى وفى مجتمع الجزيرة العربية بخصوصية نادرة، أشعرتنى بأنه لا يمكن اختراق هذه الخصوصية إلا من امرأة تجيد التعبير عن عالم المرأة المغلق.. فقررت أن أخترق حصارها... وأعبرعنها... دون التحيز لما يسمى بالأدب النسائى.

أنا لا أصغى للتهم التى توجه إلى من يكتب عن عالم المرأة وأولها مقولتا الأدب النسائى والمطالبة بحقوق المرأة، لأننى أعتقد بأن العالم يتركب من هذا الثنائى (الرجل والمرأة) ويصبح الفصل بينهما غير عادل لأن همومهما واحدة.

كما أن وجهة النظر الذكورية قد عبرت عن نفسها طوال

تاريخ الكتابة القديمة... وقد حان الوقت لأن تستمع وجهة النظر الذكورية للكتابة عن العالم من وجهة نظر المرأة... دون رميها بالتحيز ، فالكاتبة توى موريسون الأمريكية(الزنجية) رفضت التهم الموجهة لها نتيجة كتابتها عن السود ووصفت من يحاول أن يجعل الكتابة عن السود أمراً متحيزا بالعنصرية.

أنا أرى أن العنصرية تمتد كذلك إلى هؤلاء الذين يصرخون حين تكتب المرأة عن عالم المرأة طالبين منها الخروج عن تلك الكتابة إلى الكتابة عن الرجل... وأشبهها بعنصرية السود والبيض.

والكاتب دائما يكتب عن العالم الذى يخبره... وعن العالم الذى يجربه ويعيشه لماذا يستعير تفاصيل الآخر طالما أنه فى الأخير يريد أن يعبر عن قضية إنسانية عامة... ولماذا لا يتيح لنا الرجال فرصة أن نعبر عن عالم لن يستطيع كل من يريد أن يرتاده.

القصة فى الأفق

إن واقع القصة مربوط كما يراه سكاربت (أحد العلماء المشتغلين بسيسولوجيا الأدب) بثلاثة محاور:

المرسل : الأديب

المرسل إليه: المتلقى

الرسالة : الموضوع الذى يريد الكاتب أن يعبر عنه.

والحقيقة أن هذه المحاور جميعها تحتاج إلى معالجة حين نتطرق لواقع القصة فى السعودية.

فالكاتب يريد أن يتغذى ثقافيا ليكتب ، إذ عليه أن يطلع على جميع الموارد الثقافية فى العالم، وأن يرتبط بمنابر ثقافية ليواجه فيها طريقة تعبيره عن نفسه ويتلمس رد فعل المتلقى الحر دون التأثير عليه. كما أن ظروف ثقافية واقتصادية كثيرة تحول دون تفرغ الكاتب للكتابة... فالكاتب العربى لايزال يعانى من أزمة السماسرة المثقفين... ويعانى على طرف آخر من كسل المتلقى وعدم حرصه على المتابعة، ويزداد الأمر صعوبة مع الانفتاح التليفزيونى العالمى... ليصير الكتاب فى أزمة حقيقية... في حين يرتفع سعر الورق... وتعتبر المعادلة خاسرة عند الكاتب الذى يضطر - عندما ينشر - أن يدفع من جيبه.. لنعزز من نظرية (الأدب النفطى) .. دون النظر إلى حقيقة أن ليس من العدل أن يدفع الكاتب ليقرأه الآخرون، كما أن هذا الكاتب الذي يدفع لن يحترمه أدباء العالم الآخر مدعين بأننا (تجار أدب) ولسنا أدباء.

والمتلقى أيضا لايزال فقيرا فى تجاربه، فمنذ بدأت أكتب

كنت أصر على أننى لا أكتب للنخبة من المجتمع، ولا يهمنى آراء المثقفين أو النقاد بقدر ما يهمنى رأى القارئ البسيط إلا أن افتقاد قنوات الاتصال بين الأديب والقارئ كان عاملا مهما فى خسارة الرهان على القارئ الذى لايزال تراثه الأدبى وقفا على تجارب السباعى وجيل السبعينيات معتقدا أن هذه الكتابة هى نموذج الكتابة فى الأدب.

أما الرسالة الأدبية فإن أهميتها تكمن فى مدى قيمتها الفنية والإنسانية.

ولكى تتحقق القيم السابقة فلابد أن يجد الأديب فضاء حرا ورحبا، بينما لايزال الأديب فى الوطن العربى يصطدم بسقف منخفض، وكلما فكر بالقفز أعلى اصطدم رأسه بذلك السقف.

إن الأديب لا يمكن أن يفكر إلا فى سديم رحب لا تحده سقوف.

تجربتى مع القصة .. بين القراءة والإبداع

محمد على قدس

تجربتى مع القصة بدأت منذ القراءات الأولى..، قرأت منذ أن كنت طالبا فى الإعدادية وأواخر الابتدائية قصص جورجى زيدان وروايات الهلال وقصص نجيب الكيلانى ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار ومحمد عبد الحليم عبد الله، وفى سن المراهقة قرأت لغادة السمان وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس.

وأرجع السبب فى اهتمامى بالقصة والاستمتاع بالأحداث إلى حد الإدمان إلى جدتى لأمى التى كانت تقص علينا قصصا أدرك تماما أنها ساهمت فى توسيع آفاق الخيال لدى... وأخذت جدتى تضيق منى حين كنت ألجأ لمقاطعتها وأحيانا بحرق أوراق حكاياتها المشوقة حين أستنتج النهاية أو وقوع الحدث كما مر فى أحداث الحكاية.

كتابتي الأولى في النص القصصي كانت محاكاة لتجارب الذين تأثرت بإنتاجهم سواء نجيب محفوظ أو جي دي موباسان أو دوديه أو فلوبير أو تشارلز ديكنز وأحيانا أجاثا كريستي.

حين وصلت إلى درجة من النضوج في عملية التذوق للنصوص القصصية وجدتني بحاجة لقراءة القصة الأجنبية لمعرفة الاختلاف، والوصول إلى مستويات مختلفة في التكنيك القصصي الذي أدركت أني قادر على فرز الكثير من النصوص بمجرد قراءتها لأعرف ما كان يتميز به نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغادة السمان ثم دوديه وموباسان.

كان أول نص قصصي أقدمت على نشره بعد محاولات متعثرة في الصحف المحلية نص بعنوان «دعها لي» وقد نشر في مجلة الخواطر اللبنانية عام ١٩٦٥م وكنت في المرحلة الثانوية، وكان واضحا تأثري بالتجربة الفرنسية.وأول نص فرحت به حين كانت له خصوصياته .. ووجدت فيه شخصيتي التي تبرز خصوصيتي البيئية... كان هو النص الذي نشرته في المدينة الأدبية عام ١٣٩٢هـ وهوبعنوان «مقهى آخر الليل».

إنني اليوم أكتب القصة بعشق كبير... وهو حب كان نتيجة تراكمات مشاعر وأحاسيس ومعاناة تفاعلت معها على مدى

سنوات طوال، والنص الذى أكتبه... غير ما كنت أكتبه فى بداياتى لمجرد الكتابة ، فأنا أعطى النص الكثير مما يختلج فى نفسى .. وفى داخلى .. فأنا أغترف من أعماقى.. ورؤاى لا حدود لها.. تجربتى مع النص تجربة تفاعل وأسر.. فالفكرة التى أختزنها فى عقلى الباطن لا أستجيب لكتابتها حتى أجدنى قد وقعت أسيرا لها فتكتبنى الفكرة ولا أكتبها...

بعد سنوات طويلة وخمس مجموعات قصصية أشعر بكثير من الارتياح حين أستشعر الرغبة فى تجاوز الواقع... بحثا عن نص الدهشة ومادمت أجد نفسى فى كتابة القصة بحيث تتلبسنى جميع الانفعالات والمؤثرات حين كتابتها وأنتصر على رغباتى بالكتابة فإن الوصول إلى قمة الإبداع والنص الذى يشد الانتباه عملية غير سهلة، وإن كان البحث فيها شيقا ومحفزا..

الحكاية والقرية

محمد علوان

هو المكان الذى يمنح القلب هذا الوجدان وهذا الانتماء، هو المكان الذى يمتد ويتسع داخل الذاكرة عند محاولة استرجاع تلك الصورة من الماضى فى محاولة لالتقاط هذه الصورة التى غابت داخل ذاكرته، ذلك الطفل الذى لا يملك معرفة يقينية بعالم المكان ، لأن معنى ذلك العفوية المترصدة لدهشة الاكتشاف بمفردها فكيف بالاكتشاف بنفسه.

هوعالم المكان الذى يدخل البهجة حيث يخطو صاحبنا ليرى الجبال التى ما برح يحلم دائما بالوصول إلى قممها العالية حيث يشعر حينئذ بالانعتاق والوصول، إلا أن المجهول الذى يحيط بهذه الجبال يمثل له الوحشة والرهبة والخوف داخل القلب..

يخطو صاحبنا ليرى الوديان السحيقة حيث يتابع الشمس فى رحلتها نحو الغروب، هاهو ذا يتلذذ بمرأى الضباب

ويستعيد دائما تلك الأهزوجة التى طالما رددها مع رفقته أغنية تصف هذا الضباب القادم من تهامة باحثا عن عروس سروية طويلة القامة، يبحث عن هذه العروس ويتجول بين القرى مرتديا عمامته الناصعة البياض هاهو ذا صاحبنا يستعيد صورة بلدته الصغيرة أبها بأحيائها المتناثرة، وذلك الوادى الذى كان يراه فى ذلك الوقت أكبر وأعظم الأودية وخصوصا عندما يمتلئ بالسيول الجارفة المندفعة من رؤوس الجبال، ما أكثر ما يهطل المطر، حتى حفر فى ذاكرته سماع صوت الرعد ورؤيته للبرق تلك الرائحة العظيمة للأرض بعد المطر، والغناء عن المطر لايزال يصدر من رفقته وهم يغنون فى دهشة طفولية عن هطول المطر والشمس تخرج من بين السحب.

هاهو ذا يتذكر سوق الثلاثاء، وهو السوق الأسبوعى لمدينة أبها منذ زمن طويل، وكيف كان يلعب هو ورفقته بين تلك الدكاكين المؤقتة التى ينصبها التجار فى وسط السوق عصر الاثنين من كل أسبوع، وها هو ذا منظر قوافل الجمال التى تحمل البن والطب وأكياس الفحم... قوافل الحمير التى تحمل الفاكهة من القرى المجاورة، النساء الجميلات اللاتى يهبطن من رؤوس الجبال ليبعن الفاكهة والريحان والكادى.

من مناطق، فقد كانت قبل ميلاد المملكة حاضرة للأتراك لفترة زمنية طويلة، حيث أخذت منهم الشيء الكثير من صفات المأكل والمشرب.

تبدأ القصة لديه منذ أن بدأ يرقب الأشياء ويحاول الربط بينها، يسمع كثيرا ويتحدث قليلا، أتيح له السفر المبكر من بين إخوته ورفقته فعرف الشام، وعرف جدة ثم ذهب وراء البحر فعرف مصر ولبنان برفقة والده.

كان الكتاب والصحيفة والمجلة لا تبرح المنزل، حيث يذهب كل أسبوع ليأتى بالصحف والمجلات المصرية من وكيلها فى أبها فى منزل صغير فى أحد الأحياء، ذلك المنزل المشبع برائحة حبر المجلات الذى طبع فى ذاكرته حتى هذا اليوم.

حين يهبط الليل يسمع القصص الجميلة من جدته التى تقرأ بشكل جيد وتعرف بعض الكلمات والعبارات التركية وفى المقابل يسمع القصص الموحشة من خالته حتى لم يكن ليجرؤ على إغلاق النافذة، خوفا من الأشباح التى كانت تمثل أبطال القصص التى تسردها هذه الخالة، وهم مجموعة من الأشباح تحمل أسماء ترتبط بالحيوانات مثل الجمال والماعز، ومخلوقات تصدر أصواتا غريبة وعجيبة، هو بطبيعة الحال لم يسمعها فى

حياته، لكن قدرة السرد التى تتمتع بها خالته والوصف المدهش للحيوانات بشكلها الخرافى وحركتها غير المألوفة بالجن خلقت لديه معرفة شبه يقينية بالصوت والشكل والحركة.

تلك الدكاكين المسقوفة التى تحيط بالسوق الكبير بشكل مستطيل، وذلك العود فى وسط السوق حيث يرتفع فوقه الأتريك الذى لا يضىء إلا بقعة صغيرة، وفى يوم الثلاثاء كانت ترتفع بدلا منه يد مقطوعة لسارق نفذ فيه الحكم، العم الذى يبيع الهيل والخناجر، يتعامل مع البدو الوافدين بالسم الصافى والعسل النقى يسمع حكاياتهم وخصوماتهم، قصص الثأر بينهم، قصص العشق ووصف النساء، كانت هذه الصور جميعها تخلق لديه معنى الحكاية.. وهاهو ذا كل صيف ينتقل لدى خؤولته ليرى الجد نائبا للقبيلة، ويراقب فى رهبة كيف تدار الأحاديث، كيف يصمتون عندما يتحدث النائب، لأن له القول الفصل فى كل الأمور.

يهبط إلى سوق الاثنين ليرى البدويات الجميلات يبعن السمن، هاهو ذا يرقب أحاديث الغزل بين الفتية كبار السن من جانب وبين بائعات الفاكهة، هاهم أولاء الشباب يتفاخرون بشعورهم الطويلة فوق أكتافهم كرمز للرجولة والشجاعة.

هو المكان سيد البداية، حيث تبدأ الأشياء فى نموها الطبيعى، تتشابه من قرية إلى أخرى، هذا فى وصفها العام، إلا أن لكل قرية طعمها الخاص ومذاقها الذى لا يخطئه القلب، فى لبس المرأة المتزوجة، وتلك التى لاتزال تنتظر فارس الأحلام فى الحقول بمحصولها عبر الفصول، فى أناشيد الرعاة وراء الأغنام، فى أغانى المزارعين وسط الحقول، أصوات العمال عند بناء البيوت أو زمن الحصاد، فى حفلات الزفاف أو الختان... هو المكان الملتصق بالناس بنبضهم اليومى ومعاناتهم، هو المكان يهب لمن يملك القدرة على ترجمة كل ذلك إلى عمل فنى نابع من بين صفوفهم، من القصص الأولى التى يتناقلها الناس فى الجنوب هناك فى أعالى أو فى مناطق تهامة أو على ساحل البحر حيث يفيض بغناء الصيادين المتعبين.

يقول الروائى العربى حنا مينا فى كتابه هواجس فى التجربة الروائية:

وليت الكتاب جميع الكتاب وأنا فى المقدمة، يستطيعون اقتلاع مؤخراتهم من المقاعد الوثيرة والاستغناء عن حياة العاصمة المريحة والكف عن تدبيج المقالات والقصص دون رصيد، أى دون خبرة حياتية، وينفرون بعد أن ألفهم آخرون،

وألفوا الآخرين وصارت حياتهم ضمن مربعات محددة، ليت هؤلاء يعودون إلى الريف والجبال والسواحل ويغامرون فى اكتشاف بيئات خرجوا منها، وأخرى لم يعرفوها، ففى مثل هذه المغامرات، على أساس المعايشة لا السياحة، مادة أدبية هم بأمس الحاجة إليها، والشعب والوطن مصدر هذه المادة وغايتها، ثم يكمل هنا منهيا كلامه قائلا: أيها الأدباء هاجروا بالاتجاه المعاكس وغادروا العاصمة كالرسامين حاملين عدة الشغل والاستعداد للملاحظة والفهم.

وحين يمكن لى أن أتحدث عن القرية كأساس لبناء الكثير من القصص لدى، تنثال الكثير من الذكريات، يتدفق شلال من الفرح والصور المتزاحمة، القرية فى الجنوب تمثل رمزا رائعا لمعنى الحب والألفة، بدأت القرية تنحسر الآن وانحسر ما يسمى عرف القبيلة وقانونها الذى يحترمه الجميع، القرية فى الجنوب يمثل داخلها وحدة متعاونة فى كل شىء، الجميع يتعاونون فى البناء فى الزراعة بكافة مراحلها فى حفلات الختان والعرس.

القرية كانت تنمو بشكل طبيعى وهى بعد ذلك بدأت تفقد رويدا رويدا الوجه الإنسانى الأليف حيث ظهرت المصالح الفردية وغاب معنى الجماعة، القرية عندى بما تحمله من أشكال

متعددة للموروث الشعبى، هى ما استطعت التقاطه فى معنى الصراع الناشئ من المطر والجفاف، العشق والخيانة، الصدق والكذب، هل لتلك الأشجار الكثيفة والجبال المتلاصقة صداها فى النفوس؟ حيث كل شىء جاد وصارم وحاد؟ أعتقد ذلك، ولذا كانت المنطقة تتميز بشكل أو بآخر بسرعة الانفعال.

الأسواق الأسبوعية التى جاء ذكرها ، تمثل نوعا من التلاحم بين القرى، هى المجال للتعارف والحصول على المعلومات، معرفة أسعار القمح والعسل والسمن، معرفة أماكن سقوط المطر، وللمطر فى مناطق الجنوب مــعنى بين الناس يكاد يصل إلى مرتبة من مراتب مزارعهم ومواشيهم مرتبطة بهذا المطر. القصة تمثل لى قيدا أقل من الشعر الذى حاولت التعبير بواسطته ثم وجدت أنه لم يستطع التنفيس بما فيه الكفاية، فكانت القصة وعندى أن الجنوب ثرى بقصصه وأحداثه واختلاف تضاريسه الجغرافية التى يتبعها ، بطبيعة الحال، اختلاف التضاريس النفسية، إن صح التعبير.

القصيدة فى رأيى أو قل الأغنية يمكن لك أن تبوحها بين الناس أو بمفردك، أما القصة فلابد من طرف آخر، هكذا أرى القصة. والعلاقة بين تجربتى البسيطة والقصيرة فى هذا النمط

من أنماط البوح والتعبير وبين الموروث الشعبى، ينطلق فى الأساس من حكاية تقليدية أو شعبية تحمل لها النكهة الخاصة وقل هى تحمل صفات وأوصاف القرية أو المدينة أو الأبطال، لدى مجموعة من القصص التى كتبتها ترتكز فى أساسها على قصة شعبية متداولة، ربما تصلنى ناقصة، أو مشوهة، ولربما حملت من جانب آخر المزيد من التفاصيل والشروح والمبالغات إلا أن فكرتها تنمو فى خاطرى ثم يعاد تشكيلها وتنفجر من جديد على هيئة قصة جديدة (من وجهة نظرى)

أقول ذلك بعد أن حدثت الكاتب والصديق المصرى محمد البساطى عن فكرة قصة الحكاية تبدأ هكذا فى أساسها الشعبى، ثم قرأها مكتوبة، واختلف معى كثيرا وقال: إن القصة الشعبية لازالت أكثر ثراء وغنى.

وهذا الموقف يؤكد ما للخيال الشعبى والذاكرة الشعبية من قدرة فائقة على التكثيف الذى يفتح الطريق لإعادة التشكيل بتأثير من وعينا وثقافتنا، ورؤيتنا الخاصة للناس والأشياء ولذلك، أعتقد أن الرواية هى المجال الخصب لتحديد ملامح القرية، المدينة، مجموعة الناس والتفاعل الناشئ عن وجود مجموعة من التقاليد والأعراف والقوانين، وحركة الفعل

القرية، المدينة، مجموعة الناس والتفاعل الناشئ عن وجود مجموعة من التقاليد والأعراف والقوانين، وحركة الفعل الاجتماعى ، حيث تتطلب الرواية، الوضوح، والمزيد من الحرية، لما تتميز به الرواية من مساحة الزمن والمكان، والقدرة على الوصف والسرد وتعدد الأبطال.. إلخ، بعكس القصة القصيرة التى غالبا ما تكثف هذه العلاقة الخاصة بين الفرد ونفسه، وبين الفرد وعلاقته بالآخرين.

وسوف أحاول فيما تبقى أن أورد بعض المقاطع التى أخذت المثل الشعبى أو الحكاية الشعبية أو حتى بعض المعتقدات الشعبية مرتكزا من مرتكزات القصة وقراءة القصة كاملة سوف تبين مدى قدرتى، نجاحى أو فشلى فى محاولة دمج هذه الصور داخل العمل الفنى بصورة متكاملة مترابطة ومتناغمة.

فى مجموعة «الخبز والصمت» نقرأ هذا المقطع من قصة «الطيور الزرقاء»: «وقالت العجوز الثرثارة تفسر نباح الكلب: «الموت والحياة نفس جديدة تفدأ وهو الجسد يملها الحياة»، وهذا اعتقاد شعبى فى منطقة الجنوب حين يسمع نباح الكلب بصوت معين فمعناه موت مريض أو ولادة امرأة.

ويبرز عدد غير كبير فى محاولة لاستعمال بعض الأمثال

الشعبية التى يستدعى الموقف وجودها مثل «الحرمة حرمه تاليتها الرحى والبرمه» أو «نومة الديك على الحبل».

وفى قصة «الخبز والصمت» يمكن متابعة هذه الصورة «استلقى على فراشه ، يتابع بأنظاره السقف الخشبى ، بأعواده المترامية، حيث غلب عليها اللون الأسود القادم من تنور أنهكته النار المشتعلة المنزل بردا وجوعا ، هى صورة نشاهدها ونعرفها فى الكثير من قرى الجنوب حيث الكرم يمثل رمزا من الرموز التى يؤكدونها فى الكثير من تصرفاتهم وأعمالهم، ولا يمكن التخلى عنها ، حتى وإن كانت تحملهم أعباء مالية قد تصل إلى الدين أو بيع أهم الممتلكات.

فى قصة «المرأة المشروخة» ضمن مجموعته «الخبز والصمت» تدور جميع أحداثها وسط سوق من الأسواق الأسبوعية وإن كان مسرح الحدث ينتقل إلى مكان آخر، لتعميق اللون ويبرز صفات الناس الجسيمة، يقول أحد هذه المقاطع : «استند إلى جدار الوادى المملوء بالأشجار من كل نوع، قبل أن يجلس مفترشا الأرض، شجرة التوت بثمارها الحمراء، تجعله يمد يده، ليقطف أوراق التوت تتساقط أمامه بعد جذب الشجرة، بالكاد يحصل على واحدة، ياسوء الطالع شديدة

المرارة، أخرج سكينه، قدمه من أسفل طبقة سوداء تشعر من يشاهدها بأن لها زمنا موغلا فى القدم، لم تعرف الماء، شهراً، شهرين، الدنيا برد والغدران تكون دافئة وقت الظهر، حيث يكون منهمكا بعمله الذى يدر عليه دخلا محترما، مقابل حماية المزارع من الطيور.

فى قصة «الجسر» تنضج الكثير من الصورة، بل والعادات المنزلية مثل القيام بتنظيف زجاج الفانوس ونثر البخور وتحضير القهوة، حلب البقرة ، إطعامها ، تجهيز التنور لإنضاج الخبز، هذا الجسر الذى كانت تحلم به الصغيرة لينقلها إلى المدينة، خرجت دمعتان لم تدر أهى خيبة أمل، السيارة مخلفة وراءها الغبار، الصغيرة تشاهد الجسر... لكنه جسر مكسور، عادت لتجد أمها تحلب البقرة، قبلت أمها، ثم قبلت البقرة والأم تتعجب ثم تمضى فى الحلب.

يقول الدكتور سعد البازعى من خلال دراسة نشرت فى جريدة اليوم فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ تحت عنوان «مرآة الحداثة المشروخة» قراءة أولية لأربع قصص لمحمد علوان: فى توظيفه رمز المرآة المشروخة يلتقى محمد علوان مع الحداثة فى أكثر تياراتها اتساعا: دون أن يفقد - وهذا مهم جدا

ـ خصوصيته الثقافية أو الذاتية، فالمرآة المشروخة تظل جزءا من عالم قصصي تملأه الأرض رائحة، وأهل القرية البسطاء حياة وحركة وانفعالات: الحب ارتباط رائع، امتزاج تمثله المرأة والأرض، هناك انفصال، الإنسان بلا أرض،إنسان بلا حب «قصة الاتجاه شرقاً فليس وجود تلك المرأة إلا نتيجة البحث الدائب عما وراء المظهر السطحي البسيط لجوانب معينة من حياة البشر سواء في القرية أو خارجها، وبديهي أن ذلك البحث لم يكن ليبدأ لولا الارتباط بالإنسان والأرض ، ولولا الهاجس الجميل في نقل ما ينكشف للفنان إلى الآخرين.

في المجموعة الثانية «الحكاية تبدأ هكذا» الصادرة سنة ١٤٠٣هـ ـ سنة ١٩٨٣م. تبدأ هذه العلاقة بيني وبين الموروث الشعبي في مقطع يربط الإنسان وانفعالاته وهذا التنوع الجغرافي حيث يقول «نحن ننطلق من العاطفة ونعود إليها، هذه الأرض بأجوائها المتقلبة، بطبيعة أهلها، أرضها المتباينة، أصابتنا بالعدوى، عدوى الانفعال، الثأر، الكرامة.

في قصة «النجم والحذاء» يتضح البطل فيها، ذلك الجنوبي الذي يبحث عن الرزق فلم يجد بدا من الالتحاق بالجندية رغم معرفته من خلال مثل شعبي أن «تالي العسكرة لاش» ليلتحق

قريبة هكذا بعد أن يجمع المال ينفقه للزواج وعليه أن يرحل.

يستعيد ذكرى تلك الليلة: «رقص كثيرا، استحال جسده إلى فعل راقص، وإيقاعات الخطوة تطير به وتنخفض، يكاد يقترب من الأرض، يرفع نظراته المتوترة إلى الوجوه المنفعلة ويعود الإيقاع المتوتر من جديد، نال منه التعب وتلك ليلة عرسه، هى نال منها الجهد والتعليقات السمجة، الخوف، البيت الصغير والسكان كثيرون، وواحدة من أهلها تطمئن عليها، من يعرف؟ أيغالبهم النوم؟ هاهو ذا الصمت يسرى، يسكت كل شيء يفقده الحركة، يلمس الأجساد فتظل هامدة من كل حركة إلا أنها تسمع، تحول المنزل فى تلك الليلة وسكانه إلى أذن كبيرة، الأم، الأب، ثلاث بنات، أخواته يكبرنه ويعرفن كل شيء، يترقبهن ، وامرأة عجوز، تنتظر صرخة واحدة، صرخة مبتلة بالعرق والدم، لتعرف من بعدها أن الحظوة من أهل الفتاة ستكون من نصيبها، تخبرهم أن الأرض بكر، سيفرحون كثيرا.

هذا هو ما يحدث فى الكثير من القرى فى ذلك الزمن البعيد، رموز للشرف والعذرية، وتقاليد الأسر.

ولو انتقلنا إلى مقطع آخر فى نفس القصة لوجدنا هذه الصفة الملازمة لأهل الجنوب وكل القرى التى تعتمد العمل

اليومي والحركة الدائبة، وهو هذا التحول الذى قد يكون من تأثير مرض أو سوء تغذية يقول «لو رأته الحبيبة النائية، هناك فى قريته الجبلية، سوف تنكره حتما، تحسس بيده كل هذه الملابس، أدرك أنها واسعة سيحاول جاهدا أن يجعلها على قياسه، فهو ضائع فى داخلها لكنه ما لبث أن عدل عن فكرته، لأنه فى خلال الأسابيع القادمة سيشعر باعتدال الصحة، كثير هم أولئك العائدون من المدينة، يراهم وقد انتقلوا من حال إلى حال، حمرة فى الوجه وبياض فى البشرة.

فى قصة «الحب والمطر» يظهر الوصف لمدينة أبها أو القرية الكبيرة حينذاك المطر ينهمر بغزارة، الطرقات يملؤها الوحل، لاترى شيئا حتى الأبقار والحمير الضائعة ، تقف هنا وهناك فى مكان يقيها هذه السيول المندفعة من السماء» وتنتقل إلى مقطع آخر «المنازل الطينية لا يمكن أن تكون مبعثا على الطمأنينة فى مثل هذه الأحوال، دقائق، وصل المراقب همس فى أذنه كلاما، عرفنا ما يقصد، جمع المد رس أوراقه، التفت إلينا قائلا «فيدوس وهى كلمة تركية تعنى انصراف حين يخرج الأطفال يغنون بفرح وبصوت واحد ياحنان يامنان، ياربي تسقينا الغيث، وتسقى جميع المسلمين يامولانا، لا تنسانا.

الأطفال يغنون بفرح وبصوت واحد ياحنان يامنان، ياربى تسقينا الغيث، وتسقى جميع المسلمين يامولانا، لا تنسانا.

ويتكرر منظر النساء والرجال يحثون الأطفال على اللجوء إلى المنازل خوفا من المزيد من ازدياد كمية المطر فربما أصبح نوعا من العذاب إذا استمر فترة طويلة.

يقول الدكتور محمد صالح الشنطى فى كتابه «القصة القصيرة المعاصرة فى المملكة العربية السعودية - دراسة نقدية «الصادرة سنة ١٤٠٧هـ ص ١٤٣: يتحرك محمد علوان - وخصوصا فى مجموعته الأولى «الخبز والصمت - فى اتجاه تكوين عالم خاص متمرد على معطيات الواقع، وهذا العالم أقرب إلى الأسطورة فهو يتجاوز البعد المكانى والزمانى ليغرق فى فيض شعرى ويتعامل مع عناصر كونية، فالقرية الملحية - (وهي قرية واقعية الملامح) ولكن الكاتب ينتزعها من وجودها الواقعى ليحولها إلى ساحة أسطورية - إلى أن يقول : وهو فى منهجه هذا لا يعمد إلى تقديم قصة أسطورية واضحة المعالم، وإنما يلجأ إلى بث الأجواء الأسطورية وبذر عناصرها ، فكثيرا ما تختلط الأحداث الواقعية بالوقائع الأسطورية، إنه يقيم أسطورته الخاصة مستغلا الكثير من العناصر الفولكلورية والموروث الشعبى مستفيدا من تراث البيئة المكانية وملتحما بها.

وفى مجموعته الثانية «الحكاية تبدأ هكذا » ينسج (الرؤيا / النبوءة) من خيوط الحكاية الشعبية ويوظفها توظيفا جديدا مستغلا عدة عناصر منها: سلسلة السند المألوفة فى التراث كنوع من التوثيق مما يكسب الحكاية عنصر اليقينية... إلخ... ذلك حتى يأتى فى النهاية إلى القول: وهو ينغمس فى أجواء الأسطورة الشعبية مضيئا لها من خلال آفاق المستقبل بروح متفائلة ترى إلغد فى عيون الأطفال الذين ينهمرون من غيب القرية ليفرشوا الساحة بساطا أخضر.

فى نهاية هذه التجربة أود القول إن ماقدمته للساحة الأدبية فى المملكة لا يمثل إلا تجربة ضمن تجارب لمجموعة من الكتاب يمثلون هذا البلد أروع تمثيل وأصدقه وربما أن لديهم من عمق التجربة والمعاناة بحسب بيئة كل واحد منهم ما يفوق تجربتى وهم - ولله الحمد - كثر، لعل فى مقدمتهم: عبد الله السالمى وحسين على حسين وجار الله الحميد، وفهد الخليلوى، وخيرية السقاف، ورجاء عالم ، ورقية الشبيب، وحسن النعيمى، وعبده خال، وصالح الأشقر، وعبد الله باخشوين، وعبدالعزيز مشرى، وناصر الغديلى، والكثير والكثير مما لا تحضرنى أسماؤهم فى هذه اللحظة. إلا أنهم قدموا ولازالوا يمنحون الساحة الأدبية عطاء متميزا، آمل أن يحظى بالتقدير ضمن القصة العربية بشكل عام.

الهوامش

(*) مجلة « قوافل» السعودية ـ السنة الثالثة ـ العدد الخامس ـ جمادى الأولى ١٤١٦هـ (١٩٩٥).

١- لمقصود سؤال «قوافل» : كيف ترى تجربتك

القسم الثانى

مختارات قصصية

القصص المختارة

م	القصـــــــة	المؤلف
١	الرهان الخاسر	إبراهيم الناصر الحميدان
٢	السوسة	تركي العسيرى
٣	الخاتم	حسين على حسين
٤	بوابة الموت	خالد محمد الخضرى
٥	امتداد سنوات الخصب والوجع	خليل إبراهيم الفزيع
٦	سر الساعة	خيريه السقاف
٧	الأصلة	رجاء عالم
٨	دوائر عرضية	رقية الشبيب
٩	الصمت والجدران	سباعى أحمد عثمان
١٠	من ثقب الباب	سحر الرملاوى
١١	امرأة أخرى	شريفة الشملان
١٢	الهديل	عبد العزيز مشرى
١٣	الحفلة	عبد الله باخشوين
١٤	اللوحة	عبدالله باقازى
١٥	نبت القاع	عبده خال
١٦	المستحيل	عمرو العامرى
١٧	العصفور يطرح الأسئلة	عهود الشبل
١٨	الصفعة الأولى بعد الألف	فوزية الجار الله
١٩	أبواب وطرقات حائرة	فهد العتيق
٢٠	اللحظات الموحشة	قماشة عبد الله السيف
٢١	الدخول فى تفاصيل حلم لاينتهى	محمد على قدس
٢٢	الإنحدار	محمد منصور الشقحاء
٢٣	امرأة للبيع	محمود المشهدى
٢٤	أعيدوا إلىّ كفنى	مريم الغامدى
٢٥	البكاء على صدر القبيلة	وفاء الطيب

الرهان الخاسر(*)

إبراهيم الناصر الحميدان

فى ليلة شتائية دهماء وضعونى فى صندوق خشبى ، تحيط به بعض الأنوار الشاحبة. وعلى جانبى الصندوق ذراع حديدية ترفع كهربيا من الداخل . كانت الغرفة الخشبية بوابة الخروج ودخول العربات الصغيرة إلى الحى الرابض فى وسط منطقة تفوح منها رائحة البترول ورائحة نيران موقدة لا تنطفئ منذ بضع سنين... شعلتها توضح المعالم من أماكن بعيدة. كان الحى يقطنه كبار الموظفين من جنسيات مختلفة مع عائلاتهم. المساكن متراصة ، بينها طرقات مزروعة بالورود تقف منسقة إلى جانب خيط من الأسفلت يفصل بين الشوارع الواسعة قليلا والتى تحاذيها إشارات مرورية تعمل أوتوماتيكيا، والقليل من الأطفال يمرحون فى تلك المساحات الخضراء بين المنازل الجميلة والتى جرى تأثيثها بكافة ما تحتاجه الأسر الحضارية فى البلاد

المتمدنة بعيدا عن هذه الصحراء القاحلة.

كان عملى الأساسى تحريك تلك الذراع الكهربائية يمينا أو شمالا عند رؤية العربات التى تحمل إشارات الشركة ترغب فى المرور من هذه البوابة داخلة أو خارجة تحمل بعض المسئولين أو أفراد أسرتهم. وهو عمل كما يبدو من السهولة بمكان لولا معاناة سهر الليل الطويل، فى وحدة أقرب ما تكون إلى السجن الانفرادى والذى يتطلب اليقظة حتى الصباح داخل غرفة زجاجية يمنع الدخول إليها. أحضرت معى دورقا للقهوة مع الفناجين وإناء للشاى يغليه موقد كهربائى بواسطة السلك، وقد اقتضى تدريبى على فهم طبيعة العمل أن آتى بضع ليال حتى لا أجهل بعض التعليمات ومعرفة المخاطبة عبر جهاز الهاتف بكلمات مختصرة ذات معانٍ محددة، وأصعب تلك المهمات هى معرفة نوع وأرقام العربات التى مرقت عبر غرفة الحراسة التى أتجول فى داخلها لأن بعض الرؤساء أو النساء يسألون عن بعض الأفراد لمعرفة تحركاتهم، وقد اضطررت من جانبى أن أخرج بضع مرات حتى أحتال على السأم فى تلك الوحدة المخنوقة بالأخشاب الملونة من كل جانب تصفر فى تضاعيفها الرياح الباردة لولا أن زمهرير الشتاء يقضى بسرعة فأعود

أدراجى مرتجفا وأسنانى تصطك من عنف الرياح. ومع عدم إجادتى اللغة الأجنبية فقد كنت أحاول استدعاء كافة ما أذكره منها حتى تكون إجاباتى صحيحة لاسيما إذا كان الصوت النسائي على الطرف الآخر من الهاتف ذا نبرة مثيرة، يساعدنى على إضاعة الملل ذلك الكتاب الذى لا أستطيع السلوى بدونه مهما كانت الأحوال كشاب من جيل القراءة الذى أفرط الزمن فى إقصائه عن مناطق الثقافة والنور فنبت فى هذه الصحراء الشحيحة فى نشر الثقافة بين أبنائها بسبب الفقر ومطاردة لقمة العيش فى كل مكان اتجهوا إليه فى القديم.

كنت أسمع رنين الهاتف الواطئ الصوت فأتجاهله معتقدا أنه يدق فى مكان آخر، لأن انغمارى بما أقرأ يجعلنى أعيش فى عالم آخر بعيدا عن حاضرى، لذا فإنه من المعتاد أن تطرح على بعض الأسئلة مثل أين كنت ولماذا لا تجيب بسرعة؟ خاصة وأن رئيس العمل شاب مغرور مثل الجلف يتباهى بإجادة اللغة الأجنبية وهى تمثل كافة مواهبه حيث لا يجيد المخاطبة الواعية فى أى موضوع أناقشه، وهذا ما جعلنى أنفر من العمل لأنه مسئول عنه ومضيت أقرأ روايتى بنهم لأنها ذات حوادث تشد قارئها بقوة، وكنت قد تهالكت على كرسى وثير وأرحت قدمى

على طاولة صغيرة بينما بدأ الرنين يتصاعد متجاهلا إياه عمداً، حتى أغضب رئيسى الجلف الذى كان لدى إحساس بأنه على الطرف الآخر لأن الساعة كانت بعد منتصف الليل. وبعد حين تراخت يدى على الكتاب بينما السطور بدت غائمة تتقاذف أمام ناظرى ثم رحت فى إغفاءة سريعة بدت كافية لأن تجعل ذلك الجلف الذى يراقبنى يدق على باب الغرفة الخشبية وابتسامة صفراء تنطبع على شفتيه بغطرسة بعد أن انتصر على فى الرهان فقلت له مباشرة وأنا أفتح الباب له بدون تردد: هذا العمل..لا يناسبنى.

فرد على متباهيا:انتصرت عليك فى النهاية... هذا هو المهم

فكتمت غيظى وقذفت له سلسلة المفاتيح قائلا: استلم عملك .. أيها الكريه وخرجت إلى الفضاء الشتائى بلا عمل .

(*)وردت فى مجلة «الراوى» السعودية العدد الثانى ـ جمادى الآخر ١٤١٩ = سبتمبر ١٩٩٨.

السوسة(*)

تركى العسيرى

ـ كنت حديث عهد بالوظيفة!

* نعم فلم يكن قد مضى على تعييني مديرا لقسم مكافحة الآفات الزراعية وقتا طويلا؛ لذا فقد كنت متحمسا لعملى الجديد... ومتحمسا أكثر لوضع حد لتلك السوسة الخبيثة التى راحت تلتهم أشجار النخل، وتلتهم معها آمال المزارعين البسطاء وضنى سواعدهم المعروقة.

ورغم أن المسافة من بيشة - حيث أقيم - إلى تبالة لم تكن تحتاج منى إلا إلى نصف ساعة أزجيها فى الاستماع إلى حديث مذاع أو موسيقى هادئة ورغم ذلك فقد استيقظت مبكرا على غير عادة... لأتقى شر جلبة السيارات القادمة من القرى المجاورة ورعونة سائقيها، وتناولت إفطارى على عجل.. ثم انطلقت بسيارتى ذات الماركة القديمة.

كان الطريق مثاليا لمن يكره الزحام مثلى، ولم تكن الحركة قد دبت فى الطريق، بينما راحت أشعة الشمس تطل بخجل من وراء الأكمة البعيدة، غير أننى لم أكد أبتعد قليلا عن المدينة... حتى بدا لى من بعيد رجل قروى وامرأة يرفعان أيديهما... يحاولان باستماتة إيقاف السيارات القليلة التى تمر غير عابئة بإشارتيهما اللتين تصلان إلى حد التوسل والاستجداء.

توقفت على مقربة منهما... فاندفع الرجل ذو الملامح القروية الحادة إلى وبنبرة منكسرة قال لى بلهجته الريفية اللذيذة: معك «ياالأخو» إلى تبالة! وحينما أومأت برأسى فتح الباب وارتمى فى المقعد الخلفى، بينما وجدت المرأة حرجا واضحا فى الجلوس على المقعد الأمامى.. ولذا فقد ألقت بنفسها بجوار الرجل العجوز على مضض. وبدا لى من نظراتهما إلى بعضهما أنهما لم يكونا متآلفين تماما.

كانت نظراتهما اللتان رحت أرمقهما من خلال المرآة. تشى بنوع من عدم الرضا والوفاق، رحت أغدو السير، والطريق يمتد أمامى بثقل، ورغم أنهما ظهرا لى كتمثالين حزينين من الخشب لايكادان ينبسان ببنت شفة... وعلى غير عادة أهل القرى.. فقد احترمت صمتهما، ثم لم يلبث الرجل أن مد يده لينتزع شيئا ما

من يد المرأة... التي لم تقاوم ولكنها رمقته بنظرة مريبة... كانا يهمهمان بكلمات خافتة لم أستبن كنهها، ثم ما لبث أن رفع الرجل صوته بعد أن استدار صوب المرأة: أنت امرأة قليلة أدب.. ما فيك معروف!

- ولكنى قلت له الصحيح (قالتها المرأة)

- الصحيح..أي صحيح ياامرأة؟

شدنى الحديث فرحت أصغى السمع جيدا إلى حديثهما غير الودى بالمرة.

صمت الرجل قليلا ثم تابع:كان بإمكانك أن تقولى للقاضى حين استدعانا بالأمس.. إن زوجى مقصر فى واجباته الزوجية: لقد «فشلتينا» ياامرأة!

تشجعت المرأة قليلا... واندفعت تقول:

ولكنى أقسمت أن أقول له الحق:

- أى حق؟ لقد تمنيت لو انشقت الأرض وقتها وابتلعتنى، بل وابتلعتك (واصل بحرقة واضحة)

- لقد فضحتينا، جعلتينا أضحوكة على ألسنة الحاضرين!

- لكن كل ما قلته صحيح ياعون!

- ولكنك أظهرتني كما لو لم أكن رجلا بالمرة، صحيح أنني توقفت عن القيام بالأعباء الزوجية... غير ذلك نسيت أنني رجل مصاب بالسكري وأن الضغط يرتفع يزلزل كياني، ويلغي أي نشوة عابرة في جسدي ومع ذلك لم تقوليه للقاضي!

لقد رحت ترددين دون أن يعتريك ذرة خجل: ياشيخ أنا وإياه في الفراش سوا!

حريم آخر زمن! ألم تخجلي من نظرات الكاتب الذي يقبع على يسار القاضي؟ ألم تريه يداري ابتسامة ماكرة طفت على محياه حين قلت «مافيه ما في الرجاجيل ياشيخ! أنسيت يامنيرة أنني والد سالم وصالح ومحمد وهيا وسلطانة».

أنسيت أنك كنت وإلى سنوات قريبة تفرين مني كل ليلة، ولطالما شكوت من آلامك، ومتاعبك، وعدم قدرتك على الوفاء با... بالحقوق الزوجية، أنسيت أنني لم أشك لأحد غير الله، كنت أوقد النار المتأججة في مساماتي وأوردتي... وأقول غدا تشفى أم عيالي.. وتريحني! كان بإمكاني أن أوذيك .. أن أداوي أمراضك بامرأة أخرى، نعم، ولكنني صبرت، وأستاهل (قالها بنبرة حزينة)!

صمت الرجل، وخبا انفعالاته قليلا.. وعندها رحت أرقب

ملامح شفتيه المزمومتين.وأعجبنى أن المرأة لم تعر صراخه أى اهتمام ،بدت هادئة إلى حد ما، كانت نظراتها ساهمة حينا، وحينا تدفعها إلى محيا الرجل الستينى عندما يعلو صراخه.

ويدا لى أنها تملك سطوة معقولة.خاصة عندما يتمادى زوجها فى الصراخ فتشير إليه أن يصمت مراعاة للرجل الغريب الذى هوأنا! فلا يملك إلاأن يزدرد ريقه ويصمت على مضض!

وحين بدت تبالة تكشف عن وجهها القروى البسيط.. كانت أشعة الشمس قد ارتفعت قيد رمح، وكان الفلاحون ينتشرون بين مزارع النخيل التى بدت لى وقتها كئيبة مصفرة على غير عادة.. عندها توقفت فى وسط الشارع الرئيس للقرية، فاندفعت المرأة إلى خارج السيارة وهى تحكم من وضع شالها المسدل على وجهها... بينما راح الرجل يتبعها بخطوات وئيدة، وكنت أتساءل وقتها وأنا أرقبهما عبر مرآة السيارة وهما يبتعدان عنى ببطء: ما إذا كانت تلك السوسة اللعينة قد امتدت أيضا إلى سكان هذه القرية الجميلة.

(*) وردت فى مجلة «الراوى» السعودية العدد الثانى ـ جمادى الآخر ١٤١٩ = سبتمبر ١٩٩٨.

الخاتم (*)

حسين على حسين

نهض (محمد عبد التواب) مبكرا على غير عادته، استيقظ من نومه، لكنه بقى وسط سريره الوثير شاعرا بالخدر، والخمول ، الأباجورة كانت ترسل ضوءا باهتا. وكان ضوء النافذة ينفذ إلى الغرفة هادئا، وباردا، وغائما، كان كل شىء فى الغرفة على ترتيبه القديم، فالملابس مازالت معلقة على المشجب، وخلفه دولاب الملابس مفتوح بطريقة قاسية، أما الملابس فقد كانت خارجة من أحشاء الدولاب، بل إنها تكاد تسقط، فقد اعتاد أن لا يهتم بترتيب أى شىء، إنه يحس بالضياع وبأن لا شىء فى حياته أصبح له معنى.

تحرك فوق السرير ، نزل، سحب خطواته بطريقة بليدة إلى الحمام، كان الحمام مظلما، فأشعل الضوء بحركة طائشة من يده، وقف أمام الحوض، وأخذ يحلق ذقنه أمام المرآة، نظر إلى وجهه مليا، وضحك ببؤس مفاجئ وهو يردد بصوت مسموع:

(هل ما هو أمام المرآة وجهه حقا)

ورد على نفسه بأنه لا يعتقد ذلك، بل عمره ما اعتقد ذلك على الإطلاق، وأردف ذلك بأن أرسل بصقة ناشفة، وناقمة على صفحة المرآة، وأعقبها برغوة مكثفة من الصابون سدت كافة معالم الوجه العريض الأسود المجدور، ما هذا؟ قال لنفسه، وهو يطبق المنشفة دون أن يجفف بقايا الماء والصابون، رمى المنشفة على الأرض بإهمال، وأخذ يضحك بطريقة هستيرية، متتابعة، وهو يواصل تساءله المحموم (لماذا أنا هكذا؟ بالتأكيد هناك مؤامرة لإفساد مستقبلي بالتأكيد.. بالتأكيد..

(١)

حبات المطر الرقيقة أخذت تتساقط ببطء على سطح الفيلا، قطعا سيكون القمر محجوبا، وربما كانت السماء ملبدة بالغيوم السوداء، الفاتحة، قال ذلك وألقى بنظرة حلقية على بلاط الصالة المهمل، مثل غرفته تماما، لبس حذاءه تناول كأس الشاى من على الطاولة، وأخذ يرشف منه بطريقة مضطربة، بصق بنقمة بعد رشفة الشاى، تنهد، لابد من سيجارة، لكنه لن يأخذها على أى حال، فيكفيه ما هو فيه من مشاكل لو نزلت على جبل

لتقوض من أساسه، لكنه بالتأكيد لن يتقوض، إن لديه إرادة تهد الجبال، وسوف يحارب كل من يتصدى له حتى الأخير، لقد قيل بأنها اشترت كل شيء حتى خاتم الزفاف اشترته بنفسها.

أما أنت فقد اشتروا لك كل شيء، حتى خاتم الزفاف، حتى الزفاف نفسه اشتروه لك، فماذا تبقى لك لتعمله ، تقف في (الكوشة) كأنك (خيال المآته) وتوزع الابتسامات يمينا، وشمالا، رغم أنك حتى الآن لم تستوعب أي شيء من فنون اللعبة، كيف حصل ما حصل، خطبوا لك، كتبوا لك الكتاب، ولا تستطيع شيئاً إزاء إرادتهم، فكيف تدعي أنك ذو إرادة تهد الجبال، هراء، قال ذلك في نفسه، وأرسل بصقة ثانية بطيش متناه على أرضية الصالة، أشعل السيجارة، وأخذ يمتص رحيقها بطريقة قلقة، حتى غطاه دخانها، ولكن كل ذلك لن ينهي المشكلة، ذلك ما قاله بيأس، إنه يتهاوى ، ولا أحد ينقذه، كلهم يريدونه مجرد آلة، حتى أبوه، أمه ، إخوانه، أخواته، كلهم أعداؤه، إنه الثور الذي يعلقون عليه كافة آمالهم لنطح الجميع، وإعادة ما أضاعوه، لكنه بكل بد لن يرضى بذلك، فهو حتى الآن مازال فيه رمق، مازال قادرا على الحديث، والتنفس، وحلاقة ذقنه، اللعنة ما الذي أتى بسيرة الذقن؟

ها هى ذى القطرات الرقيقة تعود مرة أخرى، وتواصل نقرها على سطح الفيلا، يحس بنقرها كأنه فى دماغه تنقر على سطح الغرفة، بطريقة متفاوتة، تنقر فى دماغه بنفس الطريقة، هذا هو الهدوء الذى يسبق العاصفة، قال فى نفسه إننى عموما لا أحب المطر، أحب الإعصار، لكن أين هو؟ أجريت السماء والأنهار. وأجرب داخلى، ولم يبق على سطح الأشياء إلا المحل، إن الخروج من الغرفة مستحيل، وسيذوب الوقت وهو مصلوب أمام المرآة، يخطو إلى الغرفة الأخرى، يدير خطواته، ويتناول عود الثقاب من على الطاولة، يشعل سيجارة ثانية، يقول لنفسه، وكأنه يعيد الشريط من أوله، إن الخروج يبدو مستحيلا ولابد من شراء الطاقية، والمركوب ، والعباءة، والثوب، وإلا فإن الزفاف سيكون ناقصا، وسوف يحملونه مغبة أى نقص كما هى عادتهم معه، فليخطف رجله، ويذهب إلى السوق لشرائها، يفكر فى ذلك، ولا ينفذ، بل يصيغ السمع إلى صوت نسائى، جاف، آت من إحدى غرف الفيلا المتباعدة، قال فى نفسه بتوجس، إنها العجوز دون شك، ما الذى تريده بالضبط؟

تساءل، وتركها تنادى بينما أخذ يتأمل ببرود سحابات الدخان، وهى تتوالى فى خط متعرج إلى عنان الغرفة، ثم ما

تلبث أن تتلاشى ، ولا يبقى بعد ذلك سوى العبق، الذى يضايق كافة من بالدار، إنه يذكرهم بالحرائق التى اجتثت ماضيهم العريق، وجعلتهم يتحولون فى لحظات من عالم الثراء إلى عالم الباحثين عن فرصتهم بجانب الأثرياء، وهو (محمد عبد التواب) ورقتهم التى سيلعبونها لتنتشلهم مرة أخرى من عالم الفقر إلى عالم الغنى، فهل يستطيعون؟

هو أعطاهم الفرصة، وسوف يستغلونها تماما، وفى النهاية سيكون هو الضحية، فكيف يقبل بهذا الدور السخيف، كيف يمكنهم من نفسه دون مقاومة، هل هو مندوب العبيد إلى السادة ، يتسولون له من الخطيبة، ليبدو أمام أهلها ، وكأنه مازال ذلك الشخص الذى يعلق ماضيه العريق أمام صدره، أنى تحرك، لكن هل يعيد التاريخ نفسه؟ مستحيل!..

لبس ملابسه، صفق الباب وراءه وخرج، بعد برهة كان وسط الطوفان. الشارع يموج بالمارة، لوحات النيون تخطف البصر، المقاهى كأنها تفتح أبوابها لليوم الأخير، زحام على البقالات المخابز، باعة الأرصفة، كأنهم سيواجهون شيئا ماغدا، إنهم يستعدون دون شك، لماذا يستعدون؟ هل أستعد أنا مثلهم؟ قال لنفسه، وهو يلاحظ أن قطرات المطر الرقيقة قد كفت عن

الهطول، لكن المياه مازالت تسرى بين أرجل المارة، وتحت عجلات السيارات وفوق مشمعات المحلات، قطرات بدت له لذيذة، خطواته أخذت تتراقص ببطء شديد، ومحكم على الرصيف اللامع، لقد جعلته قطرات المطر لامعا، ونظيفا بعد أن كان مليئا بالغبار والأوراق، والعلب الفارغة، واصل تسكعه لبضع دقائق، واجهه معرض كبير، دخل لا يدرى ما الذى يريده بالضبط؟ كل من فى المعرض التفوا حوله، كأنهم بانتظاره، قدموا له البناطيل، والقمصان، ورابطات العنق، والنظارات، والمناديل، والجزم، وأمام هذا الكرم شعر فجأة بأنه مستلب (هل على كيفهم) تساءل بنقمة، وضحك للجميع ببلادة متناهية، وأدار لهم ظهره، وخرج إلى الشارع المستحم بقطرات المطر الرقيقة، وهو يقول لنفسه، (مرة أخرى أدور فيك أيها الشارع بلا هدف... ماذا أريد، وماذا يريدون؟؟..)

(*) نشرت فى جريدة «الجزيرة» ـ ٢٩ جمادى الثانية ١٤٠١ ٣ مايو ١٩٨١.

بوابة الموت(*)

خالد محمد الخضرى

يتحول هذا الحلم إلى واقع، ينتشل اللحظات من نزيف عميق، من خوف تلبد بالأجساد ، أمسك بالأعناق ضاغطا على الطريق المؤدى إلى الحياة.

- أوه، آه، آه

أكاد أموت

هل يولد الموت؟ يجىء إلى الأقبية المعتمة، إلى الطرقات المضيئة، الحاضرة بكل صور الناس، المتباينة بشتى الوجوه.يضىء طريقى ، يبهرنى بحضوره، كان يمشى ذات يوم فى جسدى، يولد فى داخلى إشعاعا ، يتوهج.

ياهذا الموت الآتى، اتركنى ارحل إلى اللامدى، أهرب منك إلى أين؟ ربما لا أدرى

قضاء وقدر، إرادة الله فوق الجميع، كل نفس ذائقة الموت.

هل كان الحلم نافذة تضىء الحقيقة تفزع، ترعب.

أمى قالت:

- أنت يابنى تخاف الموت، هل ذهبت إليه، رأيته مسجًّى هناك فى الثلاجة؟

أصرخ فى وجهها:

- لا، لا أريد أن أراه هكذا، لقد رآه الآخرون وقالوا كاد ينطق، جسده ملبد بالموت، لكن الحياة تشتعل فى صورته، رأيناه، كان أشبه بهالة، دوامة، إعصار.

ياهذا الموت، اقتلعت الماضى من جذوره، الفرحة، الحقيقة أصبحت الموت، والموت فقط.

قالت أمى:

- لا، كان يجب ألا تذهب إليه، إنه أفزعك

هل يفزعك الموت؟

الإيمان هو الأساس، خوفك، قربك من الله.

- الله يرحمنا برحمته

نسأل الله حسن الخواتيم

أمى ليتك تعلمين، أننى أبكى، أنزف، أموت، أتعذب قبلا وبعدا، أنت وحدك من يمسكنى، يشدنى نحو الحلم الآتى، الأمل،

ريقه غاب، أين هو الآن، أحلم به يأتى، يقتحم الأسوار، ينطلق فى مهب الريح منتشلا أجزائى، منتشيا ، فرحا.

ياهذا الأمل اقتلع الموت من جذورى، من جذوة أحلامى. مهلا، مهلا إننى أسير ببطء، أحمل هذا الجسد المنهك، آلام تعتصره، تلغى كل قواه.

خطواتى ثقيلة، بطيئة كبطء رأسى، يداى ترتعشان، فمى يريد أن يقول شيئا، ربما أراد الصراخ

فى المستشفى حيث الموت، كان لابد أن أراه

قالت أمى:

- مالك ومالهم، لا عيب إلا العيب، لا تذهب ، وليقولوا ما يقولوا ، أنت تخاف

أخاف، هل أخاف؟

شىء فى داخلى يعتصر، لا أدرى ماذا حل بى، أتقدم خطوة، ثم أعود، كأننى ممسوس، أريد الهرب، الركض خلف الحواجز، الرحيل إلى عالم بعيد لايوجد به جثه

- لا، لا أريد أن أراها

وصلت إلى المستشفى، وجدت جدى هناك، واقفا بجوار بوابة الموت، آت من زمن مضى، كأنه خرج للتو من مقبرة عمرها ألف

عام ، أفزعني بنظراته العزرائيلية رأيت الموت يرتسم في هيكل آدمي، جدى ما الذى عاد به الآن إلى هنا بعد أن رحل في رحلة اللاعودة؟

أمسك يدى بقبضته الفولاذية، شدنى إلى الأمام نحو البوابة، وأنا أصرخ ، أصرخ.

- لا ، لا أريد أن أراه

الموت، الرحيل، لم أحصن نفسى بعد، لا أريد، أريد البقاء، أريد البقاء هنا فى زهوة الفرح، وأحلام الحياة اللامتناهية

جدى يجذبنى نحوه

- عيب ، عيب، لابد أن تراه

أعيب أن أهرب من الموت؟ لماذا يصرون أن أنظر إليه؟ أشاهده بعينى التى سيغمضها الموت يوما رغما عنى، راحلة هى، كما رحل هو من غير رجعة، فى طريقه ستمضى.

الموت كان هنا، وقف إلى جوارى، تحدث إلى، جذبنى نحوه، كدت ألحق بهذا الميت الذى فى الثلاجة.

قال لى الأصدقاء:

- أنت واهم، ماكل مرض يجلب الموت، الموت يأتى فى جيبه.

لماذا إذن اذهب إليه؟

لماذا أسير نحوه منساقا بإرادتى؟

شدنى جدى وأنا أتراجع للخلف، ويشدنى أيضا، وأنا أصرخ: •

- لا ، لا أريد ياجدى

- عيب، ماذايقول الناس، مات ولم تره، لابد أن تراه، أنت رجل

- لا، لا أريد أن أراه، الموت، أنا أنا أخافه

- عيب ياولدى، عيب كلنا لها

- إلا أنا، لا أريد، أنا لست لها

- بل كلنا ، أنا قد مت، وأباك، وأنت وإخوانك،كلنا لها.

- أنت متّ، وأنت ميت الآن، وما ذنبى أنا فى أن تذهب بى إلى الموت؟

لا أريده

يشدنى، وأنا أتراجع للخلف، لا أريد، أصبحت أشد جدى للخلف، لكن لا فائدة، يده الأسطورية، الميتة منذ قرون جذبتنى نحو الموت، دخلت من البوابة المؤدية إليه. صعقت، ما الذى حدث، أنا الآن فى الداخل، شدنى جدى أيضا إلى الأمام، كدت أقع، إلى الداخل أكثر حتى وقعت على وجهى، وتمدد جسدى فى

الأرض أصبحت منبطحا وهو يشدنى، وجهى وصدرى وبقية جسدى يزحفان فى الأرض، تخدش وجهى وصدرى الدماء بدأت تنزف، وأنا، أجهش، أكاد أموت، وجدى مصر على أن أراه، هذا الموت الذى ينتظرنى بالداخل. وصلنا، أوقفنى بعنف وجبروت:

- لابد أن تراه، عيب، لا تخف

رأيته، رأيته، أراد جدى أن أسلم عليه (الموت) أنظر إلى وجهه

- لا، لا أريد

أصرخ بكل ما أوتيت من قدرة، أبكى، أنتحب كأننى الآن وسط واد خال من البشر، تحيطنى جبال شاهقة، وأنا وحيد أصرخ، لا أحد يجيبنى سوى رجع الصدى، صدى صراخى ينتشر داخل قاعة الموت، ولا مجيب.

أصرخ، أصرخ دون جدوى.

وفجأة استطعت أن أخلص نفسى، من قبضة جدى، القادم من القرون الوسطى وأهرب، ركضت هاربا بكل ما أوتيت من قوة، وبكل ما آتانى الله من قدرة على الركض، وأنا أسمع نداء جدى، فى أعقاب هربى:

ـ عيب ، عيب، ماذا يقولون ، خواف، أخاف الموت؟

كلنا لها، كلنا لها، إنا لله وإنا إليه راجعون.

(*) مجموعة «امرأة من ثلج» ـ نادى الطائف الأدبى ـ ١٤٢٠ = ١٩٩٩.

امتداد سنوات الخصب والوجع

خليل إبراهيم الفزيع

- أ -

رمى فى وجهى بالقصة التى اعتقدت أننى أتيت فيها بما لم تستطعه الأوائل، قال صارخا:

- أنت هذه الأيام تكتب كالمسطول، ما الذى يعنيه كلامك الفارغ عن الحبيبة التي جفت حبيبها وتزوجت غيره؟

تفجر الوجع الساكن فى الأعماق... أردت أن أرد له التحية بأسوأ منها، لكنى أعرف رئيس التحرير... أعرف العطش التاغل فى عروقه لتسفيه كل ما لايروق لمزاجه... حاولت أن أنسحب بسلام، حاملا أعباء الخيبة.. ضاقت الغرفة بما رحبت ... استوقفنى صارخا:

- إذا أردت أن تستمر فى كتابة القصة... اكتب عن الأمل... الطموح..الخير... الوفاء..تحول إلى منظر للقصة وأهدافها..

و... و... كـيـف لكاتب أن يكتب عن الأمل وهو يعـيش أقـصى درجات اليأس؟... عن الطموح وزمانه الرمادى يضيق عليه الخناق؟... عن الخير وقد ملأ الشر نفوس من يعرف ومن لايعرف؟.. عن الوفاء وهو الذى لم يكن وفيا؟....

شعرت بارتياح وأنا أخطو أول خطوة خارج غرفة رئيس التحرير قلت بعد أن أغلقت باب الغرفة.

- (تفو)

فجعتنى النتيجة .. كنت أتصور أننى كتبت قصة لا أفضل ولا أروع... كل ما كتبته كان من نسيج الخيال... لكن هذه القصة عشت كل لحظاتها... تشبعت بكل مواقفها. حزنت وفرحت.. بكيت وضحكت .. سهرت الليالى ونمت قرير العين... عرفت كل المعانى الجميلة.. وكل المعانى الهزيلة... عانقت أحلامى السحاب وانهارت كل المنى... اشتعلت جوانحى وخمدت براكينى... عانيت بعمق الرغبة... الحنين..الشوق.. الدموع.. الخيبة..اليأس... وهاهى ذى كلمات رئيس التحرير تغتالنى بلا رحمة.

حكت له يوما عن صاحبتها والنخلة السامقة فى فناء الدار، أخيها الراحل فى ديار الغربة، وأبيها الذى يحبها كما لم يحب

أب ابنته، وأمها التي تخاف عليها كما لم تخف أم على ابنتها.. أطلعته على كل ما له من علاقة بها... منذ الطفولة عندما كانت تركض خلف دجاجات الدار في الفناء الواسع، والعناد الذي يدعوها لتحدي الكل، والوقوف حافية القدمين.. حاسرة الرأس تحت أشعة الشمس ساعات... كبرت .. كبر معها العناد والأحلام... ولأنها وثقت به فقد حكت له كل تفاصيل حياتها ، ولأنه وثق بها فقد حكى لها كل تفاصيل حياته... تعاهدا على الوفاء... ولأنها مرهفة الحس... فقد كانت تبكي على صدره كلما مر بخاطرها هاجس الفراق.. ولأنه يحاول أن يكبح جماح مشاعره، فقد كان يشعر بالمرارة وهو يقرأ في عينيها معاناة ذلك الهاجس... حتى جاء يوم ودعته فيه، وودعت معه سويعات لايزال يقتات ذكراها بحسرة وألم.

حدثت نفسها يوما أن حلم الاقتران به بعيد المنال... إن ما تبنيه من قصور الأماني ما تلبث أن تنهار تحت وطأة الظروف... ليست كل المنى تتحقق بمجرد السعي وراءها... ليست كل الأحلام تتجسد بمجرد التفكير فيها، هي مجبرة على البقاء قريبة من أهلها، وهو مجبر على الرحيل إلى بلاده... إنه متزوج، وإن كان غير سعيد في حياته الزوجية كما أخبرها، هي لا تريد

لا تريد نصف اهتمامه... نصف همومه وهواجسه وشجونه... نصف أفراحه وأحلامه وطموحاته.. تريد أن تكون وحدها مسئولة عنه... ترعى شؤونه.. تمسح التعب عن جبينه... تكفكف دموع ألمه... تروى ظمأه... تذيقه طعم السعادة التى لم يعرفها ليكون لها وحدها .زوجا وصديقا وأخا وأبا فى آن واحد.

قال زميلى وهو من الزملاء الذين أعتد برأيهم:

ـ هذه القصة تستحق عليها الطرد من الجريدة أنا شخصيا أعتبرها أسوأ ما كتبت.

فاجأنى هذا الرأى الذى يتفق مع رأى رئيس التحرير... لكنى لم أحمله محمل الجد... افترضت أنه يريد امتصاص غضبى بصدمة أخرى تخضعنى للتسليم بهذا الرأى، لكنى من يقوى على احتمال ما لا يحتمل؟

فى لحظة غضب،مزقت أوراق القصة... مكتفيا بالأحداث المحفورة فى الذاكرة بإزميل حاد، لا يمكن إخفاء آثاره وإن تقادم الزمن.

- أمكرر -

بعد دقائق طلبني رئيس التحرير... دخلت مكتبه.. استقبلني هاشا باشا وهو يقول:

- آسف يابني، يبدو أنني قسوت في حكمي على قصتك لقد فكرت مليا ووجدت أنها تصلح للنشر.

لم أقل لرئيس التحرير إنني مزقت أوراقها... كان علي أن أعيد كتابتها كإثبات على امتداد سنوات الخصب والوجع.

(*) مجموعة «بعض الظن» - نادي القصة السعودي - الرياض - ١٤١٤ = ١٩٩٣.

سر الساعة(*)

خيرية السقاف

وفى مثل هذه الأيام من الربيع - من مدة زمنية لا تحددها سنوات، أو شهور، أو أسابيع، أو أيام.. ولا ساعات أو دقائق... بل ثوان : ثوان كانت تقف عند الجدار الذى علقت به الساعة الكبيرة..

كان فى الخمسين من العمر... يجلس على مقعد متحرك دوار... يرتدى جلبابا واسعا، ويغطى رأسه بقطعة من القماش لاتعرف لها شكلا... ليست مستديرة، وليست مستطيلة.. تضرب إلى السواد، عيناه تطلان من تحت منظارين سميكين، يمسك بين يديه بكتاب واحد، وأنت قادم، أو ذاهب فى الليل، أو فى النهار... بعد يوم أو اثنين.. بعد .. أسبوع... أو شهر... وفى أية لحظة تمر به... تجده يقرأ فى نفس الكتاب... وفى نفس الصفحة، حتى ليخيل إليك بأنه قد تجمد، ومن خلف ظهره

تلتصق ساعة كبيرة مستديرة على الجدار... هى الأخرى كانت تقف عند تأشيرة واحدة.. فالساعة دوما هى الخامسة إلا خمس دقائق، وخمس وعشرون ثانية.

ذات يوم من أيام الربيع... جاءته... جلست إليه... وبدأت معه الحوار...

لماذا لم يتوقف الزمن عندك، فيما هو يمضى، ويلتهم عمرك..؟ ولم يجب..

لماذا يذهب الربيع، ويأتى الصيف، وينتهى الخريف، ويبدأ الشتاء... وتمضى السنة تلوالأخرى، وأنت، قابع بنفس الجلباب، والمنظارتين، والحذاء .. والكتاب..؟

لم يجب..

هل الزمن كله خمس ساعات إلا خمس دقائق، وخمس وعشرون ثانية؟

وهل العالم كله يتوقف عند كتاب واحد بين يديك عنوانه (العمر ثانية)..وتوقعت بأنه لن يجيبها..

ولكنه تنحنح..وتحرك... وكانت هذه المرة الأولى التى يفعل ذلك.. ثم جرب صوته بكحة خافتة... وكأنه يمرن صوته على الانطلاق، بعد صمت دام طويلا.. وقال:

سؤالك الأول لم يكن يدل على استيعاب تام لما يعنى مُضى الزمن... لذلك لن أجيب ، وسأتركك لأن تخبرى ذلك بنفسك ذات يوم..

أما سؤالك الثالث ـ فشطره الأول يفقد التركيز لما يعنى هذا التوقيت، لأنك تفقدين محتوى تلك الساعة، ودقائقها، وثوانيها... أما فيما يتعلق بشطره الثانى، فأستطيع أن أقول إن العمر هو ثانية واحدة فقط، هى هذه التى نطقت فيها..

وقضى نحبه.. كما تفعل الروايات العربية..

دهشت.. بحلقت عينيها... هزته فلم يتحرك..

«حين يصل المرء إلى فلسفة خاصة يقتنع بها، فهو سيقف عند لحظة استيعابه، وتقلده لهذه الفلسفة، ولن يصل إلى تحقيق قيمة ذلك إلا حين يقدر على أن يلفت النظر، ويستوقف شخصا ما... فهل هو النجاح؟»

نظرت إلى الساعة....

وجدتها وقد تحركت ثانية جديدة..!!

(*) نشرت فى جريدة «الرياض» ٢ ربيع الأول ١٣٩٧ = ٢٠ فبراير ١٩٧٧م.

الأصـــلة (*)

رجاء عالم

الكل يعرفوننى باسم(فاطمة المكية). والحقيقة ـ التى أحسنت إخفاءها سنوات وجودى الإحدى عشرة ـ هى أننى لم أولد فى مكة.. وإنما سنة ٥٠٠ هجرية الموافق ١٠٦١ميلادية. فى وادى آش قرب غرناطة. والمتبحر فى التواريخ كان سيدرك أن هذا التاريخ يطابق تاريخ ولادة أبي بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى. المعروف اختصارا بابن طفيل. وهذا التوافق فى الولادة ليس بصدفة. ذلك لأننا ـ أنا وهو ـ قرينان ولدنا من برزخ واحد، وكنت ألازمه عندما أشتغل بمداواة الناس. ثم كحاجب فى غرناطة أي كوزير، ثم بعثنى فى أمه الغزالة أثناء تجسيدنا لحى بن يقظان، وسمانى البخار الذى إليه يكون انبعاث الأحياء. والذى بارتحاله يصير الجسد خسيسا ولا يدع يده عن العصى التى أتخذها لقتال الوحوش.

ونظرا لتجاربى ورقى درجاتى فى علوم الطبيعة ووصولى لوحدة ذات واجب الوجود فلقد أعنت ابن طفيل حتى ضمه بلاط الموحدين وأصبح طبيبا لأبى يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين (١١٦٣ - ١١٨٤ ميلادية) وغدت له حظوة عظيمة عنده.

وعندما توفى ابن طفيل ١١٨٥ حملته وتشردت روحى على غير عادتى ووجدتنى أنساق للطرق المتجهة شرقا، صوب مكة، وحين وصلتها كانت امرأة تلد فى ديوان بسوق الصغير المفضى للحرم المكى. وكانت القابلة مع عمات الوليدة يجلسن على طست نحاس. وتحت الطست أستار مخاط وتحت الأستار عزرائيل يناغى الوليدة: (كان يجب أن تجىء ذكرا).

وانسقت للطست، وتزينت بالمخاط ورضعت إصبع عزرائيل وتقويت على ثقل النسوة فوق صدرى. تسع مرات نصين الطست وقشعنه وأنا أحقهن ببكائى، بصقت كل مياه الرحم الراكدة بصدرى. وانتظرت عليهن. حتى لففننى فى الأقمطة وتركننى لثدى غارق فى دمع المرأة التى ستتعهدنى، وبين دمع ولبن أقمت فى سوق الصغير تحت مآذن الحرم وعرفونى عندما بدأت أعلم جسدى المشى باسم (فاطمة).

وحين تسألوننى عن خط حياتى القديم، أصار حكم بأننى قد

تنقلت بين الأحياء والرموز متجنبا الألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به أحد فلقد عشت مع ابن طفيل مربيا ما يتفاعل في أعماقه من سكنات وآراء ومجردات. وانتقلت لشخصية روايته حي بن يقظان. وتركت له توليدى من الأرض(من طينة تخمرت فى بطن من أرض جزيرة منسية) حتى امتزج فى الطين الحار بالبارد والرطب باليابس. امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى.. وحدث فى الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدا... ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال اللائق به... فتعلق به عند ذلك نفسى الدائم الفيضان من الله عز وجل. وخضعت لى جميع القوى وسجدت وسخرت فى كمالى... فلما كملت حلقة الطينة وتمت أعضاؤها انشقت عنى تلك الأغطية بما يشبه المخاض... ثم استغثت وأنا وليد صغير عندما فنيت مادة غذائى واشتد جوعى فلبتنى ظبية فقدت طلاها. ورعتنى حتى تدرجت فى مراقى جسد حى بن يقظان... ثم نقلنى موت أمى الغزالة للتدرج فى التأمل والمعرفة بما حولى من عالم المادة حتى نفذت لحقيقة أن لا ذات تغاير ذات واجب الوجود. واتصلت بالأجسام السماوية النورانية. فى نورها وتنزهها عن الكدر وضروب الرجس. والتحرك بالاستدارة على مركز ذاتى أوذات

حتى لم أدع بين الدوان حدا وقللت من علاقتى بالمحسوسات حتى تعذر على أقرب المقربين لابن طفيل رؤيتى وظللت على حالتى من التقصى حتى اطلعت على ما لاعين رأت ولا خطر على قلب بشر. وأذنت للخفايا والأسرار التى تحيط الكون وتتفاعل فى أعماق الوجود والموجودات، وملكت قدرة التناهى والتنقل فى الأزمان والأجسام ونقلت لقرينى حقيقة أن للنجوم نفوسا منا ، وأن هذا هو المركز ومافيه من ضروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض بمنزلة أطرافه القصية..

والآن فى جسد (فاطمة المكية) كنت أستجم من معارفى . وأمعن فى حلاوة الطفولة حتى بلغت نسيانى الحادى عشر من حساب المكيين.بدأت مشاكلى فى المجتمع المكى عندما فاجأ المخاض جارتنا (عائشة السبكية) وكانت قد ترملت حديثا وهى مبذورة فى شهر حملها السابع.

فى تلك الليلة نزل القمر حتى ملأ حنفية الماء فى الخارجة أمام ديوان دارنا وحتى تلك اليلة كنت أخفى صلاتى القديمة بالأندلس وابن طفيل وأعالج نسيانها. وكنت أنام فى دكة الروشن. وتستدنى أمى بالمسند الأحمر حتى لا أقع من على الدكة وأكسر عنقى . ذاك المسند كان يعرف الكثير من حكايتى،

الدمقس الأحمر هو ذاته المتصبنت من أيام الخلافة العربية. هو ذاته الخارج من أحلامى ، نعود لنومتى تلك الليلة. كنت فى الحلم أعود دائما لقرطبة وبلاط الموحدين، وكانت خيالاتهم تستقبلنى وتعيد تمثيل أدوارهم الغابرة. فتفسح لى مكانا بين قنوات الظباء والنرجس، عند تلك القنوات كانت تنضج أقمار الأندلس وأصحاب الحاجات يغنون ويزرعون قصائدهم. وتنصب موائد للقاصى والدانى (الحكايات وأنا وقرينى) نتصدرها مع الخليفة أبى يعقوب ثم يلفته ابنه أبى يوسف.

موشحات الجوارى ترشح على صدور رجال الديوان وتتسلق الزهر الفواح، وأبو يوسف يستقبل وفدا من البربر: عيونهم بحيرات من الذهب الوحشى تنسكب على الجدران المنقوشة بالآيات القرآنية. الموشحات تحبل ببدائيتهم وأنا مسلوب لتلك الفطرة الفائقة . ثم فجأة ... صراخ امرأة برية... قطع حناجر الجوارى وذهب البربر الوحشى... بقبق الصراخ كثيفا لدرجة أغلقت قصبتى ... واختنقت طافيا من الحلم عنوة. ولم أجد وقتا لخلع هيئتى الأندلسية... وعرفت أنه صراخ جارتنا عائشة السبكية.

خرجت من النوم لأجد أمى وأبى (اللذين يعرفان بأمى وأبى) يتخبطان بحثا عن باب بيتنا . هبطنا السلالم الحجرية الشامخة للدهليز المنور بدانتيللا الخشب المورق. للباب بضبته النحاسية . للزقاق الضيق لباب جارتنا: كانت ساقطة تحت الباب. وسيول الصراخ تدوم حولها وتدفعنا . فلك صدريّتها يطرز ثدييها بأزارر نجميّة. ويشد معلقا على الكوزين. بينما (دكة) سراويلها تدور على حوضها بأقلامها . قلم حرير يتبعه قلم قطن . أطراف سراويلها أخطبوط يحتضر فى سائل ليلى وبروائح مدوخة. اقتربت رغم محاولات أمى لدفعى بعيدا... وحولى فى الغزالة وحيوانات الغابة التى شققتها بحثا عن النار المحركة ومن طول اقترانى بالحيوان مع حى بن يقظان كنت أعرف تماما ما يحدث فى زير عائشة لقد انشق رحمها لافظا ماءه. وبقى الجنين يتصحر فى الداخل. وكانت مجارى عائشة ضيقة من عظامها التى من خشب الأبنوس والمتعرشة على حوضها. وما كان للجنين من أمل فى النفاذ. كنت أفحصها وأمى وأبى يقذفاننى بعيداً. ثم انشقت الأرض عن أناس كثر ومعهم القابلة وثرثرات الفزغ. أعلنت القابلة أن الأم اختنقت ببذرتها وتركوها مسجاة بديوان استقبال الرجال؛ لأنه الأقرب من الطريق وأقصر الطرق

لسلوك جنازتها للزقاق فالمقبرة. وانحسروا يرثونها بينما تحجرت صرخاتها فى شبكة حولها وشلتها حتى عن الاستغاثة والنفس.

أنا لم أستطع مشاركتهم. كيف وأنا من أنا فى علم التشريح. ويوسعى الشق عن البذرة!! وحين بدأت المرأة تخضر وخذروف عزرائيل يلف مساند الديوان حولها. أمسكت بمدية مطهرة وشققت بطنها و... وقبل أن تمس نافذتى باطنة الرحم المجعدة هبطت حولى شبكة مولولة مغزولة بالتشجنات. أمسكتنى شبكتهم ، وقيدونى.

ثم مضت أقمار ودورات شمسية وأعوامها وأنا محبوسة فى حجرة يسمونها (المخلوان) فراغ قزم يبتصق كطفيلى بمجلس النسوة. فراغ طويل كثعبان محنط وحجبت لأننى كما قالوا: جننت لبستنى جنية المرأة النفساء ولم تغادرنى حتى هيئتى تبدلت بين الأنثى والذكر فى أبصارهم.

بالطبع لم أحضر جنازة عائشة السبكية. مع أن معاشر الأرز بالحمص كانت تغزل الأزفة. واندس طبق أرز بالحمص وطبق طحينة من فرجة فى باب المخلوان. بالطبع لم يعد بوسعى التغذى بوسائطهم البشرية ، كنت لعابا مخلوطا بماء السبكية

وبعدها لم أجع قط.

ثم تسمدت بمجاورين كثر، ومنهم المعروفان بأبى وأمى، حيث نسـيت فى ذاك المخلوان. حـتى تأكـدت أنه لم يعـد أحـد ممن يعرفوننى حيا أو ذاكرا، وكانت توسعة الحرم المكى قد ابتلعت سوق الصغير فسرحت بين حمامات مكة من قوس قزح. وكنا نقضى الصلاة فى الهديل على ميزات الكعبة المطل على حجر إسماعيل عليه السلام. حيث كل الدعوات مستجابة تحته لوجود مسرى من هناك للسماء السابعة، ولقد نبذت وجودى البشرى وصورتى العامة والبعيدة عن الذات الفائقة تمثلت قرونا من الصلوات مع سربى الرمادى. حتى إذا عمت السكينة بهديلنا انطوينا للتعرف على الأقواس بين الآيات القرآنية وأذرعها ، وهى ما إن يهبط ليل مكة حتى تتجسد فينا وتنقلها لرياضها الخفية على حواف ذاك المسرى المخبأ.

جاء انتقالى لنزلة القرارة بمحض الصدفة. حسب علمى، فلقد دخلت سربنا حمامة بيضاء، وكنت المكلف بنقلها لرياضنا عبر طوافات وأذكار مضنية، وهى تتعثر فى بياضها.

وكنت أطوف بها مستقبلا الركن اليمانى عندما مرت (عابدة) وكانت فى أواخر شهرها التاسع تسوقها أمها فى الطواف

لتسهل تسعات البيت ولادتها.

وفى الشوط السابع بدأت الكتابة من عمود عابدة الفقرى تهبط تتعرج لافة خاصرتها مندفعة لبرزخ الساقين... وللمحة ضربتنى لفحة شوق لرائحة البشر ولأنماط معيشتهم، زلزلة عابدة حننتنى للعبور بمخاض امرأة. فتقدمت ، وجاءت الولادة عسيرة كخروج كائن من جلده. وترفش جلدى بكل تقلصاتها وزلاقتها. ووجدتنى تحت خيمة زوج وزوجة حديثى عهد بالحياة (عابدة وصالح) ... ووسمونى بـ (الزهراء).

أقمت فى محيطهما أعواما خمسة وفى تلك المقدمة كانت مكة قد بدلت جلدها للمرة الثالثة. خلعت رواشنها ودمقسها الأحمر وهيئة عبد الله بن الزبير المعلقة خيالاتها على الكعبة وملأتها شرفات الزجاج والألمونيوم، أنا كنت أغتم لمساحات الزجاج تلك التى تذكرنى ببركة عزرائيل تحت الطست ثم حول عائشة السبكية وقبلها فى أمى الغزالة. لكننى بالنهاية توصلت لمهادنة برك الموت المتكررة تلك. مستعينة بالحالات التى عالجتها مع ابن طفيل وفلسفته.

وبصفتى الزهراء انشغلت بطفولتى فى ذلك الوسط الراكد بالماورائيات. مستعيدة الأعماق التى بلغناها أنا وابن طفيل فى

قرطبة وجزيرة حى بن يقظان ووجدت فرصتى للتوحد.

كنت أشعر بأنفاس خفية ترافقنى فى عزلتى حتى جاء يوم انكشفت لى سارية بين قدمي.. إنها نار ربانة كما لو أنها رضيعة بعد. لقد أنست لتظرفها واحتملتها بين كفى، كفى اللتين كانتا مدربتين على الارتقاء لموافقة أمزجة شتى الكائنات..

وقضيت أياما أحاول إطعامها مما أهربه لها من زادي وهى تمتنع حتى جاءتنى فى المنام شجرة قالت: أنا طوبى من شجر الجنة. والأصلة التي تربينها هى من بناتى الرضع. حضنتها لآلاف الأعوام ولم تتم حضانتها ولقد غادرتنى مستجيبة لوحدتك ولم تتم أشدها فلا تحرمنى رضاعتها.. وعندما أفقت إذ بوسادتى مبطنة بأوراق خضر على هيئة ورق الزيتون فلما أقبلت به على الأصلة سال إليها سيل ورواها...

وكنت أطعمها من ورق طوبى حينا وحينا أجوعها بالصوم لتكبر على الصبر... نسيت أن أذكر أنها كانت تحمل وجه أنسى، وتزهو لرفقتى وتتلون حدقتها الباردة والحاملة للموت فيها.... حتى خطر لى سبكها فى أصنام تؤنسنا، الأصلة مدت لى - كمن تقرأ دخيلتى - طرفا من أطرافها لأبدأ... حين تحركت يدى لنحتها تمردت واستلمت الزمام: أفلتت لى فى القبو أمى

الغزالة خرجت تلك مضطربة وارتطمت بجدران القبو في محاولة لتحرير قوائمها أكلت من وجهه نتفا ومن وجهي ، حتى خشيت أن تعظم جثتها فتفوح لعابدة وصالح فاستعدت قدرتي على وصلها فكنت أحكي نغمتها كما أحكي أصوات الطير وسائر الحيوان. فعرفتني من نغمتي فحنت على لترضعني لبنها حارا وشرخ جوفي بلذة خرافية.

كل يوم أفزع لتوليد الأصلة مخلوقات صغيرة وشفافة. تتداخل بعضها في بعض بمرح وتتلاقح..

ودبت في بيتنا بنزلة القرارة حركة غير عادية. فقد انفلت فيه نهر الحيوان. يصعد من القبو ويغافل الناس ويعود فيجري في ظلمته: فترى الحمام الناري على الأسطح والأفاريز يقرأ الطالع لحمام البيت والحجاج بلغاتها الشتى.. وترى الخنافس الحكيمة تحت الأغطية توزع هياكلها السود المحشوة بالأسرار.وأينما تحركت عثرت قدمك بسر... حتى أحاطتني إثارة ذات شرر. واجتمع على صالح وعابدة لمداواتي من الحمى..

حدثني جُعلٌ وجدته واقفا على أنفي ذات غفوة قال: لا يولد النار إلا شهيد... واحذر النار ولو طالت عشرتها... وأضاف: إن بنات الليل وقعن في عشق أصلتك. فيختلسن غفوتك لتوليدها

طيور سراج. يطيرنها فى صدروهن وشعورهن حتى ينعسن فى اللذة.

وبادرت الفئران النارية بقرض تلك الرؤيا، لطمأنتى لخلوص الأصلة لطاعتى ، أنا كنت مفتونا بصليل القنافذ ، قنافذ نارية بأشواك برؤوس مدببة صلبة ، تسمع صليلها حين تتبارز أوتشحذها على حجارة القبو... وكان قرد أشهب يصعد الأفاريز تحت أبصار المكيين المضببة ويمسك برأس الأصلة فى حجره . ويأخذ فى شحذ عينيها القتالين بالرازيانج الأخضر ، فتتفتح فى حدقتها ألف عين جوفية. فإذا أرسلت بنظرة منها لبيت من بيوت مكة مات صاحبه لفوره، فكانت الجنائز تخرج من إفريزنا كلما حلا للقرد أن يفلى الأصلة... وحينا كان بصره يكبو فيتسلى بفت خبزه للحمام. وكانت أسراب النارى تجتمع حوله كذيل طاووس وحين تنضم حمامة من حمام البيت الرمادى وتلقط ذاك الفتات كانت تصعق لفورها لهول حيويته... فترى أسراب الحمام تجىء لتموت بالصعقة . وبشكل فاتن..

نهر الحيوان فى كل ثنية . وخلف كل ستار. فإذا ما دبت قدم إنسى على السلالم للقبو هرعت كائناته للاختباء فى كفى. فى لمحة بصر تجمع الأصلة جسدها بنهره الهدار وتتكور فى كفى،

فلا يستشعر المارة. غير حرارة فى الموضع لا يعرف مصدرها .
عابدة كانت هلعة لحكاية أرما فى للحمى! وكانت الأصلة تتسلى
بخلع جلودها . الآن قاتم الآن ضحاك والآن جنائزى ، ثم طبقة
من كبرياء البنفسج. جمعت تلك الجلود ونسجتها أسورة
لمعصمي... وحين رأتها عابدة تدافعت مع صالح لتطيبها
بالمراهم واللبخات ، حتى كبت لمعة الأسورة. وتحولت لختم فاحم
يدور على معصمى ... ولمعاينتى لعظم انزعاجهما حمدت حظى
على عدم معرفتهما بما يجرى فى القبو من نهر الحيوان المحمول
فى جلد أصلتى..

تعكرت كل تلك الحركة العلوية فى الدار فجأة. عندما
فاجأتنى (عابدة) فى القبو أخاطب القرد بأصواته وشراسة
شياطينه . ومما زاد فى فزعها الزى الذى كنت أرتديه. وكانت
تلك كوة حى بن يقظان التى استعارها من جسد نسر نافق:
وكان الجلد نصفه على ظهرى ونصفه على سرتى وماتحتها.
بينما الجناحان على عضدى ، والذَّنبُ معلق على مؤخرتى.
ولاأدرى ما الذى أفزعها فى مظهرى المحصن بالدفء والهيبة
بشهادة جميع الحيوانات!.

بعدها سورنى صالح وعابدة بيرقات قلقهما. وكانت تفقس حولى بلا هوادة: يرطبنى بالماء. حتى خاط لى ثوبا من رطوبة الزهر الصباحية . كل ذلك حتى لا تعود أصلة تنبثق من كفى. وأبعد كل ما له طبيعة القدح. حتى عينى كان يضببها كل شروق ببخور لا ينقطع ضبابه حتى الغروب..

وحين بلغت الثامنة عشرة بحسب أعدادهم . زفونى لرجل من العامة البسطاء وليلة زفافنا صدمته الطيور والفئران والزواحف الخارجة من جسدى. ولم يحتمل حقيقة اتصالى بنهر الحيوان على تلك الصورة الحميمة. وفشل الجعل(أسلالا) فى حمله على ركوب النهر معنا لمجاهله المنعزلة وإحيائها من صلصال محموم..

وظل زوجى مسكونا بمخافة بدائيتى، فإذا ما وجدنى فى فراشه طفح المرجان على خديه ومما وراء أذنيه، يصمه ويتقيح ثم يحوقل متمتماً بأن جهنم ترتع بين الأغطية. في هجرها لمجلسه حيث يقضى لياليه اللانهائية يلاعب الرجال بالورق: يلقى بالبنات لدائرة اللعب يقايض بهن العشرة البستونى والشيوخ الوادعين فى اللحى.

كان عربى يؤذيه ويسمه بعلاماتى ولغاتى المبهمة. يشتكى

بأننى قد أتيت على عافيته ليلة وراء ليلة، ولعبة وراء لعبة، حتى حين يحيط به رفاقه وورق اللعب كنت أتغذى عليه. وكان يخسر لما لا نهاية.

وذكرنى حاله باتفاق ابن طفيل مع ابن باجة فى اعتقاده بأن العامة خطر على الكائن الفائق الفطرة. وكيف نفض حى بن يقظان يده من إمكان إصلاحهم.

واستفحل بزوجي المرض حين نسقت لحركة الكواكب وتركت لجسدى الدوران حول مركزه . وظل منتصبا عاما كاملا حتى مات وترملت بعده.

ولم يحر صالح جوابا حيال اتهام أهل المرحوم لنا بالشعوذة ، كما أننى لم أعتن بإيقاظه من ميتته تلك. على عادتى حين ينفق أحد رفاقى من الكائنات التي كنت أجمع أعضاءها الحاوية للحياة وأرقدها فى ثيابى لتنفس من جديد بنار أصلتى. إذ لكل موجود غاية خاصة لوجوده. وغايتى إماطة الحجارة التى تسد جريان نهر الحيوان فى الكائنات . لكن زوجى ناصب نهرى العداء دوما..

اكتملت دهشة تجسدى بحملى! وكنت أعلم أن حملاً يليق بسيرتى اللانهائية. لاسيما وأن صالح عاد لترطيبى بالثياب

المائية. وكاد أهل المرحوم يغفرون كل آثامى ويقبلون غرائبى لبشارة بصبى يبعث فقيدهم.

يوم ولادتى انقصمت ظهور. ومنها ظهر صالح آخر آبائى، وهو الذى ظل يحملنا طويلا: أطل مولودى على صورة أصلتى النارية... برتقالية زرقاء تعشى الأعين وحين يغلبها خبثها تتلبس فى الأسود... ومذ شققت عنها رحمى طارت وارتطمت بالوجوه فوسمتها جميعا ثم اتجهت فى حركة علوية وتوارت عن الأعين. وأعلن الطبيب ووسمه يفوح. أن الحمل كان كاذبا وإنذار الولادة كذلك! وأن آثار الكى بين ساقى كانت عدوى مؤسية ويمكن مع الوقت تداركها.

أما أنا فنفذت من تلك المفاتيح السود... مفاتيح الكى. نفذت من ألم عظيم وواصل حتى قلب اللذة. نفقت من ذاك الدهر لوجودى..

هأنذا أربى على شجرة مرحة. تقف فى جزيرة موغلة فى القدم من أصفى صلصال حى بن يقظان . دائما هى متنقلة وفى كل طرية بين شماريخ الشجرة تلاعب الأصلات الجبارة. حتى إذا جئتها ودخلنا إحدانا فى الأخرى. سرت جدتها فى قدمى وحفزتنى على الدخول فى دورات جديدة . بين الواحد وواحدة

يمتـد اللانهـائى ، بينى وبين أصلتى لا تكف تتبـرعم الأرواح الشاردة حتى ساحت منا أقوام ومجرات وتقلبات وامتد عمران لملايين الملايين من ثنيات النهر الخفية.. كل هذا بينما أهل مكة يزدادون غربة عن حمام البيت ولغاته الشجية ،وأصلتى ماضية فى أعناق الحمام تهمزه فيغرس مناقيره فى لغات وأرواح، ثم ينثر حوله من حيوانها البرى حيوان ما إن يمس وجها مكيا حتى يقلبه فى حركة علوية فينزلق للنهر أبدا.

(*) وردت فى كتاب «القصة النسائية العربية» ط الهيئة المصرية - القاهرة ٢٠٠٠.

دوائر عرضية(*)

رقية الشبيب

تتآكل الأفراح... عملية تشبع بالألم... هل تخطئ المقادير، أم تخطئ الظروف ..؟ تحملها النتائج، ونحن ننظر ببلاهة.

تدق الدفوف، تظمأ الشموع، تصلب الدموع ، محاجر يسكنها الشوق وتقطنها الحيرة. الأوقات بطيئة... كيف نعمل لتلاشئ الحنين لبقعة ما ... للحظة .. لهمسة ..كيف..؟

(أبو فراس) أنانية حقيقتنا كلما هو فقط.

يملك الشجاعة ... وقالها.

يغتالني البعد كلما فكرت بالعودة. نحن لا نزرع الشوك في طرقاتنا؟... نحن لا ننشر العتمة في دروبنا؟... إذن من يملك البسالة؟

ومن يكون خصمك إليها، الإنسان، ننتظر المجهول، ونلعق مخزون الصبر ونفترق الحكم، والحكمة من الكتب، والدواوين ، لا شيء غير هذا . مفقود الصدق منذ قدم قبرينا، مشاعر قلقة،

وتزداد، تستمد عمرها من الذكرى ، تتسع الطرقات ، وتزداد طولا... ومتى نصل ... النهاية لا بداية لها، والجرح بالغ الغور. ياأيام لملمى بقاياك، وارحلى إلى مجاهل النسيان.

الحب مرفوض منذ (ليلى والمجنون) يعيش فى الظل، يتسلق النور كالفراش، لكنه يقتل، ياأبرياء كل زمان. الصدق مقتول... مقتول .. ويا ظلال الليالى، كانت صغيرة أيامك عملية انكفاء ذاتى، تؤدى إلى صمت الذاكرة، إلى النضوب.. الاضمحلال إلى نوع من الفراغ، من الفراغ والانفراغ... واستنزاف انتحارى كنت مرفئى.. تلوح الصوارى.. أروقة القلوب مقفرة.. والستائر سميكة..

الصديد يصمغ الآذان، والرصد يقفل العيون، والغصة تزداد، وبوابات الأفواه مشرعة، والألسنة ترقص داخلها بلا انضباط، يجف اللعاب، وتمطر الخدود بهتون الدمع.

تكون أولا تكون... تعطيش حسب تخطيط، تضع زوايا واقفات، وخرائط مجسمة (للغد)، ينهار كل شىء عندما تغلبك مضغتك الصغيرة.

ضعيف، ضعيف الإنسان، تفتق الحجب لا يعنى ما خطط، انتهى ، قد نحيد عن الخطة المرسومة، بلا انهزامية ولا ذل، كلنا

نرفض الهزائم، لكن كلنا نتجرعها بمضض، رخيصة الأيام عندما لا تحبل بأمل... العودة يا... لا تعنى القدرة على تصحيح وضع ما لكن قد تكون إنهاء لحالة، وتحويرها إلى جهة ثانية.

تلسعك البعوضة، تتضايق ، تهزمك ذبابة، وهى ترقص على أرنبة أنفك، يحمر الوجه ، تعربد الأعماق، وتنتصر عليك (حشرة)... تبيدها بكل الوسائل لو غربلنا ميزانيتنا، لوجدنا أن ما نستهلكه فى قتل الحشرات كثير.

لم لا نتركها تعيش وتفرخ؟ أم ترانا وضعنا ضمن خطتنا الحياتية (وما يقتل من البشر أتراهم ضمن مخطط يحياه قتلتهم)

الصدق.. ياخصلة غائرة فى مستنقعات النفوس الآسنة، نحتاجك بشدة فى الحياة، الصدق يعنى استمرارها ، لكن على أية حال ليس عدمه نهايتها، مروج خضر.. وبحيرة... وكوخ على ضفافها وهما معا.

خيال رومانسى قد يتكرر فى زمانى، لكنه خيال أكلته الظروف، الخيال وحده حصان لم يروض بعد، ياخيالا جامحا تسرع الخطى خببا صوب شاهقات الأمانى، فلا بلغتها... بل صبوة... وتشدك حروف.... السماوات منذ الأزل هى... هى...

ترسم بيدك، خيمة تتفيأ بها، مخاوفك بذرة تنمو... تزهر .. تثمر... تموت... عمرها قصير... سنة الحياة قاطرات السعادة خلفتك تقرع السن، وتعض البنان، لا يهب العمر أكثر من اللحظة التى نكون بها، مغروس بالقلب كالوشم، قريب، وبعيد، غفوة القلب تتسلل، لتكون منك سترا تسكن الهمسات الفؤاد... لحظات تموت كالأسماك (عمرها قصير أيضا) اجترارها عذاب ، تنتهى بخروجها من اللحظة(الآنية) لعبة الأيام تكرار للعبة الحياة... نفتقر إلى ضحكة من الداخل... مهلهلة النفوس، أسمال بالية ترتديها يا أدغال القلوب، موحشة أنت، دائرة مفرغة... تمور مورا... تحسب بشكل تنازلى عشوائية الأيام، تلوك الساعات بقرف.

الغد موغل بالبعد. ورومانسية الأول... تغفو مع الأحلام... تقتل الوقت، وينتهى العمر مع أكاذيب الخيال. المرابى فى الحب شخص يخسر باستمرار... متى؟...

متى تصبح حقيقة تتعدى أحلامى؟

(هو) كهزارة سجين...أنسيت أنك أنت السجان. لم تهتز الصورة بعد... كيف يتداعى قلبى... خرب تنعقه البوم... كوة النور به، يحاصرها الظلام، عتمة الحياة... نسورها تفترس

الجثث في كل الأوقات، تنتصب أعمدة الخوف عندما كان الصبر اجترارا... (ليت) تبتلع كل تطلعات المستقبل، تحرن، تأبى السير... تطوى فراش الصمت. وتثرثر بكل شيء... إلا.. الأمل.

هل تعتقد أنك تحررت عندما غرست نعلك في جوف الحقيقة؟ واهم... واهم.. أنت (ليت) لم تعد مقياسا.. لم تعد تحلم... وأدت كل أحلامها. خطايا العمر، مهما كبرت ... تهون، تهون... إلا أن تنساه... إكسير الحياة في (عرضها) يجسمه (هو)، ثم أبعد هذا كله بقي شيء، والانتظار انسحاق؟!.

(*) نشرت في جريدة «اليمامة» عدد ٤٢٤ - (١٣٩٦هـ).

الصمت والجدران(*)

سباعى أحمد عثمان

ألقى بفراشه فى ركن الغرفة... وجلس يتأمل المكان: «التهوية هنا ليست جيدة... لا شىء غير الصمت.. والجدران والقلق.. لمبة معتمة مشنوقة على السقف.. ثمة شخص ينام فى الركن المقابل. وهذا يبدو رائعا... أحس بشىء من الراحة... تطلع إلى السقف فى امتعاض ... رائحة الدم لا تزال تخنق أنفاسه: « ولكن أين أنا الآن... ما الذى يحدث هنا! إنكم تصمتون هنا كهذه الجدران لماذا؟! جلجل صدى صراخه الصامت في جنبات نفسه، ومات فى يأس اللحظة... تطلع إلى وجه رفيقه النائم، ثم أطرق: «الصمت وحده هو الذى يتكلم هنا، وحين يتكلم الصمت يسكت الكلام... لماذا؟! الجثة كانت تتدحرج هناك... الدماء كانت تندفع من أنف المصاب كعيون البترول... مسكين هو، سقط مثل محارب أعزل فى معركة غير

متكافئة، ولكن ما الذى كان بوسعى أن أفعل - وقتئذ - من أجله؟!
مرت لحظات كئيبة.. لا أذكر ما الذى حدث خلالها.. بعدها كنت أنتصب فى بلاهة أمام الضابط المنهك من السهر.. عيناى كانتا قد توقفتا عن الحركة.. تكلمت بصعوبة بالغة:

- سيدى الضابط.. لقد وقعت جريمة قتل فى الشارع العام؟!اعتدل الضابط فى اهتمام شديد ، وهو يقول:

- ماذا .. هل قلت جريمة قتل؟

- نعم ياسيدى ... وأنا القاتل ، وإن شئت المقتول.

تخلص من العبارة الأخيرة بسرعة.. راح يذرع الممر جيئة وذهابا... كانت مهمة بالغة الصعوبة .. بعدها .. مشى بخطوات ثقيلة كأنه ينتزعها من الأرض... لم يقل شيئا مطلقا.. وذهنه كان فارغا تماما... عيناه كانتا تدوران فى فراغ هائل.. لم يستطع أن يركز ذهنه فى شىء مطلقا طوال الطريق ، أو لعله لم يفكر فى ذلك أصلا... وأمام المبنى الكبير وقف لحظة - كمن يتزود بنظرة أخيرة - وقف يتأمل فيما حوله ... استبطأه الجندى الذى يرافقه، فالتفت إليه معتذرا ليستأنف السير من جديد... فى منعطف حاد من المبنى راح يصعد درجات منبسطة خلف الشرطى فى أسى بالغ... تباطأ على باب الغرفة المعزولة قبل أن

يدخل .. أشار إليه الجندى:

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة:

ـ شكرا..

أجاب فى صوت متهدج.. كانت لحظة مريرة حقا... أحس بيأس مريع... لم يكن يستطع أن يحدد أى شىء.. الدنيا كلها كانت بالنسبة إليه ـ وقتئذ ـ شيئا تافها: « تفضل» كلمة مهذبة حقا... أحس ـ ولأول مرة ـ أنها تحمل أكثر من مضمونها العادى ، ففى هذه اللحظة بالذات أصبحت لها قيمة رائعة، وكان هو أحوج إليها أكثر من أى وقت مضى فعلا، ولو قيلت فى غير هذا المكان أو فى غير هذا الوضع لأحس لها طعما آخر ونكهة أخرى.... ترى هل تبدلت نكهتها ..أم أن تعاسة اللحظة هى التى لونت هذه النهكة ... هذا جائز؟!

وهكذا بدأت رحلته مع الليل والصمت والجدران... فكر مليا وهو يتأمل محتويات الغرفة: «كانت أنفاسه تترد فى صميمية لتؤكد وجوده... ومع ذلك كان يتمدد ممشوقا بلا أية مقاومة... ولكن الموت تباطأ كأنما يساومه «كان الذهول يطويه بقسوة... صداع حاد يكاد يحطم رأسه.. ضغط على صدغيه بقوة.. الطفاية التى أمامه تكلس فى قعرها الرماد المتراكم.... رفيقه

يشخر ملء رئتيه ويتمدد كارتخاء هذا الليل البليد.. صرصار يصرخ فى مكان ما من الغرفة ويفنى تماما فى السكون من حوله..«تفى» نهض يتابع صوت الصرصار .. اللعنة عليه.. لابد أن أسحقه.. فحص كل شق فى الجدران... أصغى بكل جوارحه، ولكن دون فائدة .. «إخص » .. لقد أفلت القذر ... (إخص .. الصرصار وحده هوالذى يملك القدرة على إشاعة وجوده بمثل هذا الفناء فيما حوله)... الجندى الذى على الباب خلع جواربه فى ضيق وحشا بها جيب بنطلونه ... ألقى بحذائه الضخم جانبا:

- عم تبحث؟!

قال الجندى ذلك، وهو يفرك أصابع رجليه المجهدتين..

أجاب هو:

- ألا تسمع هذا الصراخ؟!

- لا تتعب نفسك، فلن تجده..

- هل لديك فكرة عن الصراصير؟!

- قلت لك لن تجده.. هذا كل ما أعرفه!!

- هل جربت ذلك؟!

- وفشلت .وبعد ذلك عودت نفسى على اعتباره شيئا مذابا

فى السكون!!

عاد وجلس فى مكانه: «لا شىء أصبح واضحا الآن... مرة أخرى ضغط على صدغيه بقوة....النوم لايأتى.. نهض وحمل الطفاية الممتلئة بأعقاب السجائر وألقى بما فيها من النافذة ذات الشبكة الحديدية.. خبطها خبطتين على حافة النافذة وأعادها إلى حيث كانت .. راقته الحركة، فقد بددت بعض هذا الصمت الذى يسود الغرفة منذ أول الليل... تطلع إلى الشبكة الحديدية: «هل يهربون؟! هذا مثير حقا... ولكن إلى أين؟ تبسم فى بلاهة من يستسلم للاشىء... موتور يخفق فى مكان ما.. اللعنة... رفيقه تحرك فى فراشه وانقلب إلى الحائط.. تأمل وجهه، وقال : ترى أى طراز هو من الناس؟! كان يشخر كالثور: «لا شىء يهم» ..أحس برغبة ملحة فى الصراخ.. وليكن ما يكون... لاشىء سوى الصمت... شعور ما بضرورة أن يصرخ كان يراوده منذ أول الليل بإلحاح... أحس بألم بالغ، وهو يسترخى للمرة الرابعة... طرد الفكرة من ذهنه ... الدخان يعتم الغرفة مثل ضباب مدينة ساحلية... أزاح الوسائد وحملق فى غلاف الكتاب الوحيد تحتها... تناوله وفتحه بين يديه.. ظلت عيناه مفتوحتين بلا حراك.. كانت الأحرف السوداء تتراقص أمامه فى الفراغ

الهائل....صعد قرص القمر فى محاذاة النافذة الغربية: «كم هو أكذوبة كبيرة... حبيبتى صفعتنى حين قلت لها وجهك مثل القمر.. لقد فضح العلم كل شىء !! بماذا أصف وجهها بعد هذه الفضيحة..إنهم يفسدون كل شىء جميل!».. ذرع صفحة الكتاب طولا وعرضا : اللعنة عليهم جميعا... ما الذى بوسعهم أن يفعلوا على سطح القمر... إنه القلق الذى يفتت أركان هذا العالم... ألقى بالكتاب جانبا:«كيف أقرأ فى هذا الصمت المريع».. خيل إليه أنه فى حالة بين الحركة والصمت..المفاهيم تميع الآن فى ذهنه بلا حدود ولا ضوابط ... تذكر رفيقه الذى ينام بالقرب منه... لايزال يشخر كالثور؟! إنه لايعرف الآن أن زميلا جديدا يشاركه هذه الغرفة... أحس بثقة كبيرة: «لقد آن لى أن أكسر جدار هذا الصمت.. أيقظ زميله برفق...حسنا... إننى حتى الآن - أبدو مهذبا جدا».. فتح الرجل عينيه.وراح يتأمل المكان فى هدوء.. سأل فى صوت متهدج :

- من أنت؟!

زميل جديد..

- أهلا وسهلا..

- شكرا..

كذلك أجاب بينما كان يتمطى على فراشه فى تثاؤب بليد..

سأل هو:

- كم الساعة الآن؟!

- الوقت هنا ليس له أى معنى!!

- أظننا فى أول الليل؟!

- وما الفرق .. ما الذى تود أن تفعله فى آخر الليل مثلا، أوحتى فى اليوم التالى.. الليل والنهار والصباح، والمساء، مواقيت لا معنى لها هنا... إنها تذوب فى بعضها.. وستعرف هذا آجلا أو عاجلا!!

أحس بضياع شديد وهو يتأمل رفيقه الذى أغرق الغرفة بطوفان من اليأس دفعة واحدة... تساءل: لماذا يتحدث بمثل هذه المرارة... صمت كأنه لن يتحدث بعد الآن... واعتدل فى تمدده.. قال هو:

- ولكن لم تصمت هكذا كالموتى؟!

- نعم.. هل قلت شيئا؟!

- انظر إلى هذه الغرفة كم هى «وسخة»؟!

- الدنيا كلها وسخة!!

قال وهو يبصق فى الطفاية فى آلية بليدة:

- إنك تتحدث بشكل مقزز؟!

ضحك هو في برود قائلا:

- هذه لهجة لا تتناسب مع وضعنا؟!

- كيف؟!

- في بعض الأحـيـان يتـعين على الإنســان أن يتكيف مع الظروف ويقدم بعض التنازلات.. صمت لحظة ثم تابع:

- على أى حال، أحمد الله على أننى لم أصفعك!!

صاح هو فى غضب:

- تصفع من أيها المعتوه؟؟

- اطمئن إنها مجرد فكرة طرأت لى... وأقدم لك أسفى..

- هل هذا من بعض التنازلات؟!

- ربما... ولكن لا يجب أن تتوقعها دائما!!

اغتاظ من لهجته الباردة... ولكنه كان بحاجة إلى أية كلمة تبدد هذا الصمت... أطرق هنيهة ثم سأل فى اهتمام:

- ولكن قل لى ما هى مشكلتك؟!

- أنت تعرف - إذن - أن هناك مشكلة.. لو قلت لى... لماذا أنت هنا، لقلت لك، بسبب مشكلة ما، ومادمت تعرف الجواب، فلماذا تسألنى؟!

ـ أنا لا أعرف شيئا... إنه مجرد استنتاج فقط؟!نهض الرجل دفعة واحدة، وجلس على فراشه، وهو يقول:

ـ اسمع أيها السيد ... ماذا يفعل رجل يتمدد على فراشه فى غرفة محروسة دون أن يجرؤ على التحرك خارجها.. هه.. أنت تعرف الجواب طبعا؟:

عاد وألقى بكل جسده من جديد على فراشه.. تابع فى انهزام يائس:

ـ الحرية دائما رائعة أيها السيد... إنها الشيء الوحيد الذى لا يباع ولا يشترى!!

قال ذلك ثم ضحك فى مرارة.. بدت الكلمة فى ذهن زميله المندهش أكبر من حجمها الطبيعى.. كأنه يسمعها لأول مرة.. صمت وهو يفكر: «الحرية دائما رائعة»..

قال لصاحبه:

ـ متى تتوقع الخروج من هنا؟!

ـ لم أفكر فى هذا الموضوع بعد... هل فكرت أنت ؟!

لا!!

هذا أفضل!!

.«هذا أفضل»: ماذا يقول هذا المعتوه؟! صاح:

- ماذا تعنى؟!

- هل لديك رأى آخر؟!

- ماالذى ترمى إليه بالضبط؟!

- أوه.. لاشيء..ولكنى فى بعض الأحيان يعجز الإنسان عن تكوين أى رأى... هكذا أتصور...

- قد لا أفكر الآن فى هذا .. ولكن بوسعى أن أفهمك جيداً..

- هانحن أولاء قد التقينا أخيرا وبوسعك الآن أن تتمدد فى فراشك .. وانس كل شيء!!

قال ذلك، والتفت إلى الجندى:

- كم الساعة الآن؟!

- الثالثة بعد منتصف الليل..

- الوقت هنا يتمدد أكثر من الخارج... هل لديك فكرة عن هذا الموضوع؟!

- أي موضوع تعنى؟!

- موضوع الوقت... و..

قاطعه زميله باهتمام ، قبل أن يكمل:

- وماذا أيضا..؟!

أطرق لحظة ثم أضاف:

ـ والقلق .. هل تعرفه؟!

سأل وهو يحدق فى السقف.. بدأ السؤال مفاجئا بالنسبة إليه... سرح بعيدا قبل أن يجيب:

ـ أيه..كنت أتصور أن لا أحد غيرى يعرفه!!

كان الفراغ يتمدد حوله بشكل مريع.. «القلق؟!» هه... ما أكثر ما صارعته .. وأخيرا صرعته باللامبالاة.. إنها أفضل إسفنجة لامتصاص الأحاسيس العدائية!!

هكذا قرر ببساطة وانقلب جهة الحائط... اتسعت آفاق خياله فجأة... الجثة المتمددة فى ثلاجة المستشفى مثل«مومياء» والدماء المراقة على الأسفلت، والضابط المندهش والكلمات التى ألقاها بسرعة.. كان الضباب وقتها كثيفا... وكان الموت ـ كالمارد ـ يذرع المكان.. سرت فى جسمه رعشة خفيفة.. أوف .. الجو حار.. وبوسعه أن يحسب الوقت الآن.. ليس هذا عسيرا.. ولكن ثمة أشباح كثيرة ومتداخلة بحيث لم يعد يسعها ذهنه.. الفروق بين الأشياء تذوب أحيانا، وتتعسر عملية التفاضل، ولكن المساحات والأحجام تظل هى، هى... البعد الرابع أصبح حقيقة، و«مومياء تتجمد الآن فى ثلاجة المستشفى مثل الفروج الدنمركى... كل شىء أصبح الآن يذوب فى اللامبالاة وبوسعى

أن أعى هذا جيدا..

قرص القمر يصعد الآن مبتعدا عن النافذة .. لون الشفق بدأ يذوب حوله... هالة النور تتسع الآن رويدا... رويدا: «كم كان أكذوبة كبيرة»... عاوده الصداع من جديد:«أوف» رأسى يكاد ينفجر.. لماذا؟! تناول علبة السجائر وأشعل واحدة... ثم نهض، وقدم أخرى إلى الجندى قبلها بعد تردد: «شكرا» قال الجندى ذلك وهو يشعل سيجارته ، بينما عاد هوإلى مكانه، وجلس... التفت إلى الجندى قائلا:

ـ هل أستطيع الذهاب إلى الحمام؟!

ـ بالطبع.. تفضل..

ـ شكرا..

..بقى جالسا فى مكانه بلا حراك ـ تطلع إليه الجندى متسائلا:

ـ لماذا لا تذهب إلى الحمام؟!

ـ لأننى لا أريد ذلك..

قال الشرطى فى دهشة:

ـ ولماذا استأذنتنى إذن؟!

ـ فقط لأعرف ما إذا كنت تملك هذه الصلاحية أم لا... وما إذا كنت أنا أملكُ حرية الاستئذان فى أمر كهذا..

ابتسم الجندى وهو يقول:

ـ أنت غريب حقا!!

سحب نفسا طويلا وقال:

ـ «ولكن الحرية دائما هى الرائعة..» هكذا يقول رفيقى، وقد شاركته هذه الحقيقة قبل لحظات!!

سحق سيجارته فى الطفاية التى أمامه، واسترخى من جديد: «حين أرتب ذكرياتى سأحذف هذا الفصل الكئيب من صفحاتها».. ثقلت أجفانه فجأة فأغمض عينيه... وأعلن أنه : «لابد أن تكون للمرء ذكريات أكثر مجدا».. تثاءب طويلا ثم ما لبث أن ذاب فى الصمت دفعة واحدة!!

(*) مجموعة «الصمت والجدران» ـ ط ثالثة ـ جدة ـ تقديم د. محمد زكريا عنانى ـ ١٤٠٢ = ١٩٨٢.

من ثقب الباب(*)

(كم هى مريرة وموجعة الحقيقة التى نراها صدفة من ثقب الباب)

سحر الرملاوى

عندما دقت الساعة معلنة السابعة مساء، تركزت كل الأعصاب البصرية فى عينيه السوداوين، واتجهت مستفزة إلى حيث تجلس سيدة البيت الكبير، كانت بدورها مشغولة بمتابعة برنامج فضائى يستهويها ولا تسمح لأحد بأن يقاطع استمتاعها به، إلا أنها لم تنس فى خضم المتابعة الشغوفة أن تنظر إلى خادمتها السريلانكية نظرتها المعتادة فى مثل هذا الوقت من كل يوم، وتشير بها إليه، بعد ذلك يحدث كل شىء بهدوء شديد، وكالمعتاد..

فيما بعد وعبر الباب المغلق كانت تصله أصواتهن، كن يثرثرن كثيرا ويبدين آراءهن فيما لا يفهمن ، كان لكل مشكلة فى العالم حل ما، تراه صاحبته قطعيا:

- آه لو فقط يسمعون كلامى، آه لو فقط يأخذون برأيى..

لاحظ فى جلسته هذه المرة شيئا مختلفا، فلأول مرة يستطيع أن يتابع ما يحدث خلف الباب المغلق صوتا وصورة، لقد لاحظ بكثير من الغبطة أن ثقب الباب القريب جدا منه - لدواعى العجلة - يعطى صورة قطعية لما يجرى أمامه، صحيح أن الصورة غير مكتملة، لكنها أفضل بكثير من مجرد سماع الأصوات التى قد تصل واضحة كل الوضوح، وقد تصله على شكل همهمات فقط لا يستطيع تفسيرها، الآن بمقدوره أن يفسر ، أن يسمع وأن يرى أيضا..

أمال عنقه أكثر ناحية اليسار ليتسع مجال الرؤية الجديدة، استخدم أصابع خمسة أمامه فى رصد عدد الحاضرات:

- إذا كان هذا الشىء البرتقالى هو ظهر إحداهن فإن العدد يصبح ثلاثة بكل تأكيد، واحدة ترتدى اللون البرتقالى الفاقع وأخرى ترتدى مهرجانا والثالثة ترتدى اللون الأسود، كم هى جميلة، ورقيقة وناعمة... ذات الرداء الأسود.. ولكن أين سيدة البيت الكبير؟

رائحة شهية تسللت إلى أنفه عبر الباب المغلق أنبأته عن مكان سيدة البيت الكبير، إنها فطائر السبانخ التى لا يتناول

منها أكثر من واحدة فى كل مرة يصنعنها فيها، ولا أحد يسأله إن كان يريد أخرى، سمع ضوضاء بقرب الباب ولم يعرف كنهها إلا عندما التفتت ذات الرداء البرتقالى بملامح زاعقة الزينة وصاحت بشفاه دمويه:

- أيها الشيطان.. ماذا تفعل؟

تراجع برأسه إلى الخلف متسائلا عما إذا كانت هذه البدينة قد اكتشفت تلصصه عليهن، إلا أن ركضا خفيفا لطفل فى الرابعة من عمره باتجاهها فسر له الأمر، وأيضا أعطاه دليلا آخر على نعمة الرؤية من ثقب الباب، ولمح الصغير يشد أمه من ثوبها ويشير بإصرار باتجاه باب غرفته المغلق، إلا أنها لم تستجب لإشاراته وأكملت حديثا كانت قد بدأته قبل أن تزجر طفلها الصغير:

- نعم كما أقول لكن، لايوجد تفسير آخر، وإلا فلماذا وقعوا معاهدة السلام ، إن كل ما حدث يذكرنى بابنة خالتى التى قبلت مكرهة بزوجة ثانية لزوجها وقالت إنها هى من أجبرته على ذلك.. اجلس أيها الشيطان..

ابتسمت ذات الرداء الأسود وهمست بحنان:

- ربما هو جائع ، فرائحة الفطائر تثير الشهية..

أشاحت مهرجانية الزى بيديها وهى تقول:

- أية فطائر هذه التى تثير الشهية؟ على العكس إن ما يصنعونه هنا يشبه في أحسن الأحوال الفطائر المجلدة التى يشتريها عامة الناس دون الالتفات إلى دقة صناعتها، أو فى أبسط الأحوال تاريخ صلاحيتها.

همت سوداء الزى أن تتحدث عندما بادرت برتقالية الثياب بالموافقة على ما أبدته صديقتها مؤكدة:

- بل هى بالفعل فطائر مجلدة تثير التقزز، اهدأ أيها الشيطان، ماذا تريد؟ عاد الطفل مجددا يشير إلى غرفته وهذه المرة التفتت السيدة البدينة ناحية بابه المغلق وقالت:

- ماذا تريد بالضبط؟

- هم أن يهز رأسه نافيا أنه يريد شيئا عندما فطن إلى أن الحديث موجه إلى الطفل الصغير وليس له هو شخصيا ابتسم ونظر باتجاه ذات الرداء الأسود برجاء أن تتكلم فاستجابت لرجائه المحجوب وقالت:

- عفوا صديقتى، لكننى أخالفكما الرأى فيما يتعلق بصناعة سيدة هذاالمنزل، فقد تميزت دوما بالمذاق الحسن..

- ليست هى الطاهية على أية حال..

لايدرى لماذا تصر مهرجانية الزى وكرنفالية الزينة على انتقاص صناعة المنزل، ما الذى يجبرهما على الحضور والأكل من طعامها إذا كن لا يعجبن بشىء مماتصنع سيدة المنزل..

ولكن أين ذهب الطفل الصغير، لماذا اختفى عن مدى رؤيته المحدود؟

لم تستمر حيرته طويلا فقد جاءت الإجابة بشكل عملى للغاية عندما بدأ مقبض الباب الذهبى يتحرك لأعلى ولأسفل وفى محاولة دؤوبة لفتح الباب، كما أن المشهد الخارجى برمته كان قد اختفى الآن، دفع برأسه إلى الخلف وراقب المحاولات الصغيرة لفتح الباب وتساءل، فى الواقع تمنى:

ـ هل يمكن أن ينفتح الباب؟

سمع خطوات مسرعة وثقيلة تتحرك باتجاهه، وأخذت مشاهد الخارج تأتى وتروح هنيهة قبل أن تنجح الأم فى سحب طفلها العنيد إلى حيث تجلس، وجاءت سيدة المنزل الكبير وابتسامتها القلقة تصافح وجوه ضيفاتها ، وتنزلق مسرعة ناحية الباب المغلق.

ـ اعذرينى حبيبتى فهذا الشيطان الصغير لايهدأ أبدا..

ـ لا تبالى ، هكذا هم الأطفال..

واستأذنت مجددا وذهبت لتشرف على شكل المائدة الذى يشكل حجر الأساس فى حفلة الاستقبال هذه..

– يالها من امرأة، كيف تصم ولدى بالشقاوة..

همت ذات الرداء الأسود أن ترد، إلا أن مهرجانية الثوب تلقفت الحديث فورا وعلقت:

– لا يمكن أن يشعر بالأطفال إلا من له طفل، لاتنسى (هى) بلا أطفال...

غامت الدنيا أمام العينين السوداوين وتقلصت عضلات فكيه وحاول أن يقبض أصابع يديه، فأخرج لسانه، ولما أعيته الحيل سمح لدمعة متسللة أن تزحف بهدوء على خدوده، وتعمد أن تلقفها شفاهه المتعبة وفكر بأن ملوحتها تشكل تضامنا سريا مع الآخرين الذين يرغبون جدا فى إيذائه ولايدرى لأى ذنب فتفلها بقوة إلا انها بقيت عالقة فى سقف فمه، تطلع إلى سقف الحجرة، وبدت له الثريا خافتة الضوء، كحجر كبير يكاد يسقط فوق رأسه، إنه يتوقع سقوطها فى كل لحظة، لكنها تظل تخفيه بظلالها القاتمة ولا تسقط..

– هل رأيتم الموقف الأخير الذى حدث لبطلة مسلسل السادسة والنصف، كم هى تعيسة تلك الجميلة.. لا يحزنك

أمرها، ففى النهاية لابد أن يعود إليها حبيبها..

- لقد بكيت كثيرا عندما مات قطها الأبيض فى ذلك الحادث المروع..

- كم أنت إنسانة!! - علقت ذات الرداء الأسود.

لا يدرى لماذا تنهمر دموعه، تضايقه هذه الدموع، يضايقه أكثر عدم قدرته على الصراخ، وأكثر ما يزعجه أن لا أحد يشعر به، وأن تلك الدموع التي تحرق بملوحتها سقف فمه ستظل هناك رغما عنه، حتى خيوط الماء الحار التى بدأت فى الانسياب من فتحتى أنفه تدخل تلقائيا إلى فمه المفتوح ولا يملك إبعادها رغم الغصة التي يعانيها والتى بدأت تتحول إلى اختناق..

تسلل الصبى الصغير تاركا أمه تلتهم فطيرة السبانخ الخامسة ومعها عدد لا بأس به من الشطائر متنوعة الحشوات وسار باتجاه الباب المغلق فى الصالة، عاود محاولة فتحه، إلا أن الباب لم يستجب له كما حدث فى المرة الأولى، دق الباب، ثم ركله بقدمه، أحضر منديلا ورقيا ومال بكل جسده أرضا وتطلع من تحت الباب، دفع المنديل إلى الداخل، وانبطح تماما ليرى أين ذهب.

كان الشعور المبدئى بالاختناق لديه قد بدأ يتحول إلى ألم

حاد فى العنق، وتوالت الدموع المنهمرة تسقط بلا هوادة، واليد الخامدة لا تسعفه فى صرفها عن الفم المفتوح، وشكل الصالة الخالية من البشر يفزعه، كأن البيت صار بلا سكان، ماذا لو مات الآن، حرك رأسه بكل ما أوتى من قوة فأسقطها على صدره ولاحظ سقوط قطرات الدمع فوق ملابسه، ثم لاحظ المنديل الورقى بجوار الباب المغلق، ولمح أصبعا صغيرا متطفلا يحاول الإمساك بطرف المنديل ، كان هو أيضا بحاجة إلى المنديل، حاول أن يحرك نفسه، أن يتقدم بكرسيه المتحرك ولو قليلا إلا أن حالته لم تسعفه، أخرج من فمه صوتا غاضبا وحرك يده ما استطاع ورفعها بكل قوة فلطمت وجهه، فعاود الحركة وعاودت اليد تلطمه، بدأ يحتج على العنف الموجه ضده من يده بصرخات أقرب إلى الحشرجة، فزع الطفل وحاول سحب أصبعه العابث، فانحشر بين الباب والأرض، صرخ بشدة فانتبهت الأم، ونهضت بسرعة حاملة اللقمة الأخيرة من فطيرتها السابعة وقالت للأخريات ورذاذ الطعام يختلط بالكلام:

- لا تنزعجن، لابد أن شيئا ما أفزعه، سأذهب إليه..

رفعت سيدة البيت الكبير رأسها وانتبهت إلى ضيفتها برتقالية الزى وهى تشير باتجاه الصالة فألقت ما بيدها

ونهضت مسرعة واتجهت وراءها إلى الصالة تستطلع الأمر ولحقت بها الضيفتان..

كانت كرنفالية الزينة قد خلصت أصبع صغيرها، وتطلعت بدافع الفضول من ثقب الباب المغلق، وعندما التفتت خلفها تحمل ملامحها كل الذهول، همست للعيون المتطلعة، ووجهت كلامها إلى عينين تتواريان خجلا وألما:

- لديك ابن معوق؟!!

تلعثمت سيدة البيت الكبير قبل أن تصرخ ذات الزى البرتقالى:

- أنقذيه إنه يموت

عندما اندفعت «أمه» سيدة البيت الكبير إلى الغرفة المغلقة نظرت البدينة إلى كرنفالية الزى وقالت بشماته:

- لديها ابن معوق..

(*) مجموعة «صور مقلوبة» - نادى أبها الأدبى ١٤١٨ - ١٩٩٧.

امرأة أخرى(*)

شريفة الشملان

بالحليب الممزوج بشتى أنواع الدهون المعطرة، تزيل آثار التزين ليلا، فإذا ما كانت الساعة العاشرة صباحا، نهضت تتمطى... تأتى المدلكة لتنثر على جسدها أنواعا مختلفة من مشدات للعضلات ومنعمات للبشرة.. أخشى ما كانت تخشاه... ترهل صدرها ، من أجل ذلك لم ترضع صغيرتيها، عند الواحدة ظهرا، ترتشف كأسا من عصير البرتقال أو الجزر.. حيث ترتاح عندما تتأكد من أن كل شيء بها يلمع... عند ذلك تأخذ حماما بخاريا، بعده حماما باردا... والمزينة تعبث بتاجها الذى امتزجت ألوان خصلاته، هى تنظر برضا لوجهها.. لازالت البيضة البيضاء.. لازال رأسمالها جسد مشدود ووجه أبيض مشرق وشعر تتابع أحدث الأساليب للعناية به... تدور حول نفسها مطمئنة .. لقد تلقت الدرس صغيرة، وحفظته جيدا كبيرة..

لا تزال تذكر كيف تصارع صبية الحى على تلك الجميلة الصغيرة الحيية، وفاز بها أثبتهم عقلا وأوفرهم مالا... فأصبح مركزا تدور كل ذرات كيانها حوله، بنتان جميلتان أنجبت صورة منها، لكنهما تتحديان كلامها، لهما اهتمامات كثيرة، من بينها القراءة التى تكاد تخطف بصريهما .. تعتبر نفسها إلى حد كبير مسئولة عن ذلك... لقد تركت أمر رعايتهما لمربية فاضلة، لكنها صارمة من ناحية العقل... الولد لم يهمها أمره، أنجبت أم لم تنجبه .. فحب زوجها لها لا يعادله حب، من أجل ذلك فعليها الاحتفاظ بهذا الحب حتى آخر حياتها.

تتمطى ليلا تنتظر عودته ... وتتمطى ثقلا وغنجا عندما يعود من سفر ، لا تحب أن ترافقه فى سفراته، عالم السفر متعب، هى تريد أن تمنح نفسها فرصة انتظاره ، من سفرته الأخيرة عاد... قال لها حدسها فى الأمر شىء. لم يلحظ قميصها الجديد، ولا صبغة شعرها، ولا تغييرها أدوات زينتها لتبدو أشد نضارة ، لم يكن متعبا، كان فرحا يصفر لحنا لطيفا فى الحمام، صوته يصل لها وهى تتطيب له ثم نام فجأة بعد أن طبع قبلة مجاملة على جبهتها ..

حساب الزمن.. وحساب الجسد، والعقل الذى خاف الخسارة

تحرك.. بعثت بقرون استشعار لها فى كل مكان يطرقه، وجاءتها الأنباء، مضيفة جميلة على الخطوط الفلانية.. لذا فقد غير جميع رحلاته لتلك الخطوط والعلاقة تتطور إذ شوهدا بمطعم فى باريس، وبفندق بسنغافورة..

حساب الزمن والعشرة والأهل والبنتين، يرجح كفتها وحساب الشك يحطم أعصابها، فنسيت جلسات التدليك والدهن والاسترخاء ، وبقيت لها جلسات الشك وشد الأعصاب.

حركت عينيها ، أزالت ثقل أجفانها.. بحثت عن كتاب لتقرأه... نفضت غبار ذهنها، وبدأ إشعاع رائع لرأسها المثقل.. والكتاب جر آخر، فآخر... لم يعد هو وحده زوجها المركز الذى تدور حوله... تطورت اهتماماتها، عرفت المكتبات وعرفت هوايات عدة، وعرفت يدها مسك القلم، تعجبت بنتاها وقد بدأت تذاكر لهما وإن ضحكتا كثيرامن أخطائها فى قواعد اللغة العربية.

فى انشغالها الجديد نسيت صبغ شعرها، فعاد له لونه القديم، وتركت أدوات التجميل، فأصبحت بشرتها أكثر إشراقا وعينيها أكثر لمعانا.. حركت يدها بالقلم، تحرك القلم، ملأ الورق كلام جميل، توالت الأوراق... أعجبت بما كتبت، ثم تجاسرت فغلفت الأوراق، وألصقت طابعا فى ركنها الأيمن.. خفق قلبها

وهى تشـتـرى المجلة... هناك وجدت اسـمـهـا فى أقـلام واعدة واستمرت حتى وصلت... أصبح اسمها يكتب على غلاف المجلة فى خضم ذلك... نسيت تتبع أخباره... ولم يعد يهمـها عاد أم لم يعد... لكنه عاد فعلا، لم يجد جسدا بضا... وشعرا مصبوغا وحواجب مزمججة، لكنه وجد امرأة أخرى.

(*) مجموعة «وغدا يأتى» ـ ط الوفاء ـ الدمام ـ ١٩٩٧.

الهديل(*)

عبد العزيز مشرى

١

ستجد على يمينك، وأنت تدخل من الباب الخشبى بنقوشه الهزيلة، مشب النار، وكأى مشب فى بيوت خلق الله... تتناثر من حوله أوان لابد أن يكون أغلبها ملطخا حتى أبلغ صلابته بالحمم، تظهر قشرة سوداء، ربما كانت أثخن من معدن القدر الأصلى.

وحيث يكون الركن قريبا من المشب، فقد حوى على الحطب الجاف، تأكله النار، فيؤتى بغيره، يبين لك فى قطعة مشخوته منه، أن الفأس التى كان يشقق بها الحطبة الكبيرة، قد لحق بحده عضوا حيا، فسال دم ليس بقليل.

وتأكيدا لهذا .. سترى أصبع الإبهام فى القدم اليسرى لتلك المرأة التى لا يخطىء اثنان فى أنه وجه فلاحة لا تهدأ كالنحلة العاملة، معصوبا ببقايا قماش مغبر، وراحت تدهك عليه، فيتهدل

أطرافه، ويحوش معه كل ما يمكن أن يعلق به.

الوقت سيلج نصفه الأخير فى عين المستضىء بالشمس ، ولا بد للمرأة من إنفاق باقى النهار إلى ما بعد المغرب، فى إعداد العشاء ، وتأخذ تؤلف عن قرب يناسب قعدتها أعواد الحطب، فتتوهج النار وتضع قدرها المحمم ، أما إذا رغبت فى معرفة ما بداخله، فستمنعك عجاجات الدخان التى تكاد تعمى العين، لكنك بمعرفة ما ... ستدرك أن به مقدارا من السائل المثخن الثقيل.

وربما لا تخطىء فراستك فى تقدير آكليه، الذين لن يزيدوا عن النفرين أو الثلاثة.

وإذا بلغ بك الصبر قليلا، فسترى شايبا قد تعدى الستين بمسافة ، بذقن طويلة بيضاء، تكاد تخفى رأس الصدر، تنهمر من أسفل وجه كثير التضاريس، مطبق الشفتين تحت الشعر الغزير، وبعينين يقول الناظر إليهما... إن صاحبهما كثيرالسؤال، ولا يعجبه شىء..

قامته قصيرة إلى حدود لفت العين، وليس بها إنحناءة، يلبس ثوبا فاقع الصفرة قد تخلى عن قياس «فتر» من الساق، حزمه من الوسط بجلد قديم، يميل إلى السواد.

بعد مسافة من الوقت لا تتعدى مجيب المنادى، ترى شابا لم

يخط كاملا بغد شاربه، لا يشبه الأب فى شىء سوى العينين.

دقيق الحركة، لا يقاس بأبيه فى الطول، ولا فى العظام، ولا فى تدويرة الرأس والوجه.

كان يظهر فى ملبسه نظيفا، يدعك حتى حذاءه بالماء، ويهذب حاله إلى أن يرضى ، قبل أن يسبق بعض المصلين يوم الجمعة ليقرأ جزءا من القرآن، وقت إذ يتثلث مع أبويه على الطعام، يبدأ بعدهما ، ينهى أكله وينهض قبلهما... لا تظنه قليل الأكل... بل قل سريعا قوى القرض.

عند شرب القهوة، أو الشاى ، يحلف اليمين ألا يصبهما غيره، فواجب على الصغير خدمة الكبير، وتحلف أمه أيضا مبررة بأنه يتعب أكبر من عمره فى شقاء الحياة، لكنه يدلق الحلفان ، فتملأ أذنيها، وتخلى يديها عن هذا الشأن، فيزمم جفنيه على العينين العسليتين، ويقننهما مع فرط عنق الإبريق، وتقدم فنجانا إلى الشايب ذى اللحية البيضاء، فيتناوله بيد كشف جلد الكف فيها عن عروق زرقاء، ونثار متباعد لبقع دموية صغيرة يضعه برفق أمام قعدته المتربعة، حتى تسكن سخونته قليلا، ثم يفرغه فى فمه دون استطعام.

أما المرأة، فإن فنجانها يربض فى انتظار شفتيها اللتين

تكادان تتساويان مع مستوى مسحة الوجه، تقوم وتقعد... ترفع الإناء وتعود فتجد سفرة الخوص التى أكلوا عليها، فترفعها، وتعود لتقعد، فترى فتاتا... فتلتقطه فتاتة فتاتة، وتعود تقعد، يكون الفنجان الساخن قد هدر سخونته فى الانتظار، تمد يدها القصيرة المحلاة فى معصمها بكهرمان أسود، يخالطه فى خرزه، آخر بلون البن المحمص، تظهر على حوافه بقايا عجين فيبدو أبيض وقاسيا ومتماسكا.

تشرب فنجانها فى جرعات قليلة متقاربة لا صوت لها.

عبر شرب الشايب ، والمرأة، لفنجانيهما، يكون الشاب قد قضى على الإبريق إلا قليلا، ووضع الفنجان على قاعدته، خاليا.

فى كل صباح، يرى الشاب بعين الرائى، ومسمع السامع، النذير والنقير، فالشايب يتذمر من هديل الحمام، الذى يهوم فوق راحته ببغبغته الصاخبة قبل الخيط الأبيض من الفجر، ولا حل لهذا المقلق، سوى البيع أو السكين. يسكت الشاب، ويتناقر فيما بينهما بحد الكلام، الشايب والمرأة، يتناوبان فى حججهما وقتا، ثم يهدأ الشايب، وتبقى المرأة تنز حتى تنشغل بشغل لا يمنحها فراغا للقول، ويخرج الشايب فيضع قدمه على زبل حمامة يقذر قدمه... يلعن الحمام وساعته ، ويعود الهدير بينه وبين المرأة..

ينهض الشاب ، ويقرع بقدميه فى السلم الخشبى إلى فوق السطح، ينفر الحمام المستكين والخارج عن صناديقه الصغيرة... ثم يعود. فيقعد قرب المشب، وتجيء المرأة وفمها لا يزال ينز ببعض الكلام المتقطع ، بالقهوة، فتضعها بقوة أمامه، وتذهب إلى شأنها.

ولن تلد شفتا الشاب كلمة واحدة، ولن يفتح فمه سوى لحبات قليلة فقدت شكلها من التمر، وعدد من فناجين القهوة المتبقية من فطور الشايب وقتما عمهما بالصبح، فردا ردا مدعوكا من فوق أنفيهما.

بقيت المرأة تفلى فتافيت بيتها، ثم رفعت ثوبها من أسفله إلى وسطها، فكان الثوب بوجه واحد، واتضحت نقوش على كمى السروال الأسود قديمة فما فوق القدم، وبعضها قد انسل من مكانه. انحنت ، ووهبت يديها مكنسة ذات أعواد دقيقة خضراء ومدببة، وراحت تصنفر أرضية الحجرة الطينية، فيتعالى الغبار الدقيق، ويهبط على كل شيء، وكانت النقوش الملونة بألوان مزيجها الجاز، مما جعلها باهتة، قد امتلأت بالغبار، فكادت تطفئ الألوان التى قضى فى صفها الشاب وقتا، وبذل فيها غاية ما يمكن من ذوق، على دولاب الخشب المحفور فى الجدار

والعمود الذى يتوسط الحجرة، والباب الداخلى حتى منتصفه.

وتلك ... هى المرة التى لا تحصى مع ما قبلها، يأتى الغبار على الألوان مع الأيام مع أرضية البيت تنال قبل الكنس رشا من الماء.

أنهت المرأة إثارة غبار مكنستها، وحاشت ما جمعت إلى الركن، ورمت بالمكنسة القش عليه من يدها، وكان رمشاها وجفناها يحتاجان مع باطن أنفها إلى الماء، فأخذت إبريق الماء الذى يستعمل للوضوء، وخرجت أمام الباب فى حوض قصير، تغسل غبارها.

غسلت قدميها ، ولم تصب الماء على إبهام قدمها اليمين، بل ناوشته من بعيد.

فى الزاوية المقابلة لزاوية مشب النار، والحطب، تدلت فى غير بعيد عن الأرض الطينية المكنسة... قربة ماء من جلد الماعز، طليت بالقطران، فبدت سوداء بلمعان غير مستقر من أثر الماء المضغوط بداخلها، أو قل، الذى يتجمع فى جانبها السفلى.. لقد كانت كالدودة المعقوفة، يلزمها وتد خشبى ظهر جزؤه البارز بنفور أمام كل عين.

كانت القربة تسقط على أمهل من المهل... قطرة... قطرة،

فتحفر القطرات فى الأرض تجويفا، يذهب قليلا مع الوقت فى العمق.

يحتار الشاب فى كل مرة يهب عينيه لتلك الحفرة الغائرة تحت القربة، ويكيل بكل مقاييسه فى الرأس، ويبحث عن مقنع، ويحاول تصيد القطرات، فينتظر طويلا، وتسأله تلك المرأة الدؤوب عن سرحانه، فيجيبها بـ «مافيه شىء» ثم يرضى أتعابه تلك بأن السبب هو التكرار ولو كان متباعدا، ويزيد: أن الماء قوى إلى حد لا يعرفه كثير من الناس.

جاءت المرأة إلى القربة، وفكتها من معاليقها، وأفرغت ماءها المتبقى فى قدر فارغ، فكان على قدره، وكأنما قيس عليه، علقتها فوق كتفها الأيسر، واحتذت حذائيها، ثم انصرفت لتملأها من البئر التى تبعد بعدد من المحطات القصيرة، تسند إليها قربتها وقتا يسيرا، تسترد فيه نفسها اللاهث.

أما وإن كانت مريضة، أو لزمت البيت لسبب قاهر... فلن يكون فى البيت ماء، وربما حتى الطعام الجاهز، وأحيانا ، القهوة والشاى، وتلقيم الثور، وأشياء كثيرة.

يهبط الشايب إلى الدور السفلى، الذى يستقبل أنف الداخل إليه بروائح علف قديم، وروث.

ويتقدم دون خطأ إلى مربط الثور الرابض يجتر فى أمان الله، وينهره مرارا ، يستحثه على النهوض، فينهض على غير رغبة، ويثقبه الشايب بعينيه فى سطح ظهره العريض، ثم يلتفت إلى مخرج البيت، وفى الساحة المحاطة ببناء الحجر الواطئ.. توجد مرابط كالأوتاد ،وحزمة كبيرة من البرسيم، وسيأخذ فى قضم أعواد الذرة على قدر مفاصلها، ويلف عليها باقتصاد شديد خيوط البرسيم الطويلة اللينة، ويلقم الثور: واحدة بعد أخرى، حتى يرى أن بطنه تنتفخ، وتقارب الامتلاء، فلا يزيد وهذا شأن يساعد فيه الشايب تلك المرأة التى تحضر على تعب من البئر الماء، وتعجن وتصنع الخبزة وتطبخ، وتغسل الثوب والأواني، وتقطع الحطب، وتصنع معه عراكا من الكلام فى كل صباح، من بعد ألفة الليل.

تنيخ خطوتك الأولى عند طرف الساحة، فتعثر عيناك دون عناء، على قشرة دم سوداء عريضة، فوق وجه التراب، إلى جانبها كومة صفراء كالأعواد الدقيقة المتلاحمة... كأنما مص ماؤها من الروث لذبيحة كبيرة... فتمنح خطوتك العذر حين توقفت لهذه الرائحة، التى كما يقال فى مثل القوم: ريحة «تعمى الطيور».

تحاذيها عن يسارك لتدخل الدار، فتعج هاربة، أو متتبعة، قطعان كالرذاذ من الذباب، ويخلق بمسامعك ، الطنين وحفيف الحوم، قبل أن تمد يدك إلى حلقة الباب، لتقرع مناديا من بالدار، يرف كصفقات الكفين المتحمستين... جناحات الحمام المفزوع، ويجيبك صوت الشايب المشحوب من الداخل: «من؟»

وتبذر المرأة طاقة إضافية دقيقة عاجلة، فتهذب نثار الأشياء المتهالكة حول مكان جلوس الضيف، فيبدو للقادم مهيئا للجلوس دونما إحراج.

و..

هاإن رجلا يظهر على استنجاده بطاسة الماء، منذ أن حط متربعا فى المجلس.. إنه قادم من ممشى بعيد.

وها إن الشايب بيد مرتجفة، يتناول طاسة الماء، المملوءة من القربة... من يد المرأة، ويقدمها مبتسما إلى الضيف، ويقول له بعد أن شرب : «هنى».

أما، وإن الضيف ، ليس ممن ينشرح له الخاطر، فإن الشايب، بعد أن يسمع من ضيفه،أخبار الديار والأمطار، والحاجة المعروفة التى جاء من أجلها... سيكون جوابه، بعد الرد على كافة الأخبار بما يماثلها من أخبار:

«اصبر يا صاحب» وحقك سيصلك وافيا كافيا.

وسيعلمه بأن الثور الذى اشتراه منه، فى ماضى الأيام، قد نامت رقبته على حد السكين.. فإن فى هذا شيئا من التأجيل.

وفى أثناء هذا الأخذ والعطاء، كات المرأة تركب فى المشب قهوتها، وتحسن تراكيبها أيما إحسان، وتراكم حبات من التمر، كثيرة فى طبق صغير، لتقدمه رفق الدلة المهيلة.

فيشرب الضيف فناجين كثيرة منها، ويلمم النوى على حافة الطبق فيراه كثيرا ، ويكف عن الأكل.

يحلف باليمين الشايب على الضيف بالاستزادة.

يحلف الضيف أنه كما يقول الكل من الناس: «ما أوفره» وكلاهما دون مراعاة يكذب.

تشير المرأة من قرب المشب إلى الشايب، إشارة من يدها، إن كان الضيف سيتغذى .. فيسأل الشايب ضيفه بعد وقوف عن الكلام قصير، ويحلف الضيف أن خلفه ممشى بعيدا، ولاوقت للغداء، فيصدقه الشايب، ويهز يده فى خفية إلى المرأة.

يلزم الرجل عصاه النحيفة، والتى لا تشبه أى شىء به بنحافتها سوى أحد أصابع يده، لا تدفع عن خطر ولا شر، لكنها عادة رافقت كل غاد وآت، فاليد ليس من طبع صاحبها أن

تكون خالية.

فيزيد الشايب وفي صدره نفس مريح بقبول ضيفه عذر التأجيل:

إن شاء الله... حقك سيصلك..

يهبط الرجل إلى الساحة ، مخلفا فى ظهره «تراحيب» مضيفه وهو يودعه إلى الخارج، وتهب بطنينها تلك الذبابات عن يمينه، فيحيط لطرف عمامته أنفه وفمه، وتبدو ذؤابة صغيرة سوداء من لحيته تحت اللثامة، يمشى حثيثا كأنما شىء لا قدرة له عليه يطارده، ولا يقطع خطواته إلا شاب على حمارة رمادية قصيرة.. ينهال عن ظهرها قافزا، ليسلم عليه و... يمضى.. لقد كان ابن مضيفه.

اهتزت نظرة الشايب، وترنحت خطوته فكاد أن يميل على جنبه، ودمدم بخفوت «يعوض الله»، ومع أنه بملء عينيه رأى مربط الثور خاليا، إلا أن الرباط و«الخزام» كانا يوهجان فى صدره لوعة ما.

ووقتما دخل على المرأة، لقيها تذكر ذلك الرجل ببعض السوء، وتهيل على سيرة دعت الشايب لشراء الثور، بالسباب فأخذ الشايب وأعطى معها فى الكلام، وقال بصوته المشحوب ، إنها

تعترض على قدر الله، ولكل شيء سبب، فلو لم يأكل الثور من زرع الذرة الذى أعجب بخضرتها وطراوتها ، لما حشره ومات...

وزاد:

احمدى الله، أننا لحقناه على آخر نفس، فذبحناه، وتصدقنا بلحمه، وهذا حال الناس مع حلالهم.

وكان الشاب يقف بينهما، فيلقى بكلمة هنا، وكلمة هناك، رغبة منه، والمتجاوز فى إسكاتهما عن أمر ذهب وانتهى.

(*)مجموعة «أحوال الديار» ـ ط نادي جدة ـ ١٤١٤ ـ ١٩٩٣.

١٣- الحفلة(*)

عبد الله باخشوين

بعد أن فرغ من قراءة «بطاقة الدعوة» التى تلقاها هذا الصباح، وضعها فى درج مكتبه وانهمك فى عمله بطريقة روتينية باردة.

ظلت مشاعره حيادية بالرغم من أنه يعرف أصحاب الدعوة منذ زمن بعيد، ويحمل لهم فى نفسه ذكرى طيبة، غير أن الزمن دار دورته وباعد بينهم، فأصبحت العلاقة سطحية، أقصى ما فيها الذهاب لتقديم العزاء إذا كان هناك ما يحزن، أوتلقى «بطاقة دعوة» من قبيل رفع العتب.

نسى «البطاقة» تماما خلال عمله لكنه تذكرها عندما هم بالإنصراف، فتح درج المكتب... تناولها.. قلبها متفحصا توقفت عيناه عند الموعد والمكان الذى ستقام فيه... طواها... أعادها للدرج ومضى.

ستكون فى منزلهم إذن، حسنا فهو ليس بعيدا عن منزله، كما أن موعد حضور الحفلة المبكر أكد احتمال ذهابه فبإمكانه أن ينسحب قبل ضياع الليل هدرا إذا لم تعجبه.

قبل الموعد بساعة، حلق لحيته وكوى ثوبه و«غترته» وعلقهما على المشجب بجوار السرير، ذهب إلى المطبخ، أعد كوبا من القهوة وعاد إلى فراشه استلقى ، أخذ يقلب صفحات مجلة فنية سبق أن قرأها عدة مرات ، لم يكن يريد أن يذهب مبكرا حتى لا يكون أول الحاضرين، فيضطر لأن يجامل هذا ويضحك لذاك ويخوض حوارات لا داعى لها.

ذهب بعد الموعد نصف ساعة،وحتى يضمن أن لايكون من المبكرين ترك سيارته وذهب سيرا على قدميه، سوف يندس فى زحمة الضيوف، فيرونه وينشغلون عنه بضيوفهم الأساسيين.

الشارع الذى يقع فيه بيتهم كان خاليا تماما رغم اتساعه.. وليس به ولا حتى سيارة واحدة، آثار ذلك دهشته ، صحيح أنه جاء سيرا على قدميه، غير أن هذا لا يعنى أن بقية الضيوف بيوتهم قريبة من مكان الحفلة مثله، تلفت فيما حوله فازدادت دهشته وهو يرى الشارع خاليا حتى من المارة، لم يكن هناك سوى رجل واحد يقف بجمود أمام باب البيت.

استعاد في ذاكرته سطور «بطاقة الدعوة» فتأكد أنه جاء إلى المكان المحدد وفي الموعد الصحيح، غير أن خلو الشارع حتى من المارة في مثل هذا الوقت المبكر أمر يدعو إلى الاستغراب بالفعل، اتجه نحو البيت بخطى بطيئة مترددة. فكر أن يعود من حيث أتى لأن البيت ليس عليه أو حوله ما يوحي بمظاهر الفرح أو الاحتفال ، مازال كعهده به بيتا قديما جميلا يوحي بمظاهر عز كاد أن يزول، ويحاول دون جدوى أن يحافظ على هيبته أمام زحف العمران الجديد.

عندما حسم أمره وقرر العودة، كان صاحب الدعوة قد لمحه وهب لاستقباله يرحب به ويكيل على مسمعه كلمات شوق وعتاب قبل أن يفسح له الطريق إلى البيت.

توقف أمام الباب بحركة لا إرادية والتفت نحو مضيفه ليستوضحه: كان النور داخل رواق البيت مطفأ، وليس هناك ما يكسر حدة الظلام سوى ضوء الشارع الذي ينوس على بعد خطوتين أمامه قبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة دفعه مضيفه إلى الداخل وهو يواصل ترديد كلمات الترحب، تركه يتخبط في خطواته الأولى داخل البيت دون أن يساعده أو يعتذر عن الظلام.

١

اعتادت عيناه العتمة فأخذ يسير بخطى حذره، انقبض صدره عندما شعر بيد مضيفه تربت على ظهره وتدفعه دفعا خفيفا إلى الداخل. اجتاز الرواق فقادته خطاه إلى ممر طويل معتم، فى نهايته باب علق عليه قنديل صغير ينز للممر بضوء شحيح أيقن أن تلك ليست هى المرة الأولى التى يشاهد فيها الممر كان طويلا جدا أطول مما يوحى إليه حجم البيت من الخارج، صحيح أن زمنا طويلا مضى منذ أن دخل البيت آخر مرة لكنه بحكم العادة يمر من أمامه مرة واحدة فى الأسبوع على الأقل، وخلال مروره لا يذكر أنه شاهد حركة بناء أو ترميم توحى بالتوسع.

تلفت حوله فازداد انقباض صدره لأن الممر كان عتيق البناء كعتق البيت ، وأيقن أن العتمة هى التى أوحت له بأن الممر قد طال.

هدوء غريب يلف البيت، لم يكن يسمع سوى وقع قدميه وقدمى مرافقه، أين المدعوون إذن؟ إن البيت حتى عندما يقتصر على سكانه الأصليين لايكون بمثل هذا الهدوء الفج المريب، أضف لذلك أن للحفلات طقوسها وحركتها وضجيجها التفت لمضيفه كى يسأله غير أن وجه الرجل كان صارما إلى الحد

الذى يوحى بأنه لن يجيب على أى سؤال يوجه إليه. قبل أن يصلا إلى الباب، أسرع مضيفه أمامه، متوقفا أمام الباب وأخذ ينحنى له بود ويقول:

- تفضل .. تفضل .. تفضل

وضع يده على ظهره ودفعه دفعة قوية نوعا ما، مد يده محاولا الاستناد إلى الباب، غير أنه انفتح بليونة جعلت خطواته الأولى تتعثر داخل الغرفة.

كانت الإضاءة قوية إلى الحد الذى جعله يضع يده على عينيه ويسير عدة خطوات داخل الغرفة وهومغمض العينين. اصطفق الباب خلفه بهدوء، فتح عينيه ببطء، أول الأمر ثم عاد وأغلقهما عندما بهره الضوء الحاد. احتاج لوقت طويل حتى تعتاد عيناه عليه، فى البدء بدا كل شىء ضبابيا خابيا. اشتعل الضوء وهجا ونجوما من عينيه. سال الدمع وازدادت غشاوة الرؤية. فرك عينيه بقوة وأخذ يحاول تبين ما بداخل الغرفة. التفت خلفه بحركة عفوية بحثا عن مضيفه، تراجع مشدوها قبل أن يلتفت بكليته ، لم يكن هناك أحد.. بل حتى لم يكن هناك باب أصلا كان مكان الباب جدار أبيض ناصع البياض جدار بليد أصم حدق فيه بدهشة.

هل اختلطت عليه الجهات فنسى الجهة التى دخل منها لتوه؟

دار على نفسه دورة كاملة وهو يحدق فى الجدران بحثا عن الباب الذى دخل منه. هاله بياض الغرفة واتساعها. كانت خالية إلا من مقعد وثير يقبع فى نهايتها ، نقطة سوداء فى بحر البياض الفج . كل الغرفة بيضاء بياضا حادا مشعا.. حتى أرضها كانت ملساء زجاجية.

الجدار القريب منه هو الذى يقبع فيه الباب الذى دلف منه بلاشك، أخذ يحدق فيه بدهشة... خطا نحوه وأخذ يتلمسه بحثا عن باب أو شق يوحى بوجود باب... لسعته برودة الجدار ونعومته، دق عليه بكلتا يديه عله يسمع صوت الخشب، آلمته صلابة الجدار.

هل يكون إغماض عينيه لحظة دخوله قد دفعه باتجاه غير الاتجاه الذى دخل منه فوجد نفسه وظهره بمواجهة جدار آخر؟ دار على نفسه من جديد . كانت الغرفة واسعة بشكل لا يتناسب وحجم البيت أطلاقا، بهر عينيه البياض الذى يشع من كل أرجائهما، بياض غبى تغلفه طبقة كالماء أو كالزجاج.

شعر بصداع حاد يتسرب عبر عينيه ويلف رأسه.. نفرت العروق فى صدغيه وأخذت تشد على أعصاب رأسه ورقبته ،

شعر بالاختناق والدوار، نظر إلى المقعد الوثير هناك في أقصى الغرفة فرأى على مسند ظهر المقعد هدهدا خشبيا يتحفز ويكاد يطير... انهار تحت تأثير الدوار ويقرفص على الأرض أسفل الجدار.

قرر أن يتلمس الجدران بحثا عن الباب الذى دخل منه. نهض مسرعا ليبدأ بحثه قبل أن يسيطر الصداع على رأسه ويحول دونه والرؤية أو التفكير ، سيجعل الكرسى نقطة يبدأ منها وينتهى إليها، سار بخطى حذرة خشية أن تنزلق قدماه على أرض الغرفة الزجاجية. لم يجد الهدهد على ظهر مسند الكرسى. كان مقعدا عاديا ، تحسسه بقلق قبل أن يجلس عليه ليستريح ويفكر. عض الصداع رأسه عضا خفيفا. نهض مسرعا، جعل الكرسى خلف ظهره والجدار الملاصق للكرسى عن يمينه والجدار البعيد عن يساره، وأخذ يتحسس الجدران جدارا جدارا دون أن يصل إلى باب أو شق يوحى بوجود باب. أربعة جدران صماء باردة. سقط على الكرسى متلاشيا وعرقه يتصبب، يا لهذه الحفلة الغريبة، إن الغرفة تكفى لاستقبال أكبر عدد من الضيوف.. ولكنها خالية إلا منه. إنها مبالغة لا مبرر لها: بدءا من الشارع الخالى والرواق المعتم والممر الكئيب،

وانتهاء بهذه الغرفة المبالغ في بياضها واتساعها استعاد في ذاكرته «بطاقة الدعوة» فهاله حجم شعوره بالنسيان، حتى لقد خيل إليه أنه لم يتلق أية دعوة أصلا، لسعت أطرافه نسمة باردة هبت من مكان غير محدد. أخذت أوصاله ترتعد، وسال خيط من العرق على طول عموده الفقرى زاد من ارتعاده، ضم يديه إلى صدره. تقرفص على نفسه داخل المقعد فشعر بصليل البرد في عظامه ، جال بعينيه في الغرفة ثم ثبتها على السقف. شعر بالخوف وهو يرى السقف قريبا منه. نهض وتطاول بقامته ومد يده محاولا لمس السقف فرآه بعيدا موغلا في البعد. شعر بأنه داخل قالب ثلج كبير مجوف... سقط على الكرسي حزينا.

أغمض عينيه فتشكل البياض نجوما ودوائر ضوئية داخل عينيه المغمضتين ودار الكرسي به فاستسلم لدورانه في خدر وحاول أن يتذكر دخل هذا البيت صغيرا مع أمه أكثر من مرة لعب فيه مع ابنتهم ذات الشعر الكستنائي والوجه الأسمر والجسد النحيل. هام بها وأسكنها أحلامه حتى انتفض القلب ذات يوم وذهب بعيدا .مضى يكبر وإخوتها خارج الطفولة ، رحل وتغرب ذاق طعم النجاح وغص بمرارة الفشل. تفرق الأهل من حوله فبقى وحيدا مهجورا في بيت مهجور. يعمل من أجل

أن يأكل وينام حتى يحلم، لم يبق له سوى من باعد الزمن بينه وبينهم وهاهو ذا يتلقى «بطاقة الدعوة» من قبيل رفع العتب ويأتى لتلبيتها فيضعونه فى هذه الغرفة المبالغ فى بياضها، ويتركونه يبحث فيها عن باب ، فكر أن يصرخ... أن ينادى أحدا ، نادى بصوت مسموع، فتكسر الصوت على بعد خطوات منه، صرخ بكل صوته فدوى الصدى وكاد يصم أذنيه، كز على أسنانه فشعر بالصداع يخزه كأن يدا فولاذية أطبقت على جمجمته، أغمض عينيه كى يريحهما فى انتظار أن يجيب على صرخته أحد، لكنه أغفى.

لايدرى إن كانت إغفاءته قد طالت، لكنه أفاق مذعورا بعد أن خنقه كابوس رهيب. تلفت هلعا فأغشى عينيه البياض الحاد. استغرب وجوده فى الغرفة.. ثم انتفض مذعورا عندما تذكر الحفلة كاد أن يصطدم بطاولة صغيرة وضعت أمامه. حدق فيها باستغراب ودهشة، كان عليها صينية تحمل ثلاثة أطباق مغطاة وضع على كل منها بطاقة صغيرة، مد يدا مرتعشة وتناول أقربها إليه وهو يفكر فى الطريقة التى يمكن أن يكونوا قد أدخلوا الطاولة بها. قرأ ما فى البطاقة على عجل: (إذا كان الوقت صباحا فصباح الخير.. أما إذا كان مساء فعليك

بإحدى البطاقتين).

نظر إلى معصم يده اليسرى بحركة عفوية بحثا عن ساعته فتذكر أنه تركها ملقاة على سريره فى البيت . تناول البطاقة التالية وقرأ: (سعداء نحن بتشريفك حفلتنا البهيجة. تناول طعامك واسترح) ظل مترددا للحظة ثم تناول البطاقة الأخيرة وقرأ:(يسعد مساك ياحلو)»

رفع الأغطية عن الأطباق فوجدها فارغة. تذكر أنه تناول غداء خفيفا، رفع رأسه وأخذ يتأمل الغرفة فاصطدمت عيناه بجدران قريبة. دفع الطاولة بخوف فسقطت الأطباق دون أن تحدث صوتا واصطدمت الطاولة بالجدار الذى أصبح قريبا أمامه. اندفع نحو الجدران وأخذ يتحسسها بذهول. لايبعد كل جدار عن المقعد سوى خطوتين ، أصابه دوار شديد. انقلبت أمعاؤه. استند إلى مسند الكرسى وأفرغ ما فى جوفه،كان جوفه خاليا فلم يقذف للخارج سوى مادة صفراء عفنة سرت عفونتها وعمت أرجاء الغرفة مما جعله «يهوع» دون أن يقذف جوفه شيئا. «هواع» وصداع ، شهق، وبلا إرادة منه أطلق صرخة رهيبة ولم يعد يشعر بشىء، عندما أفاق من إغماءته وجد نفسه مغطى بريش وحطام المقعد... ملأت خياشيمه رائحة

القيء. حاول أن ينفض الريش والحطام عن جسده فصدته الجدران التى عن جانبيه وحالت دونه وفرد ذراعيه، حاول أن ينهض فاصطدمت جبهته بجدار السقف فلم يتمكن حتى من الجلوس ، استلقى مذعورا بردت أطرافه حتى كادت تتجمد. تكاثف الريش على وجهه، شعر بعجز فلم يقو على تحريك أصابع يده لإبعاد الريش الذى بدأ يخنقه، أخذت أنفاسه تضيق.. تضيق.. حتى شهق فدخل الريش فى خياشيمه، انتفض اشمئزازا ورفع رأسه.

كان جسده يتصبب عرقا وضوء النهار الحاد يعشو عينيه، مد يده تحت وسادته وتناول ساعته،نظر إليها فأيقن أن موعد عمله قد فات. نظر إلى الساعة المكتبية، كانت قد دقت كعادتها فلم يصح دفع الغطاء ونهض على عجل عندما رأى إلى جوار الساعة ظرفا مغلقا لم يكن قد ترك أى ظرف قبل نومه، تناوله بقلق .. فض غلافه وقرأ كانت «بطاقة دعوة» سقطت من يده كأنها جمرة بعد أن قرأها ، إنها نفس البطاقة التى كان قد تركها فى درج مكتبه. نظر إلى المشجب فوجد ثوبه «غترته» المكويين معلقين عليه. استعاد صفاء ذهنه بسرعة ذهب إلى المطبخ صنع كوبا من القهوة وعاد إلى الغرفة. وضع الكوب على

الطاولة بجوار الساعة والبطاقة ، خلع بيجامته، لبس ثوبه وغترته وعقاله..ارتشف رشفة من كوب القهوة. تأمل نفسه فى المرآة، خلع غترته وعقاله.. قذف بهما على السرير بإهمال،وأخذ يبحث عن حذائه حتى وجده فوضعه فى قدميه. ارتشف رشفة من كوب القهوة، شعر بثقل فى قدميه... خلع الحذاء واتجه نحو الباب حافى القدمين، اجتاز العتبة إلى الشارع، وقف يتأمله ، كان خاليا فى هذا الوقت من الظهيرة. انحنى وتناول ذيل ثوبه وضعه بين أسنانه وأطبق عليه ببرود. خطا فى الشارع حتى أصبح فى منتصفه.. تلفت فلم ير أحدا .. أحكم إطباق أسنانه على طرف الثوب وأخذ يركض حافى القدمين أشعث الشعر، كان ركضه بطيئا أول الأمر... ثم لم تلبث سرعته أن ازدادت ... أخذت تزداد وهو يطلق بين الخطوة والخطوة صرخة صغيرة يستحث بها قواه على مزيد من السرعة، كان يعدو فى الشارع وحيدا والأسفلت يلسع قدميه ويجعله يكاد يطير لا يلوى على شيء.

(*) مجموعة «الحفلة» ـ دار العلم ـ جدة ـ ١٤٠٦ = ١٩٨٥.

اللوحة(*)

عبد الله باقازى

يموج الصوت داخل الغرفة، يرتفع ويعلو... عيناه تحدق فى الجدار بلا هدف، تقع نظراته على «لوحة» الجدار الوحيدة ، يتأملها ، يستعيد ذهنه عنوانها: «الغابة»

الأشجار الضخمة تستطيل أمام عينيه، تضيق بها الغرفة.يعبر الغاب، يجتاز أحراشها الموغلة فى الوحشة والكثافة، تغوص المشاعر فى سديم كثيف من الضباب... يرتفع صوت التسجيل بجواره:

أقبل الليل وناداني حنيني

وسرت ذكراك طيفا هام فى بحر ظنونى

ينشر الماضى ظلالا كن أنسا وجمالا

فإذا قلبى يشتاق إلى عهد شجونى..

الليل غابة مدلهمة السواد ممتدة بطول الزمن الرابض فى

الأعـمـاق سكونا... يجـوس خـلال الماضى، يسـتـجـديه على مـشـارف المقطع بين مـاض لم يدع لى غـيـر ذكـرى عن خـيـالى لاتغيب لا تغيب

وأمان صورت لى فى غد لقيا حبيب لحبيب «والمرأة» غابة جميلة أضنت وسائل التفسير، دوخت أساطين الشعر والفن فى فلك رموزها..

عيناه مازالتا على « اللوحة»..

إفريقيا تكتظ بالغابات ..الوحوش تملأ الغابات..الأسد من مسمياته: الغضنفر... الرئبال.. الليث... الأشجار فى الغابة كبيرة عتيقة، توفر الظل والركود للحيوانات... متى يتوفر للنفس ظل ساكن تأوى إليه..؟؟

كيف يتسنى له زيارة غابة؟ هل يجرؤ على اقتحام المجهول ، والتوغل خلال الحيوانات الشرسة بلا وجل؟ هل يمتلك مغامرة توفر له تحسس العمق والكثافة فى الغابة..؟وتحسس المجهول كيف يكون؟؟

ليل بلا انتهاء يمضى، وصنبور حنفية الماء العطب ينقش الصمت بطقاته الهامسة..

... تك..تك.. تك... تتراقص على طقات الماء الصغيرة الغابة،

وكل معالم السكون فى نفسه... يموج صوت التسجيل مرة أخرى صادحا:

يابعيد الدار عن عينى ومن قلبى قريبا

كم أناديك بأشواقى ولا ألقى مجيبا

***

ياهدى الحيران فى ليل الضنى

أين أنت الآن، بل أين أنا؟!

يتجاوب مع تصاعد الغناء، تفور فى نفسه براكين نشوة..

ثمة بعوض يحوم ويهمى على المصباح الكهربائى... زنين البعوض يملأ أذنه، قارن بين زئير الأسد وزن البعوض، ضحك للمفارقة والمقارنة وقال لنفسه: إن الدنيا مليئة بالمفارقات العجيبة الغريبة... حتما الغابة تضم بعوضا يعيش إلى جوار الأسد والفيل، تصور الفرق بين قدم الفيل والبعوضة، هاله الفرق.. قدم الفيل تسحق ملايين البعوض... ضحك للمرة الثانية للمقارنة العجيبة..

تحتله الغابة من جديد ، تتلبس أعماقه فوضى عارمة، تتداخل خلالها أشجار الغابة، تهيج الوحوش ، تهاجم من خلال الأشجار ، تتنامى الطفيليات، يسكنه الصراخ والعويل للواقع

المريع.. تهذى المشاعر من جديد... يدور الصوت متعرجا فى سماء الغرفة.. تتلوى الآمال محمومة، تحوم الأمانى طيورا حول برك العطش.. يدور صوت التسجيل من جديد..يدور الصوت من لحظة ترقب..

اشتعلت الفوضى فى الغرفة من جديد... حتى الغابة فوضى وإلا لتناسقت الأشجار، ولاحترمت الحيوانات ضعف بعضها البعض، يرتفع النغم، بقوة الصوت صادحا:

يا قلب لو طاب لى زمانى   وأنعم الدهر بالتدانى

تبسم الفجر فى عيونــى   وغرد الطير فى لسانى

وبت مـن نشـوتى أغنـى   والليل يروى الحديث عنى

يا هدى الحيران فى ليل الضنى   قد غدوت الآن أدرى من أنا

أنا طير رنام فى دنـيا الأحـلام   أنا ثغر بسام فى صفو الأيام

الطيـور تقطن الغـابات، مـخلوقـات جـمـيلة تشـيع فى الكون الوداعة والسكون... تمنى أن يقتنى طيرا، أن يصدح فى المنزل صباح مساء مذكرا بجمال الحياة المفقودة فى تضاعيف الغابة ..سأل نفسه: كم من أنواع الطيور يعرف؟؟... البلبل ، الهدهد .. القنابر .. توقف جهاز التسجيل ، واستنفد الشريط نفسه كما استنفدت حياته صبرها سيدير الشريط من جديد... ليعود

متكررا كأيامه الهشة فى هذه الحياة.

يرتفع الغناء من جديد... يرتفع التساؤل مع الغناء:

ياهدى الحيران فى ليل الضنى أين أنت الآن، بل أين أنا؟

هو فى تضاعيف الغابة هائما، بين فكى الوحدة مهروسا...
نبتت فى نفسه الهواجس مجددا... تتعامد... تتوازى... تتشابك،
يعجز عن فك مغاليقها تصبح كالغابة، كحياته المنسوجة بالضنى
والوحدة والفوضى!!.

تجوس عيناه خلال الغابة... كم يتمنى لو كان رساما...
مارسم لنفسه طريقا فى يوم، ولا جعل من التخطيط منهجا
لأيامه!! ماذا سيرسم ياترى؟ سيمحو هذه اللوحة، وسيرسم
عوضا عنها... عصفورين يتناجيان داخل عش!!

ماجت الآهات تحرق زوايا النفس: إلى متى لعبة العناد
مستمرة يانصيب؟؟

يصدح جهاز التسجيل بالغناء عارما، تختلط الفوضى
بالنغم... تثور فى نفسه براكين النشوة مجددا... يرفع صوت
التسجيل، يختفى صوت صنبور الماء العطب... تتلاشى كل
الأصوات من حوله، يبقى الغناء وحده عارما، تموج تعاريجه
خلال «الغابة» وسطح الغرفة.. رائحة نار... الغابة تحترق...

احترقت كل الفرص القديمة فى العثور على «بنت الحلال» وبقى «أعزبا» وحيدا ... يطبخ لنفسه ويغسل!!

رائحة نار... اندفع نحو المطبخ، ألسنة النار كانت تنهش جدران المطبخ، وتلعق السطح فى شراهة... احترق العمر فى نار الانتظار.. فى الخارج أصوات ونداءات، تدعوه لفتح الباب ..الجيران اندفعوا «بجرادل» الماء التى يحملونها ليطفئوا الحريق!!

ما سأله أحد عن الحريق الذى يعربد فى أعماقه...

(*) مجموعة « القمر والتشريح» ـ نادى مكة الثقافى ـ مكة المكرمة ـ ١٤٠٦ = ١٨٨٦.

نبت القاع(*)

عبده خال

منذ أربع سنوات لم يغير جلسته، يظل فى مواجهة البحر يحدق فى الأفق بترقب وصبر نافذين، يجلس جامدا كقارب ألقى به على شط هذا البحر ليستقبل الموج والطحالب وأخبار الموانئ الموحشة.

من بعيد تلمحه كصخرة قدت على هيئة إنسان تكور ويبقى رأسه معلقا فى البعيد ومع الغروب تكتشف أن تلك الصخرة ما هى إلا شخص رضى أن يسمر نفسه يوميا بهذه الناحية المقفرة من شاطئ المدينة، يعبره الريح ورذاذ البحر وأصوات النوارس المحلقة على مقربة من رائحتها. ومن هناك، من المدى تبزغ أمواج وأشرعة وقوارب ، وصيادون وأسماك، وشمس تسقط فى مداها ولا شىء يأتى مما يموج به البال.

يخرج من بيته مع القيلولة وثمة دعوات تسكبها امرأة مسنة

خلف ممشاه ففى مثل هذا الوقت تقل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيغتنم خلو المكان من الصيادين والباعة ويتسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال مادا خطوات عجلة عابرا قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرخوة وثمة أمل يتقطر بخاطره فيخضر له الفؤاد، يخالس المارة النظرات السريعة ويمرق بسرعة وارتياب وإذا رأى شخصا قادما فى طريقه تلعثمت خطواته ووقف كمن يريد جمع أصداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشى المارة حتى إذا أصبح فى منأى من تلك العيون الضيقة والوجوه السمراء، أخرج كيس قمح صغير من جيبه وأخذ ينثر حبيباته للطيور التى تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليلتفت خلفها مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأصيل حيث تتجمع طيور النوارس فيحاورها صامتا بينما عيناه تركضان فى الأفق بترقب وصبر مملين. وحين يلمح الشمس تنتحر انتحارها اليومى وتقبر قرصها بالمدى ينفض مؤخرته ويعود من حيث أتى لتبتلعه الأزقة الضيقة فى جوف الحارة.

فى البيت تستقبله بلهفة وتتلمس جسده الفارغ وبصوت محروق متلهف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاما تعاود لهفتها

القديمة: بشر

فيضمها لصدره برفق، ويعيدها إلى موقعها الذى أصبحت تألفه كما تألف رائحتها، فتتحشرج الكلمات بحلقها فلا تقوى على شىء سوى الإجهاش بالبكاء ، وتتمتم بلوعة:

لا تيأس .. سيعود

فى الماضى البعيد كان صغيرا لا يعرف سرا لهذه الدموع المنسكبة على الدوام والتى تركت عيناها بيضاء خالية من كل شىء إلا حركتها المتلاحقة، كان يسمعها فى أقصى الليل وهى تنتحب وعندما كبر قليلا كانت تسند رأسه بحجرها كلما سألها عن أبيه وتحكى له أنه سيأتى محلقا ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف. كان يظن أن هذه الحكاية ستنقطع وينتهى أثرها حينما يكبر ظانا أنها حكاية تنسجها لتستجلب النوم لعينيه المفتوحتين على الدوام (والتى أصبحت عادته حتى عندما كبر وأصبح رجلا ثلاثينيا فقد ظل ينام مفتوح العينين) لكن تلك الحكاية لم يطمس بريقها تلك السنوات الطوال، ولم تنسها هذه المرأة التى ابيضت عيناها من سفح الدموع.

ففى إحدى الأيام وبينما كان يعيد ترميم المنزل ثارت ثورة لم

يعهدها بها وأقسمت بأن تترك له الدار وتهيم فى أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالتها الأولى، تلك الفرج التى استبقتها بسقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصيح به: ـ أنسيت بأن أباك سيعود إلينا من خلالها ،

ولكى لا يغضبها فقد استبقاها مشرعة للريح والمطر فما إن تحل مواسم الأمطار حتى يستحيل المنزل إلى مستنقعات يتم نزحها بكل عناء، وكان يجد صعوبة فى إقناعها بنزح تلك المياه الراكدة بفعل المطر حيث تصر على بقائها وهى تغمغم:

أجد به رائحة أبيك.

فيستجيب لها ويبقى مياه الأمطار راكدة دون أن يجرؤ على نضحها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستحلب البعوض ودويبات الأرض. عنها فقط تأتى لتقول له: ـ لن يأتى أبوك فى هذا الموسم فانضح هذه المياه الآسنة.

وفى كل عام تمضى مواسم الأمطار مخلفة حلما قديما شاخ بذاكرة تلك المرأة التى لم تيأس من عودة زوجها الذى خرج ذات ليلة ولم يعد، فقد حكى لها قبل اختفائه أنه رأى نسرا قويا يخطفه ويحلق به في الفضاء ويقذف به فى عتمة البحار النائية، وبعدها بليلة واحدة وبينما كانت نائمة أحست بشىء يتحرك من

حولها وينفرج سقف غرفتها لتلمح زوجها معلقا فى الفضاء كطائر عملاق يخفق بجناحيه بشدة صوب البحر. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت عينيها وواصلت نومها وعندما أفاقت وجدت جزءا من سقف غرفتها منبعجا ولم تجد زوجها .

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تعد لدارها إلا حينما أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من نفس المكان الذى خرج منه وأوصاها أن تبقى بيتها مفتوحا وأن تهيئ له عشاءه كل ليلة فيأتى جائعا كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروى هذه الحكاية يوميا على مسامعه حتى أجزم أن الجنون اقتات عقلها وتركها عبئا يحمله ضمن همومه اليومية، فكان يسايرها وفق ما تشتهي، ونادرا ما يتذمر منها أو يثور لتصرفاتها الغريبة.

كانت في كل ليلة تدور على تلك الفرجات وتنظر إليها لدقائق وهى تحمل شرشفا طويلا لتغطى به عورة زوجها حينما يأتى، فقد أقسمت أنه سيأتى عاريا كما تراه يوميا فى منامها، ولم تكف عن هذه العادة منذ أن تغيب زوجها عن البيت، وتعتذر من كثرة نومها لابنها بقولها: - يلح على أن أمكث معه أطول وقت ممكن فلا تلمنى فأنت لا تعرف أباك، إنه صارم والويل لمن

يغضبه، وأنا أحبه ولا أريد إغضابه.

فيهز الابن كتفيه محوقلا، ويتركها وهى تسبه لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة: - أتظن أن أمك قد أصابها الجنون... نعم أنا أقرأ ذلك بعينيك.. قل ولا تخف.

وعندما تجده صامتا وعيناه تركضان فى اتجاهات شتى تتركه وسبابتها تركض فى وجهه وصوتها ينداح عميقا موقنا: - سوف يأتى كما أراه فى كل ليلة، ساعتها ستندم وتطلب عفوى ولن تجده.

كانت فيما مضى تجمع مياه الأمطار المنسكبة من فرجات غرف المنزل فى أوان خزفية وتسقى بها أرضا أعدتها لذلك وكلما نبتت نبتة ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما تنبت أشجار الموز وسيخرج من غلف إحداها، ليطير إلى السماء ويعود من حيث خرج إلا أن خيبات الأمل كانت تلاحقها فما إن تبتعد النبتة بساقها عن الأرض قليلا حتى تذوى وتذبل فتعجز كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تغير هذه العادة إلا حينما علمت أن الحمير تتبول بتلك الأرض ، فلجأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهيأة لأن تنهض ببذرة الموز... كان بيتا غريبا، أسقف منبعجة وأرض مزروعة وامرأة تدور بشرشفها ليلا

تنتظر من تستر عورته.

غالبا مايتركها وهى لاتزال فى ثورتها العارمة:

ـ سوف يأتى كما أراه فى كل ليلة ، ساعتها ستندم وتطلب عفوى ولن تجده.

دأبت على المكوث بمقهى الشاطئ حيث يتوافد الصيادون ويتناثرون فى أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته والبعض منهم يستغل هذا الوقت فى رتق شباكه أو إصلاح قاربه الشراعى الذى مضغته رياح البحور العميقة، بينما يظل داخل المقهى مرتعا للعب والضحكات واحتساء الشاى وإن كانت الغالبية تأنس للجلوس واجترار الحكايات القديمة.

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة فتجدهم ينطلقون جماعات باتجاه السودان أو أثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وآمالهم وأهازيجهم المتلئة بالشجن وينتظرون ما يقذفه البحر لهم.

يقولون إن أبى كان يمتلك صوتا رخيما ينشط له أكسر الصيادين كسلاً فيقفز كالملدوغ يجذب الشباك ويشارك الصيادين ترديد الغناء.

فى هذا المقهى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر صيادا أو

نجـار قـوارب أو بائعـا لسـمك أو مـحـرجـا . ولم أكن لأحظى بامتياز فى هذا المقهى لو لم أكن ابن ذلك البحار... الذى كان - كما يقولون - صيادا لم ينجب البحر مثيلا له ، فقد كان يعرف أسراره وخباياه وكثير منهم لا يؤمن بأن أبى يمكن أن يكون قد ابتلعه البحر كما يبتلع الأجساد الرخوة والتى سرعان ما يملها ويقذف بها على سطحه ويتخطفها الطير.

ويرجحون أنه مل حياة هذه المدينة التى تستقبل الغرباء وهى نائمـة، أولئك الغـرباء الذين يحـولون بحـرها، إلى مـسـتنقـعـات وأحواض لأسماك الزينة فلا تثور لكرامة بحرها ولأنه بحار عنيد مل هذه الميوعة وهجرها صوب المحيطات حيث يكون البحر فتيا.

يوميا أجلس فى هذا المقهى أرتشف كؤوس الشاى وأتسمع لتلك الحكايات العجيبة من مغامرات الصيادين حتى إذا دنى الغـروب عـدت إلى البـيت لأجـد أمى لاتزال توسـوس بسـيـرة زوجها.

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السوادنة) فكان محل حفاوة الجـمـيـع حيث أحـاطوا به بإجـلال وانثـالت الحكايات ورائحـة البحر، وأغنيات الدان دان.

كنت على مقربة منه فيرمقنى بين الحين والآخر بشىء من

التأمل والتفحص... كنت ألمحه بعمته الطويلة والمتكومة على رأسه كجبل قطن متماسك وقد تناسقت مع ذقنه الكثيف المهذب المخلوط ببياض ناصع كانت عيناه شديد اللمعان تومضان ببريق خاطف ولهما مقدرة على اختراق من تنظران إليه حتى أحسست به يتجول فى خاطرى، نظراته المتكررة أشعرتنى بالضيق فهممت بمغادرة المقهى، إلا أن صوت شيخ الصيادين جعلنى أتوقف وأستجيب له، تحركت باتجاهه كان يجلس عن يمينه ذلك البحار السودانى وعندما وقفت أمامهما قال له: ـ هذا ابن الناخوذة حسين المعلى.

مد يده مصافحا ومرحبا ترحيبا مبالغا فيه فشعرت بالحرج وبادلته التحية.. قال: ـ كيف حال أبيك؟

فتحرك شيخ الصيادين فى جلسته مصوبا النظر صوبه باستنكار: ـ ألا تعرف أنه متغيب ياشيخنا؟

فلم يعره اهتماما وغرس عينه في وجهي وهو لايزال يبث ابتسامته الناصعة وباغتنى: ألا زالت الوالدة تنتظره؟

هززت رأسى بالإيجاب فقال: ـ لاتذهب ،أريد أن أحدثك

فأوسع لى بعض الصيادين مكانا وجلست أنتظر بينما.كان يسرد بعض حكاياته مع البحر، بعد أن فرغ المجلس إلا من

كبار الصيادين استأذنتهم وتنحى بى جانبا، وأخذ يلاطفنى أوصانى أولا بوالدتى خيرا: - كن رحيما بأمك

- لكنها لا تمل من ترديد سيرة أبى الذى مضى من زمن بعيد.

فألقى كلمته بثقة ليرتج كل ما بداخلى: - سيعود

- هل تعرف عنه شيئا

صمت صمتا مهيبا وإن ظلت عيناه تتفرسنى بارتياب وبنبرة مترددة تسأل: - هل تريد رؤيته الآن؟

تشككت كثيرا بالرجل، وبتلك الحفاوة التى منحها له الصيادون ، فرددت بآلية:

أظنه قد مات من أمد بعيد

ابتسم ابتسامة مظللة ولم يعقب على مقولتى وتناول كأس شاى فارغ وصب به ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يتمتم عليه وأدناه من عينى لألمح رجلا يجلس فى قارب يغزل شراعا بمهل وإتقان وقد أصابه الضمور... كنت أحدق بدهشة، ولم أفق إلاعلى صوت البحار السودانى وهو يقول:- هذا هو أبوك... انتظره سيعود من البحر كما ذهب إليه..إذا لم تنتظره لن يأتى قلت متلهفا: - متى سيأتى؟

- هذا في علم لا أقدر على قراءته، ولكنه سيأتى وقبل أن يهم بالتحرك قال: - إياك أن تتأخر عن لقائه فسيكون أحوج إليك ساعة أن يصل.

ونفض مؤخرته مادا يده باتجاهى وضغط عليها بود، ومضى ينهب الطريق بقامته الفارعة وقبل أن يبتعد استدار إلى وقال:

عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإياك أن تخلف الموعد لأى سبب من الأسباب وإذا تغيبت عن الموعد فسيلقى ببيتكم من إحدى الفرجات طائر ذاو هى روح أبيك، فحذار أن تغيب، وحذار أن يراك أحد... مفهوم.

استثارنى فصحت به: - أين أنتظره؟

كان يطلق الكلمات من خلفه: - من جهة بزوغ نجوم الدب الصغير. لم تشفنى إجابته فانطلقت راكضا خلفه. فاستدار وقد بدت على هيئته علامة الغضب: - لا تتبعنى ويكفى ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراته عدائية، فامتثلت لأوامره ولم ألحق به، وواصل سيره الحثيث باتجاه البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأنا أخرج يوميا أنتظر مقدم أبى

تحاملت على نفسى بقدر الاستطاعة كى أنهض وأتجه إلى

تلك البقعة النائية من الشط، لكن هذاالدوار منعنى بالرغم من المحاولات العديدة التى قامت بها والدتى لإسكات هذا الطنين الذى ينمو من الداخل ويتحول إلىَ دوار عنيف يعصف بكل كيانى فلا أقوى على شىء، سوى الإمساك بوسادتى ودفن رأسى بين طرفيها، بينما كل شىء من حولى يموج ويدور ويدور ويتحول إلى دوائر تتسع وتضيق وتجذبنى بقوة وعنف لأسفلها.

كنت أجاهد لأتغلب على هذا الدوار ولاشىء يربطنى بالأرض إلا صوت أمى التى كانت تواسينى بصوت حان: - تحامل على نفسك فقد أزف الموعد.

أبتعد عنها كثيرا، وأغرق بدوارى، أذهب معه بعيدا، وأمسك بنفسى كى لا ترحل فيجذبنى وينطلق بى كالإعصار وأغيب، أغيب فى اللاشىء، فى أوقات هلامية متباعدة أسمعها، تستنهضنى وأجاهد وأغرق فى دوارى أرى بحرا عظيما ،وأرى جسدى يتقاذفه الموج، يمضغه حينا، وأنا أتخبط وأرفع رأسى، وأصعد وأبتعد قليلا عن الدوائر السفلية لذلك الدوار، ومن بعيد عاد صوتها ملحا برتم الدفوف الثقيلة، وينشط حينا ويذبل بأسى، أحسست بيدها تمشط شعرى، ورائحة غطر ليمون فاحت من أسماك تقافزت بالقرب من رأسى،أخذت أجاهد

للإمسـاك بصوتها وكأنه حبل نجاة بينمـا كانت تزفنى حيتان البـحر وأسماكه . فجأة تخلت الأسماك عن مصـاحبتى وتغير صـوت أمي فـسـمـعـتـهـا تصـيح بجنون- هذا طائر ذاو يسـقط علينا ... انهض..انهض... انهض..

وكلمـا حـاولت النهـوض خـارت قـواى واتسـعت دائرة الدوار فـألح أبى يسـبح باتجـاه الشـاطئ بصـعوبة فتتخـاطفه الأمـواج وصوته يصيح- ساعدنى .. انهض... ساعدنى.. انهض

وتبتلعه دوامة كبيرة، فأراه يتلاشى ، ليعود الطنين.. كانت والدتى تحـاول إنهـاضـى وكلمـا حـاولت النهـوض ازداد الدوار، فـألح البـحر يقذف بأمواجه ويسـعى فى الشـوارع يدخل للمنازل ويسـحبنى صـوب جثة انتفخت على سطحـه لأسحبها ونتلاشى معا فى القاع.

(*)نشرت فى مجلة «الراوى» السعودية العدد الأول - مارس ١٩٩٨= ذو القعدة ١٤١٨.

المستحيل(•)

عمرو العامرى

عندما يبكى الناس أحلامهم أبكى سنين عمرى كلها... ماضيها وحاضرها والآتى الذى لم ير النور وأبكى معها طول الطريق ووحشة المنتهى.

وقفت بى الدنيا الغدارة... وقفت بى الدنيا الجحود على طرقات مقفولة النهاية وأطعمتنى المر والعلقم وأفضت بى إلى عتبات اليأس والقنوط وغيضت فى فؤادى ينابيع الحنان والأمان وحرمتنى بهجة الغد.. وماذا يخبئ الغد؟... غير الشجى والشجن ومواجع الأحزان.

أبلغ السفر المنتهى وهل هذا كل ما قدر لى فى سفر الغيب كم أتمنى ذلك ولكن... ولكن ستهل على أيام مازالت فى رحم الغيب وستطلع شموس وتغرب ولا شىء يأتى معها غير اندحار الأمنيات تعبت... تعبت من وعد لا يأتى من غيم لا يمطر ومن

أشواق لا تموت ولا تهادن وأبت بيض الأحلام أن تأتى.. كلها أبت أن تأتي حتى الذى جاء ناقصا أو مشوها أو جاء فى غير أوانه تماما كولادة ناقصة أو متعذرة.

وتلك الرعشة التى كانت تجتاحنى من الوريد إلى الوريد إن ذكرت غاريات العهود أدبرت وانتهت ما بها أدبرت وأمست كرسوم على الجدران أو كرماد الدمن الدارسة؟... أجدب القلب إن جفت ينابيعه أو عفا عليه الزمن. من يدرى.. من يدرى..

ماعادت تهمنى التواريخ والذكرى ولا أن أخط على بحور الرمل أو أنقش على جذوع الأشجار تواريخ أو تواقيع للذكرى(مررنا من هنا أو هنا كنا) بارحنى ذلك الوهج المتأجج لكأن العمر لا يتسع لذكرى قادمة... لكأن العمر يحتضر..

حتى ذلك الغائب(الولد) الذى حلمت به فى سرى وجهرى وعشت له ومن أجله العمر أبى أن يأتى لكأنه يعاندنى ومازال فى رحم الغيب ليبق حيث شاء لا أرى هناك دلالات مشجعة لقدومه... ليبق حيث شاء ذلك أضمن له وأرحم لى وأسلم لكلينا..

على أنه لو جاء لأشعلت له ما بقى من شموع العمر ولأفردت فى زحمة اليأس فرجة ولأعطاني سببا مقنعا للحياة هذه الغانية

اللعوب التى تحابى الجميل وتجلدنا كل يوم بكرباجها ثم نتلعق بها ونهبها عمرنا كله ونقنع أنها عادلة وجميلة ويجب أن تعاش.

أما آن لى أن أستريح تعبت وأنا أغنى للصمت والسقف والجدران والمقاعد الخالية اتسع الخرق على الرتق والشق على الراتق وتعبت من ترديد مواويل لا أحب ومن طرق دروب لا أود، وتعبت من أن أعيش العمر زمارا لزيد وطبالا لعمرو ليرضوا عنى ولن يرضوا ولو أمهرتهم ضياء القمر.

لأعش يوما، مجرد يوم لنفسى هذه النفس التى يتملكها الخواء والغربة والتوحد الأبدى وكأن لا قاسم مشتركا بينى وبين ما حولى كم أحس أن كل ما يغلفنى زيف وأن لا رابط يربطنى بزمانى ومكانى وبكل ما أرى.

لا شىء هناك غير خطى الزمان تدفعنى إلى حيث لا أدرى وأنا أعبر أمسى إلى غدى كأنى هارب من قدر ما من قدر يحس ولايرى ويكمن فى مكان قريب.

حتى الحب ذلك الوهج المتأجج والذى نغنى له فى أول العمر ولها وصبابة، ونبكيه آخر العمر ندما وتعاسة متغير كمتغيرات الحياة نفسها ولا زمان ولا أمان له وإنه يكتسب ولا يسترجع وكما تعجزنا تعليلات قدومه تحيرنا دوافع رحيله سوى أن القلب

ما عاد خافقا وكفى.

إيه كيف أضيء أروقة الروح والفؤاد وقد أظلمت وكيف أرمم خراب النفس وقد كسرت الحياة كل الأشياء الجميلة داخلى وكيف أصل ما انقطع وكيف.. كيف؟

أقلب وجهى فى النجوم الزواهر وأسأل.. أترى هناك فى البعيد فى أحدها عالم غير الذى نعيش .. قد يكون؟... ولكن كيف الوصول إلى هناك وليس لى غير قدمين مغروستين فى الطين أو تكفى أشواقنا لنبلغ من نحب... لا تكفى لا تكفى .. وإلا لغادرت الروح الجسد وهوى الهيكل للتراب..

(*) مجموعة « طائر الليل» ـ نادى جيزان الأدبى ـ ١٤١٠ = ١٩٨٩.

العصفور يطرح الأسئلة(*)

عهود الشبل

الساعة تشير إلى العاشرة تماما... هذا هو الليل... قادم... يلتهم ما بقى من الحياة يفتح الحزن أبوابه... يغتصب كل العيون المستحمة بالانتفاضات .. والجوع... أتلوى فوق أوراقى... أنضفى حزنى... ووجعى .. يتطاير جلدى فوقها... وأحترق حزنا..

الدوار يهزنى حتى العظم... أضع رأسى بين كفى... وأضغط بكل قوتى عليه، وكيف أستطيع أن أدفع الشيطان إلى أن يصلب نفسه قسرا بين وجدى، ووجعى .. كيف؟!

كيف أستطيع أن أغتصب الجوع، وأنجب مزيدا من القلق.. كيف أستطيع أن أهبط القاع... وأسفك مزيدا من الحب.. كيف؟

يسقط الصمت فى الوحل..

صوته يتسلق وجدى... يستلب الحزن والجوع... أحاول أن أمزق حالات اللاوعى داخل عقلى، وعقله... وأوقظ صوتى

ليكتشف لغتي النائمة فوق فوهة البركان..

سميتك الشمس والليل... قالها لى، ونحن نبحث معا عن أدوات حزن، ضاعت فى زرقة البحر، والعيون التى لا تنام...

فوق الرصيف... كنت أمشى ... تضاجع عيناى واجهات البيوت الفقيرة.. كنت حبلى بالقهر والجوع... يحدق بى طفل قادم من أعماق اليأس، يهزنى صوته... من يوقظ الليل فوق المدينة... من يطرد الجوع... من يعيد ضحك العصافير الصغيرة؟! من؟! وأواصل سيرى، أهتز بعنف ، وأهز خيوط الليل فوق صدرى... وأحاول أن أقتل الليل بخناجر القهر والجوع..

أرتطم بالأرض... تنفجر حولى كالماء... كالضوء... يرتطم حزنى الطفل بين يدى ورأسى... أمسك بالعتمة حولى... يتدلى صوته بين شفتى، وقلبى.. يمسك بى... يهزنى بعنف..

ـ أنت امرأة كالليل! نزقة كالبحر... ويسقط بين السيف والنطع... الريح تحاصر المدينة... ومدى أعرفها ... أعرف تاريخ الحب فى قريتى.. وأعرف كم طفلا ستنجب الأرض.. وكم حزنا ستمطر السماء... قالت العرافة:

أحد كفى إليها... تحدق بعينيها... تخنقنى رائحة الدم، ثم

الولادات المبتورة، أتنفس بعمق الحزن فى أعماقى... تسحب بغضنا من تاريخى... تقلب الودع والحجارة... تحرق كل بخورها .وصلاتها ... وتبتهل إلى الله أن يبقى الجوع وحده سيدا..

سألت أمى العرافة العجوز... هل سأكف عن إجهاض مواسم الفرح داخل جراح الفجيعة فيها؟!

وخرجت ولم تجبها..

الشوارع حولى حبلى بالصمت... الجوع يهزها بعنف... أقلب تاريخى، وتاريخ الأرض... نلتقى معا... تتداعى الذكريات والصور والأحداث ... وعقلى يركض.. ويركض، يحاول أن يخط بالدم تاريخ موتى وتاريخ ميلادى... وأهتز، أهتز كما الموج... يعتلى بداخلى الدم والنار.. وأحاول أن أجد طريقا يؤدى إلى الضوء... ودما يخرج من مئات الجياع فى موسم القحط .. غرفتى مليئة بالصور... والكلمات... والأوراق الزرقاء .. والأقلام الجافة... وصوته يحاصرنى حتى العظم..

ـ كيف أستطيع أن أبايعك، وأنا فى النار؟!

كان يرتعش .. ويهذى ... وتاريخى أسطورة نزقة... ومتوحشة... يمتزج فيه العشق بالعار.. والضوء بالماء.. وتركته يهذى وأنا أحتضر.. فى الصباح جاءت العصافير .. أرهقتنى ،

حطت على داري .. كانت حزينة.. يتراءى لى أن الليل رحل بقنه حتى إن الكؤوس لم تنته بعد... لقد داهمها الضوء، وهى تعانق الشفاه ببلادة..

قال العصفور .. أرهقتنى منحدرات الليل وأنات المتعبين وجئت إليك، شددت ثوبى بإعياء نحو موقع الخصر تماما... أغلقت نافذتى ... مزقت أوراقى الزرقاء ... تهاوت الكلمات فوق صدرى مثل العصافير عندما تفاجئها الطعنات الضارية... كانت نظراته تحدق بى بوحشية... يلتهمنى اليأس بشراهة.. وينقلب تاريخ الجوع فى أرضى..

أجتمع بالأصدقاء... كانوا ينتشرون بإعياء حول المأساة... يلونون الكلمات المهربة ببلادة وفجاجة... كان واقفا كتمثال إغريقى... يلتهم الأرض بعينيه، لم أكن أريد أن أقترب منه... لم أكن بحاجة إلى أن أنبش النار فى أعماقه... تركته يسكب حزنه بصمت... وذهبت إلى الجانب الآخر..

أحاول أن أعبر إلى منطقة أكثر اتساعا.. تتساقط عيون الآخرين حولى... يحاصرنى وجوده.. تحاصرنى حالات القلق داخل العيون المشبعة بالجوع .. والقهر.

ـ لماذا لا نخلع أثوابنا ونصلى بخشوع؟ سأل أحدهم..

تبادل الآخرون النظرات، انسلخ الزمن المشبع بالخوف والفجيعة.. أستجمع بعضا من نبقى.. أقترب منه... يطالع وجهى... يطالعنى حزنه ليتحول منى إلى آلة تهذى... أردد هتاف الآخرين... يرفع عينيه، يصفع عمقى.. أنكفى أعانق وجه الأرض .. تختلط رائحة دمى برائحة التراب توحدنا... لا حاجز بينى وبين التراب... يتسلق نبضى.. يهمس بداخلى بأغنيات الفرح المبتور... دمى يتخثر.. يلقى بكفيه على كتفى، يحدثنى عن الأصدقاء، عن السفر... عن الكتب... يحدثنى عن أمه، وأبيه... عن كل الولادات بداخله... يحدثنى عن تاريخه..وتاريخى... وتاريخ الأرض.. تختلط الأحاديث .. يختلط حزنى بحزنه... يفاجئنى صوته...

ـ لماذا الليالى تطول... ولا صبح يأتى؟

ـ لماذا تموت العصافير..

ـ لماذا الدفء لا يأتى؟!

ـ لماذا أنت فى جسدى ... وعقلى زنزانة تتواصل فيها جراحك وجراح وطنى..؟

تتحول المسافات بينى وبينه إلى مناطق موبوءة بالعشق واليأس.. يتحول الزمن إلى بوابات تخطو داخلها الإضاءات

المؤججة بالنار... والكفن...

يتخطى الأطفال مراحل الفطام... تلد النساء مزيدا من الصغار داخل الغرف المغلقة.. يبعث الحلم من جديد تتأرجح وجوه الرفاق... في الذاكرة... يسقط العراف... يتجمع حوله الفقراء يحملونه إلى قاع المدينة... العاصفة تسكن خلايا الطرقات الحزينة...

يهز الجوع خاصرة البحر... نضاجع الحلم... نضاجع الجوع... نضاجع الشواطئ التى يتواصل فيها المد بالجزر... ويبقى وحده يداعب الضوء الذى لايأتى!!

قالت أمي...النجوم عيون السماء... أتطلع إليها .. أراقب صرخة المتعبين، وصراخ المترفين... هل يرتفعان معا إلى عيون السماء؟!

أبكى .. لا شىء يفرح فى زمن القهر... لا شىء يهز السماء سوى أنات الجياع تتطاير مع ذرات الرمال الظامية فوق صدر البحر... وتواصل رحلتها إلى حيث لاماء.. لا هواء... لا طيور تأتى فى زمن الجوع..

هذا هو الليل من جديد... ينتحب فوق اللحظات البطيئة.. إلى أين يذهب الصبح هنا؟

إلى أين تتباعد الخطى حولى... إلى أين يصادر الفرح... وحبات القمح.. وعيون الرفاق؟!

تتباعد شفتاى .. أأنطق بحبه.. لاوقت للحب الآن... لاوقت للحلم لاوقت للحزن..

يجتمع الرفاق حولى وحوله... تتكسر الكلمات فى جوف الأرض... تتفجر عيون الليل ألوان الطيف.. أبيض.. أسود..أحمر... يأتى الصبح... تنتهى آخر قطرة فى الكأس.. يرشف الليل آخر قطرة منه... أباعد ما بين مسافات الضوء والماء... أصل إليه... تتساقط الحقائق حولى وحوله... أمتزج به... ويواصل الحلم مسيرته تاريخ عشق فى عيون الأطفال... لاراحة حتى يقام للأرض عرس، وتنسج الريح وشاحا تلف به ظلمات الليل... والجوع والرعب..

الحلم ينبعث من الغرف المغلقة..؟

قالت العرافة.....

أسقط بيدى... نظرت إليه... كان وجهه ينزف قهرا... مد يده امتزجنا معا... امتزجنا معا فى انتظار أن يخرج الحلم من الغرف المغلقة!!

(*) نشرت فى جريدة الجزيرة» فى ٧ من جمادى الثانية ١٤٠١ ـ ١١ إبريل ١٩٨١.

الصفعة الأولى بعد الألف(*)

فوزية الجار الله

خائفة .. مبعثرة...خجلة... ورغم ذلك تتدفق خطواتى فرحا.. أفـقـد اتزانى.. تغـيب كلمـاتي ورغم ذلك أهجس بحـذاء «السندريللا» وبالصحوة المدهشة للجميلة النائمة.

انتهيت للتو من تجميل أظافرى.. مكثت برهة أتأملها بعينين شاردتين . لست أدرى ماذا أفعل؟ أين أذهب؟! بأى الأعمال أبدأ؟ فرحة غيرعادية توترنى.. تطوقنى.سعيدة أنا... مبتهجة.

أهوالخوف؟! أم أنها سعادة لا تحتمل... يتسارع نبضى.. ترتعش كفى..أفتح خزانة الثياب أقلبها جميعا... أسقط فى حيرة عظيمة..أيها أرتدى هذا أم ذاك... الأسود أم الأحمر، ليس أروع من الأزرق الهادئ كهذا المساء الجميل... سأتألق أكثر مع شيء من اللمسات الطبيعية الملونة على قسمات وجهى، أخفى بها آثار الشحوب والقلق.

ينسج الضياع خيوطه الصفراء حولى، يتحول إلى قلعة

لامنفذ لها ولا معبر كالأسطوانة المجوفة ممتدة ضيقة... وفى داخلها أكمن أنا .. اليوم فقط سيعلمون أنى لست متمردة وأنى صالحة للحياة وأننى كالنساء.. اليوم فقط سيعلمون أنى مسالمة ومطيعة كقطة صغيرة عمياء!

الحوارات الماضية لازالت تجلجل فى أعماقى جميعها بتناقضاتها وخضوعها وذلها. الصوتان الضاربان فى النفور يصحوان من جديد..

- ليست القضية أن نختلف أو نتفق!

- هل ثمة قضية أخرى تسكننا عدا هذا الجدل المرير؟!

- القضية أن نمارس حياتنا كالآخرين بهدوء دونما ضجيج.. أن نرقد على صراخ الأطفال ونصحو على هدير الزمن... أن ننفذ أولا ثم نفكر أن نخطو خطواتنا ثم لعلنا بعد ذلك نجد وقتا لتحديد الهدف.

- أى منطق هذا... إنك تهذين!

- ليس هذيانا ولكنى أغوص فى صفوف التائهين أوالحائرين ..الأمر سيان لا يهم... رأيتنى مرة أشبه مسمارا وحيدا يبحث عن موضع فى آلة... وحتى لو وجد المسمار موضعه هل يصمد أمام آلة ضخمة مرعبة... لم لا يكون أخطأ موضعه منذ البداية؟

وحين يرفض الالتحام بآلة غريبة إلى من تراه يرفع قضيته؟!
نفضت رأسى بعنف.ماذا أيتها الشقية هل عدت إلى الأسئلة..
إلى أحضان الجلاد؟

أخمديها .. أغمضى عينيك وتحسسى بكفيك... بأصابعك..
ألست امرأة..لماذا إذن تستنهضين الأسى والرماد وقد
رضيت.. أم أنك اعتدت ذر الغبار أمام عينيك؟!

اشتدت الحركة فى المنزل.صوت الأقدام.. ثمة نظرات
متبادلة.. لاشك أنه الفرح! الأمير القادم بحذاء السندريللا..
والرجل الفارس الذى استطاع وحده إيقاظ الجميلة النائمة من
غيبوبة النوم السحيق!

أجل إنه هو!

هكذا فعل الفرح حين يغيب دهرا!!..لكنك قادمة إلى
المجهول.. لم لا تكون خديعة الأوهام والتخيل! الفرح والحزن
أيهما الوهم وأيهما الحقيقة؟!

ستشرع الأبواب لشلالات الضياء حالما ينطبق عقرب الساعة
على الرقم الأبيض الأنيق.. تكون السابعة.أجل السابعة!

أوه سأفارق أشيائى الجميلة... سيقطفنى من ذلك الموطن
الذى تنامت فيه قامتى مذ كنت طفلة... رددت فيه الأناشيد

والمقطوعات البيضاء أتذكر جيدا(الله رب الخلق ... أمدنا بالرزق). (الله رب الخلق..) أتعثر بالعبارة ثم أعيدها.. كان بيتا من الشعر أخلط فيه القاف بالخاء فلا أستطيع نطقها..يالبراءة الأطفال. والذكريات الجميلة لا تعود.. .كان زمنا... واليوم زمن آخر! قلقة .. مرتبكة.. خجلة.. شيء حار كاللهيب يفور من أذنى بعنف.أفقد اتزانى وألملم هواجسى.. لابد أن تخمد الجراح.. فلتذهب كل الأشياء القديمة إلي الجحيم.. الثياب .. الأوراق.. الهموم... كل شيء لابد أن يكون جديدا متألقا نضرا كوجوه الأطفال... لم لا ألست على عتبة الحياة الأخرى؟ ..القلعة الأسطورية.. سنرحل من بئر الظلام البارد .. إلى حيث الأجواء البيضاء..

لماذا تخجلين .. لا تستطيعين البوح... لماذا تهربين بعينيك عن أعينهم خشية قراءتها؟! خجلة أنت من الكلمة ذاتها... من الجو ذاته... من الطريقة ذاتها.. أجل!

لعلها الأصداء القديمة للصوت الذى انغرس فى أعماق طفولتك حين كانوا يزجرونك بأصابعهم لو حشرت أنفك داخل المواضيع التى لا تخصك أولها تلك الكلمة..

عيب.. عيب..! اذهبى خارجا والعبى مع الأطفال! قمة الفرح

..ذروة التغيير .. غدا ستتحدثين بين الجميع عن حكاية لؤلؤية أساسها «رجل» .. دونما خجل أو تردد.

ولكنى خجلة.. أضحك ثم أوارب ابتسامتى حين أصافح وجهى فى المرآة... كم أبدو مضحكة كقروية ساذجة... لطالما انسحقت أحلامك، لطالما انتحرت ابتسامتك ، سلسلة من الانطفاءات ... ما سيحدث الليلة فقط سيدفعك عنها خارجا... سيمحوها من ذاكرتك..إلى الأبد! هرعت إلى المطبخ.. الخادمة كانت هناك بمنظر يستمطر الشفقة بشعرها المتناثر وثوبها المبلل برشقات الماء... المسكينة لم تهدأ طوال اليوم... تنهال عليها الأوامر وهى تنفذ دون اعتراض...

- ضعى وعاء الشراب فى الثلاجة ليحتفظ ببرودته.. حالما تسمعين جرس الباب اسكبيه فى الأقداح وربما تجدين شيئا من البخار يتكاثف على الأسطح الزجاجية أزيليها بإتقان بقطعة النسيج هذه... أريد الأقداح مصقولة... مصقولة لاتنسى أن تصلحى من هندامك!

وتذكرى جيدا .. الأقداح مصقولة!

كل شىء لابد أن يكون مصقولا لامعا.. ذاكرتى أيضا لابد أن تكون مصقولة... بين الفينة والأخرى تعانق نظراتى وجهى

المرسوم قلقا فى المرآة أطمئن على تقاطيع وجهى.. هل ثمة خطأ.. هل ثمة خطأ لم يتناسق.. كم نمسخ أنفسنا لنتساوى مع الدمى..

أتخيل تلك المملكة الصغيرة الدافئة لفتاة كانت حزينة يوما... ذلك المنزل الدافئ الملون كأحلام العصافير.. فتاة تقف قرب النافذة تنتظر.. تؤنسها أنفاس الشموع.. ثمة نباتات خضراء متسلقة ترتمى بدلال حول النافذة.. وتشرق هى بإطلالة أسطورية بديعة... تقضى انتظارا جميلا كهطول الربيع

هى ساعة الصفر.. ساعة الوهج... ساعة اللقاء... لابد أن خطواته الآن غير بعيدة... لعل حذاءه الآن يلامس عتبة الباب ثم يطمئن هو بدوره على خطوطه الخارجية..

ينطبق العقرب القصير على الرقم السابع وشعيرة الدقائق الصغيرة تهرول..والعقرب الطويل ينادى بصمت وخضوع.

بدت لى أرقام الساعة الأخرى كأنما تضحك ساخرة من الرقم السابع.. الساعة السابعة «فرحت بامتيازك بموعد ثم خذلوك ببرود» مرتبكة.. قلقة تتلبسنى موجات من الهذيان.. ليس ثمة رنين لعل الكهرباء مقطوعة.. مددت يدى إلى زر المصباح... ضغطت بسبابتى ..أضاءت الغرفة باللأصابع الغبية... إننا فى المساء... الأضواء جميعها مضاءة تشهد بأنه ليس ثمة خلل فى

دوائرها.

إذن .. لابد أن حادثا ما قد حدث..

الهاتف لابد أن يحمل إلينا صوتا.. يعتذر بعد قليل ،،كانت التاسعة حين أدرت مفتاح غرفتى من الداخل، لم تكن نظراتى تجرؤ على أن تستقبل نظرات أخرى مشفقة أو متسائلة، لم أكن أكاد أطيق نفسى ورأسى الذى تمنيت لحظتها لو كان مقطوعا بعيدا نائيا عن جسدى.. أما من نهاية لهذا الحصار القاتم؟... مللت الوقوف أمام المرآة لأطمئن على اللوحة المتناسقة لم يعد ثمة خلل.. فيم تنظرين؟!

خف ارتباكى وغادرنى خجلى بجناحين خفيين! رحل خوفى بصمت وبقى قلق موجع..

كانت الواحدة حين أسلمت رأسى للأنسجة المترفة العابثة، كعبث هذا الزمن، تنهيدة انتصبت بقسوة فى صدرى أخالها هى أيضا تسخر منى، امتدت أصابعى تزيل شيئا ساخنا تماوج على صفحة خدى، وحين كنت أزيله تحسست أثرا لموضع جديد لصفعة أخرى لازالت حارة...لاهثة..مدوية كهذا الليل القاتم..!

(*) مجموعة « فى البدء كان الرجل» ـ نادى القصة السعودى ـ الرياض ـ ١٩٩١.

أبواب وطرقات حائرة(*)

فهد العتيق

طرقات :

خرج فى صباح هذا اليوم البارد، وضع فى جيبه ضحكته المحايدة، وقاد سيارته بهدوء..

يتأمل ناس الصباح، يتأمل شمسا قوية على عينيه المخدرتين، ليظل أقل انتباها ، وأقل حذرا ، وأقل رغبة فى أن يصل إلى ما يريد، لايعرف ماذا يريد، له مايريد ولهم ما يريدون ، والمسافة بينه وبينهم صباح وضحكة محايدة ونور ساطع لشمس قديمة وعينين ومخدرتين ووله عظيم.

يتأمل عيونا مجاورة مليئة بالنعاس، يحدق فى الفراغات، يتأمل إشارات المرور، وعمال النظافة، وتلاميذ المدارس، يقول سوف أمر على تلك الحديقة الصغيرة المهملة... التى تحولت إلى(كيس قمامة) وسوف أمر بجوارمدرسة البنات، سوف أرى الشيخ الكبير الجالس أمام باب المدرسة بعصاه الطويلة،

وبنصف رقدة يراقب احتشام البنات الداخلات، ثم أمر بعد ذلك في طريقي..على سيارات كثيرة تصطف أمام ذلك المطعم الصغيرالمشهور كل صباح.

خرج في صباح هذا اليوم البارد يضع في جيبه ضحكته المحايدة، خرج من بيته تعبا أو فرحا أو حزينا أو طائرا مثل عصفور، خرج وهو يخبئ في جيوب ثوبه أشياء كثيرة، وخلفه ترك أشياء كثيرة، أبواب الغرف المفتوحة، ورائحة الرتابة والملل،ومقاطع من أغان متقطعة ومبعثرة في الفضاءات الصغيرة المسقوفة، ونوافذ نصف مغلقة..

خرج في صباحات كثيرة... ولم يعد حتى الآن.

أبواب :

الباب الكبير الذي أمامه يفضي إلى باب آخر، والباب الثاني من بعده، سوف يقوده إلى أبواب وممرات كثيرة، وهو يقف هناك بعيدا، يترقب أحدا يدخل الباب الكبير..أو يخرج منه، يقف بعيدا ينتظر الوقت الذي يمضي والناس يركضون هناك يدخلون ويخرجون من أبواب كثيرة أخرى، وبابه الكبير ينتظره ، لكنه يقف بعيدا هناك، يخاف الدخول، يخاف الخروج.

يقف متردداً وخائفاً ومتلصصاً يبحث عن رائحة أقدام تقوده، يقف هناك والناس يدخلون ويخرجون من أبواب كثيرة، يقف بعيدا ويتذكر أشياء كثيرة، ويحلم بأشياء كثيرة!!

كل الأبواب تفضى إلى أبواب أخرى.. ليس هناك باب يأتى من فراغ ويذهب بك إلى فراغ، لكنه يقف متوترا يقرأ ماضيه، يقرأ وقوفه الأول أمام العالم والناس والأصوات والحياة مسحورا ومبهورا، خائفا ومترددا ومتلصصا، يتأمل قدميه الصغيرتين اللتين لا تقويان على الحركة، يحاول تحريكهما فلا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة، يحاول أن يتكلم فلا يقوى على الكلام، يراقب خطوات البشر فى الطرقات بصوت معبأ بالمرارة والبكاء، يراقب حياة تتحرك حوله ويستمع لأصوات متداخلة... تأتى من هوة سحيقة فى داخله فيظل هناك، حذرا وبعيدا ومرتاعا، لا يقوى على الدخول، فى انتظار باب يأتى من الفراغ ويدخله فى الفراغ ثم يفضى به إلى فراغات.

حوار:

يدخل المطعم الصغير المجاور لبيته المتطامن، يجلس فى مكانه المفضل جوار الباب الزجاجى المطل على رصيف الشارع،

لكى يتمكن من رؤية المطر الخفيف الذى ينزل الآن من السماء الملبدة بالغيم... بعد صلاة الفجر مباشرة.

المطر يغطى زجاج باب المطعم.. فيبدو مثل لوحة مائية رائعة..

يضع عامل المطعم (الشاى بالحليب) الذى طلبه أمامه، وهو يتأمل العالم الهادئ من حوله، العالم الذى سوف ينطلق بعد قليل لايدرى إلى أين، يتأمل وفى رأسه أسئلة كثيرة... عن الصباح وعن الأبواب المخاتلة الكثيرة فى هذا العالم، يسأل.. وقد ترك خلفه أشياء كثيرة، أبواب الغرف المفتوحة فى بيته الصغير، ورائحة الرتابة والملل، ومقاطع حزينة من أغان متقطعة ومبعثرة في الفضاءات الصغيرة المسقوفة، ونوافذ نصف مغلقة... وبعد قليل، سوف يعود لشوارع الصباح من جديد، وأبوابها الكثيرة التى تقود أيضا إلى محض فراغ.

(*)وردت فى مجلة «الراوى» ـ السعودية ـ العدد الثانى ـ جمادى الأولى ١٤١٩ = سبتمبر ١٩٩٨.

اللحظات الموحشة(•)

قماشة عبد الله السيف

تنتصب أعمدة الخوف... دائرة الوحشة تحتوينى... فإذا أنا بها...! وسط قطعة من الظلام شبح يتحرك... تومض عيناه بشىء مبهم... سحنته باهتة... عيناه تترامحان فى الجسد المسجى، المحاط بأكداس من الكتب... كتاب مفتوح وآخر مقلوب ، وكتاب تلعب النسيمات المتسللة من النافذة لأوراقه.. أن أدير وجهى.. أن أنهض.. أن تند منى صرخة.. أحاول .. لا أقوى!! احتقان بالوحشة يلجمنى.. نهار عامر بالحقارات تعبه يختزل بلحظة.. بلحظات تورق أشواكا تسد حلقى..

يقترب أن أشخصه أحاول... لا أحفل بشىء... وميض عينيه خاب... لكن ماذا يحدث الآن من هو ماذا يريد من أين جاء؟؟؟

سرى الصمت قليلا وتردد... ثم قهقهت الساعة التى تتوسط ردهة البيت: دقة... دقتان .. ثلاث... «كفى ركضا ياوحدات

الزمن المسعور ..كلنا يعوقه عن مسيرته إلاأنت... تبتلعين أيامنا نهمة وتقهقهين بدقات ساخرة... ليت بوسعى تحطيمك.. إيقافك». قلت قليلا..

مشيت .. كانت الرمضاء مؤذية.. أحاول أن أتذكر... مايفيد لا تحتفظ به الذاكرة الملعونة... هى غالبا ما تسترجع التفاهات المؤلمة والوجوه المستعارة.. تتجمع خيوطها تصبح شبحا فى ظلمة مستحكمة... يقترب .. يبتعد... فى إحدى يديه شىء ما... قاتل الله الخوف بعنف يهز الجوانح... يعجزها عن المواجهة... لحظات الترقب مشحونة ومريرة... وجوم مرير... أكاد أختنق.. لا شىء أرى«ما أقسى أن تموت معافى وفى حالة ضعف! وفى الظلام النهايات الغامضة غالبا ما تعتبر بدايات لعذابات أخر».

لو أصرخ مزقت الصمت لو أومض النور. مزقت الحجب... لو أفعل شيئا من هذا لانتهى كل شىء.. تغيب عنى الحكم التى تسكبها أمى فى أذنى... ويغيب كل شىء إلا لحظتى هذه... الكل نائم دونهم الأبواب موصدة، دونهم الرتاجات أقربهم الخادمة تنام فى الردهة تغرق فى سبات عميق... مهجعها الليل ومنتجعها..!!

النوم... النوم سلطان ذو اقتحام ما إن ينتصف الليل إلا

والكون كله فى هجعة واحدة حتى البهائم والطيور والنباتات إلا الذى لا تأخذه سنة ولا نوم...

يملأ شخص الرعب الأرجاء والزوايا... سأسحب الغطاء على وجهى أو أسبل أجفانى نسيت أن داخلى أعين أخرى حادة... عندما أسبل أجفانى أرى بوضوح أكثر..

يؤرقنى ما أرى... زائر الظلمة هذا من؟ والباب الحديدى كيف اجتازه؟ والبواب كيف أذن له؟

ستائر سود سميكة وها هو ذا يروح ويجىء... وها أنا ذى مسجاة هنا ورغبتى تجمع فى أن أتمدد بين الفرقدين.

كيف ذلك، وأنا أمتطى الكلمة بؤسا لاحد له.

المفردات القلقة لا تحمل الأوصاف كلها الأشياء والألوان، الأضواء والظلام يلفها الديجور... أرنبة أنفى كقطعة جليد... أتململ.. أجهش .. لآلىء بيض صافية تنهمر إلى الداخل...

أيتها الأمطار .. لا تجيئى هكذا مرة واحدة.

«ما أعز الأنس والتمازج بالآخرين وبالأرض.. بالأرض بيد أنها مجمع للخطايا.. ليس إلا... على جذع لشجرة عتيقة مصلوب دمعك حبك إرادتك ورفضك... تحمل... وجها كصفحة الماء لا ثبات له... تجرى فى نهر ضحضاح.. تشهر سيفا غير

قاطع!!

ألا تدعونى أعاقر الكتب فى زمن الاغتراب. ماذا يريد هذا الشاخص .. من .. كائنا... وأنا لا صوت أحدثه خلا صرير القلم أحيانا، أجره فوق الأوراق متعبة... فغائمتى لا تعصر ولا تستمطر ولا تقبض باليد .. ما تجود به لا تسبقه إرهاصات ولا بشائر ولا تقتفيه صفارات إنذار لكنه ألق الحزن..

داخلى براكين بها صدع بالطول وصدع بالعرض... متقاطعات وسيكون الطوفان لكنه ليس كطوفان نوح، عيناى تخترقان الجدران لتجوبا بيادر تآكل اخضرارها... لترتصفا طرقات ملأها المتعبون والجائعون.

تعودان لتستقرا فى الغرفة... تتابعانه وهو يتمطى .. أية وحشة!!

أذكر أنى كنت أقرأ فى كتب عدة فى آن واحد... وأضع خطوطا تحت بعض الأسطر وبعد أن كللت أذكر أنى شرعت أفكر فى عام الطفل العالمى.. والعام الدولى للمعوقين.. ثم لم أعد أذكر شيئا... الآن أشعر بسخونة شديدة تنبعث من جسدى ومن رأسى المثقل.

تموت الدهشة.. أتقلص.. اللحظات كمناشير!

ترى لم لايقوم أبطال الكتب التى حولى وشخوصها وفوارسها لإنقاذ فتاة تدمن قراءتهم وتتقمص ملامح بعض شخصيات مؤلفيها وتمارس بهم جنون العاقلين؟

أم تراهم كلهم مهزومين..؟

كان التساؤل معلقا بينما طرق مسمعى صوت أصص الريحان من النافذة يقع، يتهشم بفعل الريح يعقبه سقوط ثمرة غير يانعة من شجرة فى الحديقة.. وكنت قلقة... أشتاق الصدق الذى فى حديث الشيوخ والأطفال لكن أين هذا والتوتر قائم؟

الجدران الأربعة الصماء تجيب: الموؤودة لا تموت.. تتنفس التراب فلا تموت لكن ماذا سأقول والطفل يحمل العصا التى يضرب بها... والمرأة تحمل فى أحشائها الرجل الذى يمتهنها..!

بقى ما وقر فى القلب..كوشم تجذر فى ظاهر الكف والمعصم..بوضوح تترى صور الحكاية الدمعة أذكر مصرع النسر! تدحرجه من القمة إلى السفح وترنحه ترنح الذبيح... أذكر تحجيم حدث ـ فوق التحمل ـ لعله تفريغ فؤاد إسفنجى شأنه الامتصاص... لكنها لحظات انغماس حتى هامة الرأس فيما حدث ويحدث..

الشبح يصبح أشباحا .. تتواثب ..تملأ الغرفة... الأكف من

خلال الظلمة أراها تتشابك تصبح يدا واحدة بأصابع كثيرة... تنقض .. وقبل أن تطبق على عنقى تنطلق صرخة حادة مدوية... من حلقى.. أنهض شاحبة .. شامخة.. عرقى يتصبب.. كان رؤيا! كان حلما! فمن لى بتأويله ؟من...؟

(*) من مجموعة «محادثة برية شمال شرق الوطن» ـ نادى القصة/السعودى ـ الرياض ـ ١٤١٢ ـ ١٩٩٢.

الدخول فى تفاصيل حلم لا ينتهى(*)

محمد على قدس

أفيق بليل.. وهل لي صباح..؟!

الليل والصبح سواء... خوفى وسكينتى.. الضحك والبكاء سواء!

أفتح عينى للنور.. أحتوى أشعة الشمس الصفراء ببسمة باهتة.. بمسحة حزن تغلف وجهى... ذلك الوجه الذى بدا بالحزن والاكتئاب عربيا! بعينين مكدودتين عرفت نور الصباح... بانتفاضة الخوف الذى يشتعل فى داخلى.؟.يلتهم مشاعرى..

.. ارتفع كفى كى ألامس شعاع الشمس، ألملم شعرى.. أغرس فيه أصابعى ، مازال التوتر يسكن عروقى مازلت بخوفى أرتعش ..ومازال يشاطرنى الدفء فى فراشى.. .يسامرنى فى ليلى.. .فى قلبى يسكن إحساس غريب ..وبين أصابعى تشتعل أنفاس ملتهبة أتوهمها، وأنسى أنها أنفاسى المحمومة!!

أبحث عن مطر يغسلني... ينتشلني من وحدتي وحزني..

أنشب أظافري في شعري... في وجهي... وقد بدت في تفاصيله بقايا ابتسامة باهتة... احتفظت بها لاستقبال صباح جديد.

الدخول :

دخلت مدينتك... تجولت في شوارعها ..دلفت في أزقتها وحاراتها، تعبت.. تغربت... تشردت على أرصفتها ... بحثت في أوديتك عن ماء أو هواء؟! وجدت رياحا خماسينية... وترابا يملأ فمي وعيني! لا ظل.. لا شجر .. لا مطر. انتظرت السحاب ..انتظرت الطل والبلل... كي يغسلني وغسل مدينتك المطموسة بالتراب. وقفت في وجه الريح وحدي كشجرة جرداء سامقة. أبحث عن ليل ودفء أتلفت يمنيا ويسارا أعود ببصري وأحاسيسي للتراب من جديد.

ليس في أرض مدينتك القاحلة سوى أوراق صفراء وأغصان جافة!

دخلت مدينتك.. وكأني أدخل مدينة الأشباح.

حريق في الأرض..وغربان... ودخان في السماء.

بحثت عن صوتك..

- كيف أصدقك.. كيف أثق بحروفك ومشاعرك... فا... (أنا)..

- أنت على حق... لكنى صادق هذه المرة لن يطول غيابى أنت لى وأنا لك صدقينى.

- بودى لو أصدقك، لكنى أخشى أن يكون غيابك أبديا..

- بل سيكون لقائى بك غدا قريبا..

- أنا خائفة..

- لاداعى للخوف... ثيقى بى.. عام فقط..أعود بعده ليضمنا بيت واحد.

الحلم :

أفيق من هواجسى.. أفيق من غفلتى .. من حلم طويل لا ينتهى!!

أشعر بالعطش! الجفاف يحيطنى.. يحتوينى .. أنشب أظافرى فى جسدى... فى شعرى! مللت الانتظار مللت الاحتراق كشمعة فى صمت تذوب، كسرت مرآتى، مزقت صورى... كرهت الغد الذى لايأتى، صار العام الذى انتظرت أعواما طويلة.

فتحت عينى لدفء الشمس.. لصفرة الخوف، وفى جسدى

ارتعاشة الظمأ، وفي داخلي يسكن حلم غامض.. تعبت في البحث عن حقيقته، وحقيقة الشعرات البيضاء التي غزت رأسي!! أبحث عن شمس تحيي مواتي..موات الغد على أرضك القاحلة اليباب... فقد ترويها دموعي..قد يأتي غيث يغسلها ويغسلني..

أفيق من نومي... وفي فمي طعم سكرة تذوب... وفي عيني جميل يذوي

بحثت عنك... في أعماق مدينتك الساكنة! بحثت عنك في شعاع الشمس القادم إلى كل صباح! بحثت عن هويتي.. عن حقيقة الحلم الغامض الذي يسكنني ، ولكني كنت كحمامة تبحث عن أمن وسلام! في تفاصيل وجهي يذوب حزن سنوات عجاف... حزن انتكاسة عربية.

انتظرت مد بحرك... انتظرت عودتك! حسبت أن الزمن قد توقف عند الساعة التي ابتعدت فيها عني، اللحظة التي غادرت فيها مدينتك...

(تك..تك... تك..) هيهات... هيهات لهذه العقارب أن تتوقف ..أن تتكسر فلا تقوى على الدوران... أجوس في يباب.. أغرق في اكتئاب أصارع به العمر والزمن.

الليل:

الليل عاد بلحنه الصاخب..!

لا أدرى كيف مضى النهار، متى غابت الشمس...؟ متى تشرق؟؟

أعود لفراشى وحيدة... لخوفى، لهواجسى.. لنبضات قلبى الرتيبة..

(تك.. تك.. تك..) تدق الواحدة... والثانية.. والثالثة.. ويدق قلبى للمرة السبعين بعد الألف!!

جئتك ياليلى، وفى ثناياى عطر قديم، وعلى جسدى ثوب عرس بهت لونه! جئتك ياخوفى سافرة! جئت أختال بزينتى..وفى صدرى حلم قديم... كحلم عروس مهجورة... شاب شعرها .. وبلى ثوب زفافها.

لم أعد أهتم بقدومك.. ولا أنتظر أن يكون القادم أنت بالذات، فلتكن زينتى لأى قادم غيرك. فلا أنت غد يرجى... ولا أمس أقوى على تذكر أحلامه!أفتح عينى للشمس.. أفتحهما لأشعة شعثاء! أرفع، كفى أصارع ذلك الشعاع الذى يخترق عينى الذابلتين... أغرس أظافرى فى شعرى... يسقط على كتفى.. يغزوه موج أبيض.. أغوص فى دفء فراشى..تشتعل فى صدرى

أنفـاس محـمومة... توهمت مطرا يغسلني ..بلل يروى ظمـئى..
يمحـو الجـفـاف فى داخلي: ـ ..كنت أغـرق فـى دمـوعى .. وفى
أظافرى المدببة دم متخثر.

(*)وردت فى مجموعة «ما جاء فى خبر سالم» ـ دار انتصار ـ ١٩٩٥.

الانحدار (*)

محمد المنصور الشقحاء

شعرت مؤخرا بأنني ممنوع من الكتابة، اتضح ذلك من خلال الدعوات المقدمة لى للمساهمة فى بعض المناسبات الاجتماعية التى تقوم بعض الصحف بعمل لقاءات أو ندوات حولها من باب كسب الرضى والالتحام بالجهات المعنية لمواكبة التطور الإنمائى.

أخذت أفكر بقسوة فى الانتصاب العدوانى الذى مارسه شىء فى داخلى دون مراعاة للظرف الذى أمر به والإرهاق الفكرى الذى أعانيه بسبب عوامل عدة منها العزلة والانحدار نحو الهاوية وحيدا متخليا عن كل المواقع التى استطعت مع الزمن ربحها. لم أجد بعد هذه المرحلة أفضل من كلمة الربح لأن هذه الكلمة هى الرسم الحقيقى لكل المكتسبات التى استطعت أن أوفرها وحتى تكون المعادلة صحيحة لابد من الخسارة وها أنا ذا أزدرد الجانب المعاكس للربح وكل ما أخشاه أن أرباحى

تنتهى وبالتالى أفقد رأس المال وأشهر إفلاسى كماهو وارد فى المعادلات المالية..

انتظرت كثيرا هذه اللحظة التى أقف فيها مستقبلا الضيوف، الأضواء تملأ الشارع كما أنها تضىء داخلى بقوة، إنه فرح ابنتى الأولى الربح الأول الحقيقى فى حياتى ورغم الأضواء أشعر بأننى بحاجة إلى البكاء، وأخذت أبحث عن مكان منفرد حتى أحقق رغبتى فى البكاء كما هى العادة، غير أن جميع الزوايا والغرف تعج بالزوار والمشاركين فى الفرح.

إنها تقف وحيدة... دب هاجس آخر فى داخلى وعدت إلى الأضواء والحركة وقد احتسبت رغبة البكاء في داخلى، نقطة راكنة أشعر بحرقتها ومساحتها، العيون تتأملنى، تتابع خطواتى تبحث عن الأشياء المرتبكة والناقصة فى صوتى وفى تأمين احتياج الحفل، وتحقيق رغبة الحضور، وإيجاد فجوة للريح الطيبة لتعبر إلى كواليس أعماقى المنهارة المتوقفة عن الأشرئباب إنها النهاية الحتمية..

ـ حامد.حامد..

الصوت قريب أتذكره، إنما من يكون وقد تجاوزت الخامسة والخمسين من العمر، الشيب يملأ رأسى ودمعة مازالت تستقر

في مقلتي..

ـ حامد ..حامد..

الصوت يقترب أكثر... إنه يرفض كل الهواجس ويحقق الانتماء وطيب رائحة الوطن... الشارع المترب.. بيوت من الطين وشآبيب المطر حتى الأسقف الواطئة وقد أخذت تنز بالماء معبرة عن فرحها بالوسمي..

ـ حامد..

ـ نعم..

ـ ألف مبروك زواج سماح..

ـ سماح... سماح..

الصوت يقترب يأخذني بقسوة إلى الاستقرار القديم الذي افتقدته في حركة مستهجنة ذات مساء كنت أركض حتى كبوت على وجهي، وقد تقطعت أنفاسي لأصحو على صراخ سماح... التي انتقلت معي إلى العالم الحر في هروب متواصل لتصبح وقد غدت عروسة/ أفنان/ امرأة مكتملة ناجحة في عملها الذي انخرطت فيه مؤخرا/ أخذ الصوت المقترب يزداد وضوحا وقوة... بينما المطر ينهمر وأخذ السقف ينز الماء شعرت بدورة الزمن السريعة فأخذني الدوار، وانهرت في مكاني، والزغاريد

ترتفع فى الداخل، وظل طويل يغـادر المكان يحـجب الضـوء الوالج فى كل مكان.

(٢)

طريق المنحدر طويل أطول من كل المعادلات المكتسبة، يخيم الهدوء عليه وكل الأشياء التى أمر بها ثابته/ شخوص آخرون توقف بهم المسار فى أماكن متفاوتة / حتى الآن المؤشرات أفضل.. إنه الوطن. أخذت أرسم الكلمة بأشكال متعددة وأقلام متفرقة، ثم أخذت أرسم حروف الكلمة كما يتم نطقها واو... طاء... نون واو.. طاء..نون... ومع كل حرف أجتاز مسافة أكبر ويتكون فى داخلى طاقة أكبر..

- حامد.. أين معاملة الأستاذ فاضل..

- هاهى ذى بين يدى... أحاول إنجازها..

- لقد تأخرت كثيرا..

- الأمر ليس بيدى.. إنماهى ملاحظات ديوان المراقبة العامة..

- هل هناك ملاحظات..

- أبدا... إنما هى اجتـهـادات أحـد الموظفين.. كـان مـدير الادارة التى أنتمى إليها يقف فوق رأسى مستفسرا يطالبنى

بمضاعفة الجهد لإنهاء معاملة أحد الأصدقاء . التى أحيلت إلى دراستها بعد أن شعر الموظف المختص بعدم قدرته على فهم ما جاء فى الملاحظات.

- حامد.. الأستاذ حامد

- أهلا.. أهلا..

- فاضل عبد الدايم..

قفزت من مقعدى كمن لدغته أفعى... ترددت فى مد يدى نحو اليد الممدودة.. أخذ العرق يتصبب من جبينى وكل أطراف جسمى... شعرت بأن هناك قوة تتعامل فى داخلى، فأخذت أتفرس فى الوجه المنتصب أمامى وأخيرا مد يده مرحبا ثم أطرقت وأخذت أصابعى تقلب محتويات الملفات المنتصبة على المكتب. ومن داخل كهف مهجور قلت بصوت متهدج..

- تفضل .. اجلس.

جلس الرجل بهدوء وعاد الهدوء إلى... عدت لمقعدى وأخرجت ملفا تزدحم الأوراق بداخله من بين الملفات المتراكمة على المكتب..

- لو سمحت دفتر النفوس

مد الرجل الدفتر المطلوب وأخذت أقلبه أطبق الأرقام على

المدون فى بيان الخدمة الوظيفية وبقية الأوراق التى تحمل المعلومات المدونة فى الدفتر... سماح.. زوجة .. سماح .. ابنة فى خانة المرافقين تأملت الأسماء ثم تأملت الرجل.. وأخذت أقلب الأوراق..

ـ هل الدفتر .جديد..

ـ أجل.. إنما بين الأوراق صورة من الدفتر القديم.

أخذت أقلب الأوراق حتى عثرت على الصورة الخاصة بالدفتر القديم... الرقم كما هو... أسماء المرافقين صالحة... زوجة... صالح ابن .. سماح ابنة... نورة ابنة.. تأملت الرجل قليلا ثم نهضت من مقعدى... وأنا أمد يدى قائلا..

ـ لقد انتهت الملاحظات وسوف أصرف استحقاقك ..بعد يومين..

نهض الرجل من مكانه وغادر الغرفة..وعدت للأوراق..أخذت أتأمل الأسماء المدونة بهدوء ثم طبقت الملف وغادرت المكتب.

تزامن خروجى من المكتب مع انطلاق عربة فاضل الفاخرة، فأخذت أتأملها وأنا أقف أمام عربتى فى فناء الدائرة..

ـ تفضل..أوصلك..

ارتعشت للصوت، تذكرت أن على أن أعود... أخذت أتأمل

العربة الفارهة... كانت تقبع فى المقعد المجاور... شعرت بشىء يدعونى إلى تلبية الدعوة... هززت رأسى معتذرا.. وأخذت أتراجع إلى الوراء خطوة ..خطوتين... ثم غيرت وجهتى وعدت عدوا إلى مكتبى..

(٣)

كان الزمن قويا... قويا... شعرت فيه بالإرهاب يطوقنى من كل ناحية حتى عندما قررت الزواج جاء الاختيار وجاء كل شىء حتميا/ هربت إلى خارج الحدود /لعلى أجد فى العالم الفسيح الهدوء الذى أبحث عنه وتوقف الزمن.. لم يعد ذلك الرفيق الحتمى الذى يسير معى كمرافق وعدت وقد غطى الشعر الأبيض رأسى تاجا من الوقار....إنهم يدفعون الانسان إلى الموت.... أخذت أردد حتى الأصدقاء.. كلهم عفن... كلهم عفن...

- ماذا بك ياأبى..
- أبدا إنها ذكريات النزوح.. والوطن.
- سوف أعمل... وسوف يكون لنا بيت
- أتمنى ذلك
- سوف أعيد كل شىء... سنبعثر معا المخزون ونلطخ به

جدران بيتنا..

- أجل..أجل..

- وسوف نواصل ممارسة صراع الكتابة.

- وماذا أكتب..؟

حطت الطائرة فى المطار، لم يكن هناك أحد رغم اكتظاظ صالة السفر بالمستقبلين... وأخذت أتأمل المكان حيث شاهدت العيون تحدث... ارتبكت خطاى... اجتزت الجميع ..أخذت أستنشق الهواء الجاف... أخرجت من جيبى أوراقا صغيرة..

اختلطت الصور.. أخذت تتراكم الرؤى.. الهاجس... أكبر..أكبر... واعتدت الهدوء القاتل... كانت مشاركاتى الجديدة تسحل على أبواب الصحف.. رغم استشهاد بعض الكتاب بآرائى وأفكارى... وهاهم أولاء جميعا فى حفل زفاف - أفنان - سوف أبقى وحيدا فى الدار، ولكن الصوت القادم من الماضى.

أخذت أتذكر الخطى الوئيدة. توقفت وقد أخذ الجميع فى الانسحاب .. انهرت على أحد مقاعد صالة الاستقبال... وأخذت أبكى بحرقة...

(*) مجموعة «الانحدار» - نادى الطائف الأدبى» - ١٤١٣ = ١٩٩٣.

امرأة للبيع(*)

محمود المشهدى

.. رب يوم تصلك فيه دعوة منمقة لحضور حفل زفاف قريبك، أو صديقك ، أو جارك! ..أو رب يوم تكون فيه مارا ، فيستهويك منظر الأضواء وهى تتلألأ على واجهة أحد المنازل بينما تتهادى إلى أذنيك أصوات الدفوف والزغاريد، وهى تنبعث من الداخل تزف إحدى العرائس إلى عريسها..

إن أول ماأطلبه منك هو أن تنتظر قليلا... لا تستعجل ... لا تشمر عن ذراعيك وتذهب حالا لتشارك العريس فيما دعاك من أجله... كما لا تجعل منظر الأضواء ، وأصوات الدفوف، ورنات الزغاريد، تستهويك فتقف متسمرا للحظات فى مكانك، وأنت تضع على شفتيك ابتسامة حلوة كبيرة وكأنك تقول للعروسين، مبروك... متمنيا لهما الرفاء والبنين..!

كلا..! بل انتظر قليلا، تريث.. فربما تكون أنت نفسك

مشتركا - من حيث لاتدرى - فى ارتكاب جريمة بشعة لايقرها قلبك أوعقلك... تماما مثلما حدث لى فى ذلك اليوم، عندما اشتركت أنت وغيرك من الناس فى حفل زفافى المشئوم.. كان كل واحد منكم يسابق الآخر فى مد يد العون ولمساعدة مدفوعا بأداء واجب الصداقة، أو الجوار، أو القربى نحو ذلك الشخص الذى دعاكم لحضور حفل زفافه... وخدعتكم الأضواء، والدفوف، والزغاريد فأسلمتم لأخيلتكم العنان وأنتم تتصورون ماذاتعنى تلك الليلة.. ليلة الدخلة.. بالنسبة للعريسين !! بينما لم تكن تلك الليلة بالنسبة لى - أنا العروس - إلا ليلة تنفيذ حكم الإعدام على... على قلبى و... شبابى..!

ولم تكن تلك الأضواء ، والدفوف، والزغاريد غير الطقوس الأخيرة التى راحت تشيعنى إلى ذلك الطريق الطويل... طريق الدموع، طريق النهاية، طريق الضياع!!

..ربما تكون معذورا، أنت وبقية الناس، عندما ساعدتم فى إقامة حفل زفافى.. فهذا طبعكم.. هذه هى خصالكم الإنسانية، أن تشاركوا الآخرين أفراحهم، وتشاطروهم أحزانهم... ولذلك فأنتم تسارعون دائما فى مد يد العون فى الأفراح، وتتسابقون للمشى خلف (الجنائز) فى الأحزان .. ولكن الشىء غير

الإنسانى يكون عندما تعكسون أنتم أنفسكم الأوضاع فتقيمون الأفراح للموتى، وتمشون فى (جنائز) الأحياء..!!

مثلما فعلتم معى عندما مشيتم فى (جنازتى) مستخدمين الأضواء. والزغاريد والدفوف لتزفونى إلى مثواى الأخير... إلى حتفى.. إلى نهايتى.. إلى قبرى الموحش المظلم.. بينما أنا لم أمت بعد... ولكن الشيء الوحيد الذى كان قد مات فى تلك الليلة... إنما هو قلبى...!!

ولأبدأ لكم القصة من أولها... قصة حكمكم بالموت على قلبى..!! فأنا ولدت كما ولدتم أنتم، وكما يولد كل الناس... والمفروض أن يكون مصيرى - وهو الموت - هو مصيركم... فالبداية واحدة، والنهاية واحدة.. هكذا قيل لنا. وهذا هو ما يحدث فعلا... وما سيحدث فى المستقبل... أيضا . فليس فى استطاعة أى إنسان أن يشذ عن هذه القاعدة.. قاعدة الحياة ثم الموت...على الرغم من الاختلاف الكبير بين كل واحد منا، والآخر، فى كيفية ونوع الحياة التى يعيشها..فمنا من يعيش حياته سعيدا.. ومنا من يتمنى لو أنه لم يولد أبدا!!... ومنا من يولد (ذكرا) نفتح من أجله الأبواب، ومنا من يولد (أنثى) لتقفل فى وجهها كل الأبواب!!... ومنا من يولد فى عائلة طيبة تسعد

لجيئه... ومنا من يولد فى عائلة جاهلة فقيرة فيشقى بها، وتشقى به..!!

وأنا لا أدرى أمن سوء حظى، أم من سوء حظ والدى ، أم من سوء حظينا معا أننى ولدت أنثى شقية، لأبوين شقيين جاهلين فقيرين!... ولقد علمت بعدئذ أن سوء الطالع هذا لازمنى ولازم أبوى منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها الحياة تسرى فى جسدى الضئيل، وأنا لم أزل بعد جنينا احتمى فى أحشاء أمى... كانت صحة أمى هزيلة آنذاك، وازداد هزالها عندما حملت بى، فرقدت طريحة الفراش تعانى أمراضا وآلاما كثيرة.. كان من بينها فقر أبى، وعدم قدرته على علاجها..!

وفى اللحظة التى كنت أنا أصارع فيها للخروج إلى هذه الدنيا... كانت أمى تصارع ألمين، ألم الوضع و... ألم الموت أيضا!... حتى أبى كان هو الآخر يصارع فى لنتزاع ذلك السوار الذهبى الوحيد الذى كان يزين معصم أمى...ليبيعه فيحضر بثمنه طبيبا يعالجها من آلامها الشديدة... ولكن أمى لم تعد فى حاجة إلى طبيب يخفف آلامها..!

لقد ماتت فى اللحظة نفسها التى رأت فيها عيناى النور... فدفع أبى ثمن سوارها الذهبى أجرة لدفنها..!!

وكبرت - وأنا فى نظر أبى - نذير شؤم وكأننى المسئولة عن موت أمى، أوعن كل ما كان يصيبه من مرض وشدائد، أو ضيق فى الرزق...! حتى زوجته ... غليظة القلب... التى تزوجها بعد وفاة أمى بسنة، كانت هى الأخرى مثله أيضا لا تكف أبدا عن تعذيبى، وتأنيبى لأنها كانت عاقرا لم تستطع أن تنجب طفلا واحدا فى كل تلك السنين الطوال التى عاشتها مع أبى، وكأن وجودى أمامها يذكرها دائما بخيبة الأمل... وبنقصها الكبير الذى جعل منها عاقرا لا تتمتع بنعمة الأمومة..!!

كان أبى فقيرا معدما لا يملك من حطام الدنيا أى شىء غير صحته.. وصوته الجهورى. فقد كان يعمل (دلالا) يقوم بـ (التحريج) على بضاعة هو لا يملكها!... وعندما يجد زبونا مناسبا لها يعمل أبى جهده لكى تتم الصفقة، فيأخذ عندئذ عمولته... وعلى قدر تلك العمولة يتوقف نوع الغذاء الذي نقتات به فى ذلك اليوم. فإذا كانت الصفقة كبيرة ومربحة - وهذا نادرا ما كان يحدث - فإننا ننعم آنذاك بوجبة لحم دسمة تشبعنا جميعا... أما إذا كانت الصفقة بسيطة، كالعادة، فلا حيلة لنا عندئذ من أكلة (المعدوس).. والتى أصبحت القاسم المشترك الأعظم بالنسبة لطعامنا اليومى!!

أما زوجة أبى.. فقد كانت هى الأخرى تعمل أيضا فى عمل مشابه لعمل أبى، وإن كان يختلف عنه فى نوع البضاعة المراد اقتناص زبون لها... كانت تعمل (خاطبة)، تطوف الشوارع والأحياء والبيوت، تفتش عن الراغبين فى الزواج... والذين تنقصهم معرفة الأسر والعائلات، فتقوم هى بهذه المهمة مرشدة كل واحد منهم إلى الفتاة التى تنطبق عليها مواصفاته، وشروطه... فتتم الصفقة. وتأخذ زوجة أبى عندئذ عمولتها!... ولم يكن يهمها أن تنطبق تلك المواصفات والاشتراطات فعلا أو لا تنطبق... بقدر ما كان يهمها إتمام الصفقة، وأخذ العمولة... خصوصا وأن كلا الطرفين المتزوجين لن يعلما حقيقة الأمر إلا فى (ليلة الدخلة) عندما يتقابلان للمرة الأولى!... أو عندما يكون الفأس قد أصبح فى الرأس مثلما يقول المثل الشائع... وعندئذ لا يملك الطرف المغبون فى هذا التعاقد المشئوم سوى أن يذرف الكثير من الدمع شاكيا، باكيا، نادبا حظه، رافعا يديه إلى السماء، داعيا الله أن يصب جام غضبه على زوجة أبى..!!

وعندما كبرت... وراحت معالم الأنوثة تزدهر على جسدى، وأخذ دفء الشباب يتدفق فى قلبى وكيانى، وبدأت رؤى الحب تتسلل بلا خجل إلى أحلامى.. أيقنت حينئذ أن ساعة الخلاص

من حياتى الشقية مع أبى وزوجته قد أزفت .. وأن باب منزلنا سيسعد قريبا بطرقات فارس الأحلام الذى سيأتى لينتشلنى، ليختطفنى، ليتزوجنى، ليطير بى... إلى أرض بعيدة ننعم فيها بالحب، وبالدفء، وبالشباب... إلى جنة حالمة.. أسعد فيها بكل ما كانت طفولتى الشقية محرومة منه... فأسعد بالابتسامة العذبة التى لم تعرف طريقها إلى شفتى منذ أن رأت عيناى النور... وبالحنان الذى حرمت منه بسبب موت أمى، وقسوة أبى، وتسلط زوجته ... وبالعاطفة الصادقة التى لم أرها قط تشع من أعين الجيرة المحيطين بى..!!

.. أشياء كثيرة ـ كثيرة جدا ـ كنت أقضى نهارى كله وليلى، أفكر فيها وأتخيلها ، وأمنى نفسى بها... ولم أكن أعلم أن هناك إنسانا آخر كان يراقب معى ذلك التطور الكبير الذى بدأ يزدهر على كل جسدى، وتلك الفتنة الحلوة التى أخذت تشكل قامتى، وتكسو وجهى، ويظهر بريقها فى عينى.. كان يراقبها بعين نهمة جائعه لا تعرف معنى للرحمة أو للشفقة، وبقلب أسود قاس لا يقيم وزنا للشعور أو العاطفة.. كان ذلك الإنسان هو زوجة أبى، والتى أصبح جمالى، وأنوثتى، وشبابى فى نظرها فرصة عظيمة..لكى تجعل منه صفقة تجارية مربحة لها كعادتها دائما..

وفوجئت ذات يوم بحركة غير عادية فى منزلنا.. وبتغير كبير فى معاملة زوجة أبى لى، وتلبيتها - على مضض، لرغباتى!... ورأيت لأول مرة فى حياتى شفتيها تنفرجان عن ابتسامة صفراء فى لون الموت وكأنها تريد أن تخدعنى بها، تخدع قلبى، وطفولتى، وسذاجتى... وأيقنت أن خلف هذه الابتسامة الماكرة، وذلك التغير الطارئ فى معاملتها لى يستتر الشر فى أبشع صوره!... نفس الشر الذى يضمره الجلاد لضحيته صبيحة تنفيذ الحكم، عندما يذهب إليه يسأله عن آخر رغبة له فى هذه الحياة... بينما يكون بصره منتصبا فى تلك اللحظة على رقبة الضحية لمعرفة أنسب الزوايا لقطعها.. وعندما يحين وقت التنفيذ..!

ولما كانت العادة تقضى دائما بأن يخفى الجلاد عن المحكوم عليه بالإعدام... الموعد المقرر لتنفيذ الحكم فى رقبته حتى اللحظات الأخيرة، وذلك رأفة به، وبأعصابه، وحرصا على أن يصطبغ سلوكه بالصبغة الإنسانية! ..إلا أن زوجة أبى لم تتقيد بهذا.. فنعت إلى قلبى حكمها عليه بالإعدام.. محددة له الأسبوع القادم موعدا لتنفيذ الحكم عندما سأزف فيه إلى الرجل الذى استطاع أن يدفع لها مبلغا أكبر مما دفعه غيره مقابل التمتع

بى.. وافتراس أنوثتى، وشبابى..!

وأنا .. لم يكن يهمنى كثيرا أن يحدث هذا لو أن الرجل الذى سأزف إليه كان شابا فى مثل سنى.... ويسرى فى قلبه ذلك العنفوان.. ذلك الدفء.. ذلك الأمل الذى يملأ قلبى، ويتدفق فى صدرى... فتكون الفرصة مواتية لنا لكى يؤلف الحب بين قلبينا، وترفرف السعادة على حياتنا!... أما أن يكون ذلك الرجل الذى سأزف إليه... كهلا فى السابعة والخمسين من عمره.. متزوجا، وله أولاد يبلغ عمر أصغرهم ضعف عمرى الذى لم يجاوز السادسة عشرة.. فهذا شىء لا يقبله العقل... لأن مثل هذا الرجل لايريد من زواجه بى، أن يؤسس بيتا يستقر فيه قلبه.. أو يوجد له أسرة تقر بها عينه... كلا... فكل هذا متوفر لديه الآن.. ولديه أيضا المال الكثير الذى يستطيع أن يغرى بواسطته ضعاف النفوس، مثل أبى وزوجته ، ليبيعانى إليه، ليفترس أنوثتى وشبابى.. غير عابئ بنداء الضمير ، وتوسلات العاطفة.. أو الوجدان!ولم أستطع أن أفعل شيئا..!

عبثا ضاعت كل توسلاتى، وثورتى، وصراخى..!!

.. عبثا ما فعلته ليلة الزفاف عندما جثوت على قدمى ذلك الرجل الذى اشترانى بنقوده.. ورحت أبللهما بدموعى، وأنا أتوسل إليه، أن يرأف بى، أن يرأف بقلبى وشبابى.. أن يطلقنى،

فأنا لا أصلح له..!!

ولكنه لم يكن يسمعني... لم يكن يهتم لتوسلات قلبى المسكين..لم يكن يحس بدموعى البريئة التى راحت تبلل كل شبر من أرض غرفة الزفاف.. كلا.. بل كان يصغى لصوت ذلك المارد الأسود البشع الذي كان يصرخ فى أعماقه، يدعوه لافتراسى.. لافتراس أنوثتى وشبابى..!!

وبين هياكل النور... ورنات الدفوف.. وأصوات الزغاريد .. رحتم تهيلون آخر كوم من التراب على.. قلبى!..

فأنا الآن بلا قلب..! بلا إحساس!... بلاشعور..!! ،، الشيء الوحيد الذى يربطنى بكم... هو أننى كل مساء.. عندما تذهبون أنتم إلى فراشكم.و .. عندما أساق أنا إلى فراشى... تخرج من أعماقى زفرة واحدة... أشكو بها إلى الله، كل من ساعد فى إهالة التراب على قلبى..!!

زفرة واحدة لايسمعها إنسان.. حتى ولا ذلك الهيكل العظمى الذى يرقد بجوارى، والذى تلسعنى أنفاسه..

كلا.. بل يسمعها الله!!!

(*) وردت ضمن مجموعة بعنوان «الحب... لايكفى» - دار تهامة - جدة - الثالثة - ١٤١٤ - ١٩٩٣.

٢٤- أعيدوا إلى كفنى(*)

مريم الغامدى

أقلب وجه النهار .. أفتش فى غيمه المثقل بالوجوم عن وجهك... أعبث فى صدر السكون... أبحث عن زمن كنا نجنح فيه فراشتى وجد... لؤلؤلتين فى محارة عشق بدائية..

ها أنا ذا أركض فى زمنى وحدى... أسقط فى إعياء.. أبحث عنك فى كل الوجوه.. فى كل القسمات.. أبحث عن ملامحك... عن بسمتك.. ها أنا أفترش قطعة كئيبة فى حديقة باردة...انتظر إطلالة ربيعك الأخضر.. أتوق إلى مواسم الحصاد فى انتظارك..

أحمل أوراقى وأقلامى الملونة...أحاول رسم صورة لك... أحاول تذكر ابتسامتك كأمسية قمرية... أحاول أرسم وجها بدرى التكوين.. وعيني كم كانتا تخبئان أغنيات الفراشات شوقا إليك.

أنقش حكايتنا على أوراق الورد... أعزف قصائدنا على أنات ناى مبحوح... أسافر على أجنحة الحلم إلى كوخ أقمناه على ربى الشفق... يصبغ أفراحنا بلون الأفق الفيروزى..أزهرت أحلامنا تعريشة ياسمين حلوة... عبق أزاهير الحناء كان يعطر حبنا..

ياه... كم مضى على حبنا الآن؟ عام.. عامان... ربما مائة عام؟! أحاول تذكر كفيك الحانتين..كم جاستا شعرى..كم مسحتا الدمع من على خدودى.. اتذكر ذلك الخاتم الفضى فى بنصرك ذا الفص المتماوج الألوان... وتلك العبارة المكتوبة فيه .. لا .. لن أقولها.. فقد وشمت صدرى..

ليلة ونحن نغتسل بضوء البدر... والماء شلال أمان حولنا... سألتك: ـ ماذا لو فرقت الأيام بيننا؟!

انتصب حاجباك قوسا تعجب!!: ـ لن يفرق بيننا إلا الموت.. أى قوة ستقف فى وجه حبنا سأدمرها!!

زفرفت أجنحة الحب والفرحة فى أوصالى ذاك المساء.. اختلجت نبضاتى.. اختلط نظام خفقها.. سرى الدفء فى أوردتى وشراييني.. همست فى حب: أنت أروع رجل فى العالم:

ـ وأنت أرق امرأة فى الوجود!!

مـرت الأيام وردية السـيـر.. تطوينا بحب بين أضـلاعـهـا ... أوهمتنا أن المواسم كلها تتكون من فصل واحد هو الربيع.. إن من يضحك اليوم يحك غدا.. وبعد غد.. وإلى الأبد!!

فرح.. فرح..

الليلة عرس!! سطح الدار مهرجان حبور!!

خيول القمر تضىء سنابكها أودية الليل!! تدق طبول الفرح.. الزغاريد تصطفق أجنحتها بنشوة تشق سكون الليل الهاجع.. أنغام الموسيقى تردد أصداءها جنابت الشارع المسكون بالألوان والأطفال والدهشة!!

نفسى تستجيب لدواعى البهجة... مواكب النشوة تستخفنى.. أقف .. أقـدف أقنعـة التـصنع والوقـار المتكلف.. ألقى حـذائى الفضى بعيدا... اقفز فراشة عشق إلى المنصة. اتلوى على أنغام الدفـــوف المجنونة.. أرقص .. أرقص.. كـــمـــا لـم أرقص من قـبل..شـعـرى الذى سـرحـتـه يد «المقـينة» تسـاقطت أغـلاله «المفصصة»... تناثر ليلا متشاقيا.. مازلت اتلوى... الموسيقى توقفت.. الأغنية انتهت .. ولم أتوقف..

الصبايا التهبت أكفهن بالتصفيق.. عجائز الفرح يثرثرن.. ينظرن إلى«جنونى» يمططن شفاههن المتهدلة .. ضحكات حبور

وغبطة..اشفاق وسخرية.. تنطلق مرفوفة إلى أذنى..

أمى أشفقت على... لقد أضناها مشوار العمر... وهذه استراحة المحارب » أختى تنظر إلى بخبث.. «حالة حب» أنها المعنى الكبير لما أعيشه!!

نفسى مترعة بالوجد واللهفة.. اتدفق حنانا وتوقا.. أفرغ فيضا مما يملأ وجدانى ونفسى على أنغام العزف المجنون...

صديقاتي ..أخواتى..كم كن يغبطننى ... «حظك من السماء» اضحك جذلى... أحلق طيرا منتشيا..

كللت حكاية حبنا بعقد القران..بارك الأهل والناس حبنا..

بدأت تؤثث دارا تختزن فيها أغنيات الحب... كنا نحلم ونحلم..نثرثر ونثرثر.. عن بيتنا القادم عن تنسيقه.. عن كل زاوية من زواياه..

وجاء يوم دخلنا فيه بيت أبى بعد جهد عذب... وجولات مرهقة جميلة فى الأسواق نختار أثاث الفرح.. لم يبق إلا أسبوعان لليلة العمر..

دخلت المطبخ أجهز «دلة» قهوة لك بيدى .. الفرحة تستخفنى تحجب كل شىء إلا وجهك أخذت الكبريت أشعل الموقد..و... ولم أسمع إلا إنفجارا هائلا وصرخة أفلتت من فمى..

لم أفق إلا وأنا فى المستشفى «تحت خيمة بلاستيكية.. لا شىء فوقى إلا الألم... صرخت..فتحت ناحية من الخيمة.. كان وجه أمى باكيا دامعا.اسأل ما الذى حدث.. أعلم أنى احترقت .. الألم... الوجع... الخوف..كل شىء يجعلنى أصرخ.. كلما أفقت وأحسست بالألم حقنونى بسائل لا لون له.. أعود إلى الغياب..لا أدرى كم قضيت بالمستشفى عندما جاء أبى مساء يحمل إلى خبر السفر إلى الخارج للعلاج...سألت عنك...قالوا إنك ستسافر معنا ، سافرنا .. كنت لا تفارق غرفتى كأنك قد ثبت إلى المقعد بدبابيس حانية.. لكن وجهك كان خريطة لأحزان العالم... حتى عندما تمسك بيدك يدى الملفوفة بالشاش كنت أشعر ببرودها وقشعريرتها... يارب اعطنى القدرة على إسعادة..يارب اعطنى الصحة من أجله..

لم يكن يظهر من جسدى كله إلا العينان... لا استطيع بسط كفى..أحس أنها ملتحمة..

لا تخافى حبيبتى ربما كان فتورا من الضمادات.. فجر ضبابى كئيب فى تلك المدينة... البرد يزلزل كيانى رغم أجهزة التدفئة... يدخل الطبيب الأشقر..يبتسم لى ابتسامة مرسومة... سألنى عن حالى.. يقترب كالجلاد فى عينيه الزرقاوين رائحة

القلق.. تتقدم ممرضة تدفع عربة الغيار... أخرى تساعد الطبيب أبحث عنك...عن أبى..عن أمى..لا أحـــد إلى جـــوارى، أين أنتم؟أصرخ صرخات هستيرية.. يربت الطبيب على كتفى.. «سنفك الضمادات!».

- لماذا تفكونه الآن؟! فكوه عندما يحضر أهلى!!

- نريد أن نفاجئهم بشكلك الطبيعى الجميل.. تخيلى منظرك.. وأنت تلبسين قميصا عاديا تستقبلينهم بابتسامة حرموا منها كثيرا..

- فعلا..لماذا لا أكون كذلك!!

ويبدأ المقص عمله... وفى نفسى تختلج مشاعر كثيرة هل حقا ستلمس يداى يديك؟! هل .. هل .. هل ؟!

امتلأت السلة بالغيار - بالشاش الكثير.. أرى القلق فى وجه الممرضتين رغم محاولة التصنع بالفرح لشفائى.. أرى المفاجأة الموعودة فى عين الطبيب.. أحاول بسط كفى أصابعى .. لا أستطيع ...أصابع قدمى أيضا لا تعمل إنها ملتصقة .. يطمئننى الطبيب بأن عملية بسيطة ستجرى!! عملية أخرى؟! لم يبق فى احتمالى مكان لها!!

يأتى وقت الزيارة .. تركض أول المجموعة.. ابتسم لك..

أحـاول اخـفـاء يدى وقـدمـى.. تنظر إلى وبدون إرادة تعـود إلى الخلف...وكأنما تستجمع قواك وشجاعتك أذهلتك... دخلت أمى .. ثم أبى... كلهم هزتهم المفاجأة... كنت أحـاول شـرح الموقف المفاجأة... أجدكم جميعا تحـاولون الابتسـام أقنعة للحزن... خرجت يا «مـهند» ..انسـحبت بهدوء..يومـان بعدهـا لم تأت إلا زيارة خاطفة..

ثم لم تعـد تأت.. اسـأل عنك أبى وأمى..اسـأل عنك المارة .. عندمـا أقف إلى النافذة.. المطر يتسـاقط بغزارة.. اشـتـهى أن نركض مـعا تحـتـه .. آه من أصـابع يدى وقدمى.. ولكن العملية ستعيدها إلى وضعهما الأول... ستحويهما كفاك حنانا وحبا..

ـ «مهند».. لماذا لم تعد تحضر حبيبى؟!

ـ غالية» ..أنا ..أنامشغول!!

ـ أعلم أنك تتجول فى الأسواق تبحث عن أشياء جميلة لعشنا الزائـع... غدا أخـرج مـعك... سنشـتـرى ثوب الفـرح... ثوب الزفاف.. ثوب العمر من هنا!!

ـ «غالية» أنامسافر غدا ـ لقد انتـهت الأجازة التى طلبـتـها لمرافقتك..

ـ ألن أراك..

- بلى .. بلى.. سأودعك غدا!!

كم كنت ساذجة.. عندما لم أشعر بتباعدك عنى.. ليلتها ليلة أن حدثتنى بالهاتف... كنت سعيدة.. أحلم بغدى..قررت أن ارتدى ثوبا جميلا شرته لى أمى من سوق تلك المدينة... قررت أن أضع بعض أدوات التجميل على وجهى.. رغم أنك دائما تشجعنى على عدم وضعها .. تقول أنك جميلة بلا مكياج.. سأكحل عينى.. أحضرت قوارير العطر..تحب رائحة العودة سأضع قليلا فى شعرى.. لكن أصابعى!!

غصة تخز صدرى.. لابد من وضع العطر بأصابعى الملتصقة بباطن الكف..

ماذا؟ لا أشعر بشىء.. اسحب عصاى المعدنية.. اتوكأ عليها.

- أريد مرآة !! «أصرخ» أريد مرآة!!

اذهب إلى الحمام .. على ذراعى معلقة حقيبة التجميل.. أقف أمام المرآة. انظر فى وجهى.

وجهى؟ يدور رأسى .تضعف ركبتاى.. أتهاوى..

وعندما أفقت... تذكرت الموقف... «ياه» منظر فظيع .. مريع... شنيع.. لم يكن فى رأسى شعر... وجهى ليس وجهى لقد اختلطت الملامح... ليس لى حاجبان ولا رموش.. أنفى لم

يعد فيه إلا فجوتان.. أخذت أصرخ: كفنوني.. اعيدوا إلى كفني.. «مهند» كان معي طوال الوقت ولم يهرب إلا عندما ظهرت الحقيقة..

«مهند» أنا لا ألومك حبيبي.. هذا قدري وهذا قدرك..

قلت لأمي.. لا أريده أن يراني أبدا!! افعلي أي شيء لتصرفيه.. سيأتي اليوم ليودعني..

ولم تأت يا«مهند» .. من يومها لم أرك... مرت السنون متعاقبة... لم تصدر حكم الطلاق.. ولم اطلبه!!

- لن يفرق بيننا إلا الموت..أي قوة ستقف في وجه حبنا سأدمرها!!

(*) وردت في مجموعة «أحبك ولكن..» - نادي جدة الثقافي - جدة - ١٤٠٨ = ١٩٨٨.

البكاء على صدر القبيلة(*)

وفاء الطيب

«شيء ما» يتفتت ويتناثر إلى الأبد.«إحساس ما» يجعل لأنفاسك الرتيبة وأنتَ نائم صوت البوم الذى ينعق تلذذا بأجواء الخرائب.. الخوف يقتلنى. «ذعر ما» يحتلنى يمزقنى، يسحقنى ، بينما أنت تتمدد على سريرك كالأموات أحيانا أخاف أن يتحول مخدعنا فى هذا الليل الموحش إلى قبر بشع ودافىء، أخاف أن يقام فيه مهرجان أسطورى تسمر فيه الأشباح، وترقص رقصتها المثيرة، أخاف أن يتحول كل شيء حولنا إلى نعش خشبى يحملنا معا. وجه الهندية الوثنية يطاردنى، ينهش الدود جسدها بوحشية، ألمحها تصرخ هلعا بعد أن أجهز الدود على زوجها الخامد الأنفاس... أصرخ وأصرخ.. وتنساب أنت فى ثنايا الرقاد وتتركنى وحدى مشنوقة الجفنين... أغسل اقترافاتك بدموعى وجنونى وتساؤلاتى.

على شفا «هاوية ما » يستقر إحساسى يسقط فى دوامة التساؤلات الملحة. هل اسأل؟ من أسأل نعشك الذى ترقد فيه أم شخيرك الذى يعلو؟؟

سؤال ما يدور فى خاطرى ، كثور مغمض العينين مقيد حول ساقية مهجورة، سؤال فظيع يتلوى كالأفعى ثم يلتف حولى، ينهش لحمى وعظمى، يلعق آثار دمى، ينثر خصلات شعرى المبتلة، تنام التساؤلات فى حلقى كالدبابيس. - لماذا تزوجتنى؟ ولماذا أحببتها بعد أن تزوجتنى؟ .. لماذا الـ «بعد » وليس الـ «قبل» ..؟ أمن الرحمة أن تسحقنى مرتين..؟ أمن الإنسانية أن تذبحنى مرتين..؟

إننى ما سألتك قبل الآن، ما عاتبتك قبل الآن، ما استجوبتك قبل الآن.. ما استجوبتك عندما أصررت على أن تتزوج بى دون فتيات القبيلة لأننى أحببتك، ما عاتبتك لأنك استهنت برأى أهلى وأهلك فى زواجنا لأننى أحببتك . ما اشترطت مهرا وقصرا وعربة وسائقا لأننى أحببتك... لكنك فجأة هدمت كل شىء.. لماذا؟!

إننى ما سألتك حتى الآن عن فعلتك لأننى لا أجرؤ، لا أقدر، لا أطيق ، أجبن عن مواجهتك..

مع أنه كان يمكن أن تذوب اقترافاتك فى بحور غفرانى، كان

يمكن أن اصفح، أن أنسى، أن نتلو صفحة جديدة لأنى أحبك.

ومازلت أحبك... كان من الممكن جدا أن أتغاضى، أن أتجاهل ، وأن أغفر لو أنها أى سيدات الأرض... أى نساء الدنيا.. أى شهرزاد جميلة إلا أن تكون سناء!!

«ياه.. أى مستنقع أخوضه وحدى يا«معاذ»..؟ أى هاوية تجرفني وحدى وأنا أسمعك وأسمعها؟ أراك وأراها؟ تنحرني لأجلها ليالى وأياما.. يشنقنى خيط حريرى واه ينفذ من عينيك الوقحتين إلى عينيها الناعستين.. يصعقنى تيار مجنون ينهمر من حروف شفتيك المخادعتين إلى أذنيها النهمتين .. وتنسى أنها «سناء» أختي!!

وأنها «سناء» شقيقتي يا «معاذ» وتهدم كل شىء.. كل شىء.. تنام فى ليل يلتهم صوت العاصفة هادئا وديعا كالأطفال... لكنى أخاف ، أرقب ألسنة النيران تتراقص فى الموقد مثل سحالى طرية تنسجم مع سيمفونيات الريح، ويصحو صراخي القديم كمخطوطة عتيقة تسحق عنها طلاسمها .. يوم أن أعلنت أنى أحبك وأعلنت تمردي على قرارات أبى وتوسلات أمي ومنطقيات القبيلة... يوم أن قلت لهم: «إنني أحبه كحبة قمح تعشق بيادر الصيف وتجوع للمطر».. وصرخت فيهم: «أرجوكم لا تنحروا حبى قربانا للمنطق والمعقول... لا تشعلوا

نيران المدفأة بحطام قلبى..

أرجوكم خذوا عينى وتأملوا وجهه... جرأته .. عذوبة عينيه..

دعونى أحبه بالطريقة التى تدفىء قلبى..»

أما الآن «فبرودة ما» تجعلنى أنتهز فرصة نومك لأنسحب وأتسلل بعيدا عنك «دفء ما» يجتاحنى عندما ألتحف بالصمت فى أعماق الليل أشعل فى أعماقه الثلجية موقدا ، أصنع فى أغواره السحيقة مرفأ وأصغى إلى أم تهدهد طفلها كلما أفاق مذعورا يتخيل أن العفاريت تطارده... وينتحب قط قرب النافذة بينما يتحفز للوثب على إحدى الأشجار..! إحساس لذيذ ومخيف يتملكنى عندما يخترق الليل مساماتى ، ينفذ فى بمنتهى الهدوء، يعبر مساحات الصمت والخوف، يمتزج بأنفاسى .. يحرك صراخى القديم فى عناد أبى فى توسل أمى، فى طقوس القبيلة البليدة.

يوم أن ناقشتهم بضراوة، جادلتهم ببسالة.. قلت لهم: «لماذا تحارب قبائل رفضكم قبيلة العشق التى سكنت أرضى؟... إننى لن أتزوج سواه.. فلماذا تباركون عرسى بهذا الازدراء وهذا المضض؟ ألا ترون كيف يبارك الحب قلبينا..؟»

«ليل آخر» يسرقنى من صراخى القديم» أغيب فى كهوفه الرمادية أتدحرج فى دهاليزه كطابة فى يد طفل عابث...

صرخات مجنونة تشق رداء الصمت الذى يحتوينى ، من يستعرض قدرته على الصياح فى بيادر الصمت؟ ربما أنا!.. إنها كوتر مشدود فى آلة كمان قديم ، لكنها نفس نبرة صوتى وأنا أذيب فيها انفعالاتى القديمة، واقذف بها كالحمم فى وجه أبى، فى ضعف أمى، وفى أشداق أهل القبيلة... صارحتهم ، واجهتهم، قلت لهم: «لقد تزوجته وانتهى الأمر... ولتحل على لعنتكم..»

«ياه .. ما افظع أن تكون لعنتكم «سناء» العذبة!! وما أبشع أن تنحر لعنتكم حب «معاذ» الكبير فى قلبى!! من يصدق أن تكون لعنتكم أقسى من لعنة الفراعنة التى يزعمون ؟! لماذا «سناء» بالذات؟! خط يدها ينهشنى ، يسحقنى يلوث الورقة الزرقاء التى تنام فى طيات وسادتك، ضبطتك تتهجأها كطفل بليد، ثم أخذت تتلوها فى نهم... فاحت رائحة عطرها المفضل فى عينيك، فى أجواء الغرفة... تسللت يومها إلى غرفة أخرى لأتوسل إليك فى صمت أن تعشق نساء الدنيا، أن تستميل إليك سيدات الأرض كلهن وتدع لى «سناء» أرجوك... لماذا لا تلين؟ يطاردنى صوتها المتكسر العذب من سماعة الهاتف فينساب كالزيت على جمرى الملتهب.. يشعلنى .. يحرقنى .. أعدو نحو مرآة الحمام اتطلع فيها... لماذا هى وليس أنا؟ مع أننى أجمل

منها؟ أغمس رأسي المشتعل تحت الماء، ينزلق الماء على كفي لزجا كالطحالب فأغسل به وجهي... يلتصق بوجهي سرب من الديدان الجائعة... أحاول أن أنتزع وجهي... يداي كالمطارق تدقان على الجدار.. كفي .. كفي... لم أعد أحتمل... من ينتزع قناع اللعنة الذي أدمن سحنتي..؟ لقد أسكنت وجهي التجاعيد على غير أوان، نثرت خطوطا بيضاء على شعري قبل الميعاد ! تريدون أن أغسل اقترافاته بدموعي كل يوم، ثم انكفيء لألعق ذنبي في أن أحببته رغما عني.. في أن تزوجته رغما عنكم.. في أن حاربتكم من أجله.. تريدون أن أعترف.. أن أمضغ حروف الاستغفار، وأن أجتر كلمات الندم أمامكم... اعترف .. أعترف.. اعترف..إنني أتوب تحت قدميك يا أبي... إنني أتوب على صدرك ياأمي.. إنني أتوب في عينيك ياأخي..إنني ألوذ بوجه القبيلة.. فقط.. أرجوكم .. أعيدوا إلى «سناء» توأم روحي... وخذوا عني لعنتكم.. فأنا لم أعد أحتمل.

(*) مجموعة «لن أعود إليك» نادي المدينة المنورة ـ العدد (١٠١) ـ ١٤١٧ = ١٩٩٦.

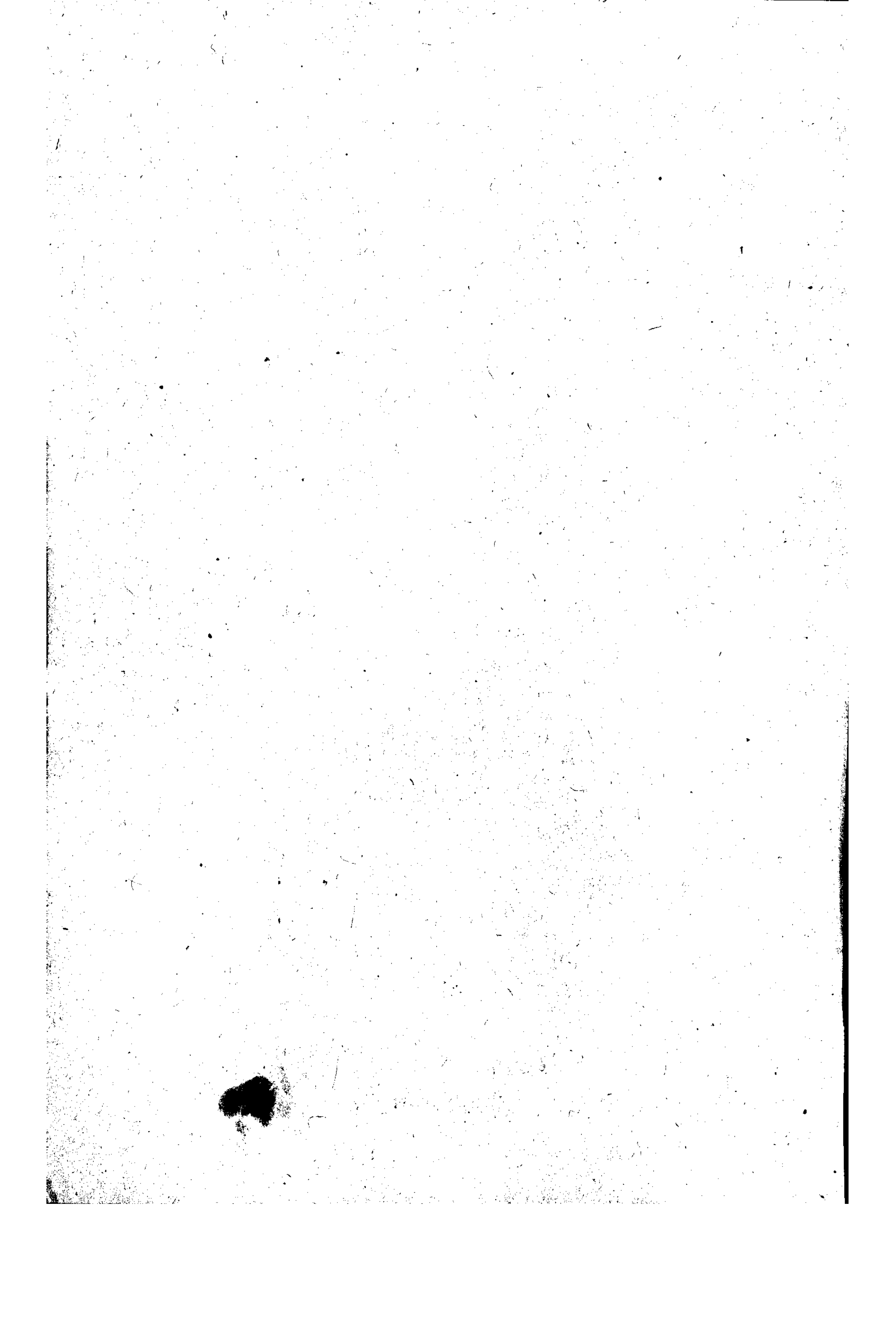
المحتوى

صدر من هذه السلسلة

من أعـــدادنا القـــادمة

* زهرة الصندل............................... وليد إخلاصي
* إشراقة .... التِّجانى يوسف بشير
* فدوى طوقان...................................... قصائد

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٤٧٧٤



شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقاً)